زينب

صرخة أكملت مسيرة

د. أنطون بارا

للتواصل مع المؤلف

Email : baraantoun@gmail.com

موبايل 99230007 00965

هواتف سوريا

00963 11 7812848

00963 11 7814848

طبعة 2018

رقم الإيداع في الإعلام

قسم مطبوعات الكتب العربية

٢٨٤٠ / ٢٠١٥

فهرس الفصول



والصلاة والسلام على
محمد وآله الغر الميامين

الفصل الأول

كعبة الرزايا

رؤية الجمال
ومؤثرات الإقناع

مقدمة العلامة الدكتور أسعد علي

- ١ -

فُصولُ المسيرةِ الزَّينبيَّة : تأخُذُ بِيَدِ القارئِ ولُبِّهِ إلى رُؤيةِ الجمال ..

- ٢ -

رُؤيةُ الجمال : كلمتان .. كأنَّهُما : عَينا شُعورٍ غامرٍ بينَ الفَصل الأوَّل «أدعية زينب ومُناجاتها» والفصل السَّابع عشر «بيَن زَينب ومَريَم».. كُشوفُ إحساسٍ مُباشرٍ بالجَمال الذي تُخاطِبُهُ السيِّدةُ الحَوراء (ع) في مُناجاتِها وأدعيتِها..

- ٣ -

لَيستِ المسافةُ مَعلومةً تَماماً : بينَ خَفِيِّ الدُّعاءِ الفِكريِّ وَجَلِيِّهِ اللسانيّ..

- ٤ -

كذلكَ تَتَّسِعُ الآفاقُ في الفصلِ السَّابع عشر معَ اللفظَين المُقَدَّسَين.. «مريَم وزَينَب»..

- ٥ -

«مَريَم وزَينَب» : عَوالِمُ جَلالٍ وجَمال.. ومَواهِبُ رَجاءٍ وبَهاءٍ..

- ٦ -

أعتذرُ إليكَ وإلى قُرَّائِكَ : عنِ الإفاضَةِ بِمَا تَمنَحُهُ الرِّياضَة..

- ٧ -

قراءةُ الفُصولِ الزَّينبيَّة : تُشعِرُ بالحَضرَةِ الجَماليَّةِ إشعاراً يَفوقُ التَّعابير..

- ٨ -

بدءاً مِنَ التَّسميةِ المُختارة لتلكَ الفُصول : تَشعرُ بِحُضورِ الصَّرخَة.. ثُمَّ بِدَلائلِ التَّجاوُزِ عَبرَ المَسيرةِ المُتكاملة..

- ٩ -

في الفصل العاشر : تَجَلَّتْ أسرارُ بَلاغةِ هذهِ التَّسميَة..

- ١٠ -

نفحةٌ مِن طيِّباتِ تلكَ التَّسميَة .. تُشعِرُ بِها نُسَمِّيهِ : «الإعلامِيَاء الزَّينبيّ»..

- ١١ -

أمَّا في الفصلِ التَّاسعِ «جَميلاً رَأتْ» : فَنفحةٌ أُخرى، تَهَبُ التَّساميَ إلى الأُفقِ الذي تَتَّجِهُ إليه السَّيدَةُ الحَوراء (ع)، وتُرسِلُ رسائِلَها الخَفيَّة والظَّاهِرَة إليه..

- ١٢ -

خِطابُ زينب (ع) :

(أ) للشِّفاء في الدُّعاء..

(ب) وللطّمأنينةِ في المُناجاة..

- ١٣ -

مُؤنِسَةٌ أدعيةُ زينب ومُناجاتُها ؛ لأنَّها : تَرفَعُ الرُّوحَ إلى حَضرةِ المُناجَى الأقدس..

- ١٤ -

ذلكَ المُناجَى الأقدس : هوَ المُخاطَبُ ، الذي لا تَرى إلاَّهُ.. ولذلكَ كانتْ صَرخَتُها النَّابعةُ مِنْ ذلكَ المَنبع، والتي تَتَصاعدُ مِنَ العبارةِ المُعْلِمَةِ بذلكَ الجميلِ الذي تَراهُ عَينا السَّيدة الحَوراء (ع)..

- ١٥ -

المُستَغرِقُ بالتَّأمُّل على الشَّاطئ : يَشعُرُ بغِنى الفِكرِ، عُمقاً واتِّساعاً، لَكنَّهُ.. يَلتَزِمُ بهذا المِقدار المُحَرِّرِ مِنْ حُدودِ الضَّرورةِ والأغيار..

- ١٦ -

«جَميلاً رَأَت» السَّيدةُ الحَوراء(ع) : خَطُّ استواءٍ يُريكَ الجَنَبات بِما يَفوقُ اللغات..

- ١٧ -

«جَميلاً رَأَت» : فصلٌ تاسعٌ ، في الفُصول التي قَدَّمَها الباحثُ في المَسيرَةِ الزَّينبيَّة.. لذلكَ نَدعوهُ خَطَّ استواء.. باعتبارِ عَددِ الفُصول المُقَدَّمة..

***

- ١٨ -

عددُ فُصولِ المَسيرةِ الزَّينبيَّة : يَمنَحُ أهلَ الرُّؤية، وأهلَ الحُدوسِ الفَلسفيَّة : مِثلَ الكهرباء الدِّماغيَّة، التي تَتَمَوَّج مِنَ الثَّقافَة.. ومِنَ الرَّهافَة ..

- ١٩ -

أُجَدِّدُ اعتذاري لكَ ولقُرَّائكَ.. فإشعاعُ الكلمات : يُضيءُ ما لا تَستَوعِبُهُ اللغات.. قُلْ ما تَشاء في ظِلالِ الفَصل التَّاسع الذي سَمَّيتَهُ «جَميلاً رَأَت»..

- ٢٠ -

رُؤيةُ الجَمال : مَنبعُ الدُّروسِ التي تَتَنامى مِنْ حُدوسِ الرَّائينَ الواثقينَ بِمَنْ

يَرونَ، وَراءَ حُدود «الماعون».. ومَا أدراكَ: مَا دلائلُ بَلاغةِ سُورة الماعون السَّابعة عشرَة وفقَ تَرتيب نُزولِ سُوَرُ القرآن..؟!

- ٢١ -

كذلكَ مَنْ يَدري : مَا وراءَ أسرار الإعجاز في سُورةِ «الإسراء» وَفقَ تَرتيبِ الجَمعِ القرآنيّ .. فهيَ: ذاتُ الرَّقم السَّابع عشر أيضاً..؟!

- ٢٢ -

هذا التَّطَلُّعُ إلى مَطالعِ الفَجر في مِثلِ لَيالي القَدْر: تَجتَذِبُ إليهِ دَلائلَ المُراسَلات مِنَ الأرقام والكلمات..

- ٢٣ -

يا صديقي.. عندما كتبتُ «الإبداعَ القِرائيّ في يوم زينبي» : كُنتُ مَغموراً بِمُعطَياتِ إلهامٍ، لَمْ أضغطْ على إذاعَتِه لِغَيرِ أهلهِ.. بَعدَ رُؤيَتِهِ السَّابعَة..

- ٢٤ -

كذلكَ عندما كَتبتُ «المُعجزات المَريَميَّة» : أخَذَني مِثلُ هذا الشُّعور الغامر.. لَكنَّني غامَرتُ بالبَوحِ المُترَجَمِ إلى ألسِنَةٍ بَاهرَةٍ وساترة..

- ٢٥ -

عندما اتَّصَلتُ بالفصلِ السَّابع عشَر مِنْ كتابكَ : كانتْ كَلمَتا مَريَم وزَينَب: مَلِكَتَيّ إعلامٍ وإلهامٍ..

- ٢٦ -

تستطيعُ أنْ تقولَ مَا تشاءُ في هذهِ الحَضرَةِ المُشِعَّةِ بأنوارِ المَطالع وتَألُّقات المَراجِع..

- ٢٧ -

الحَوراءُ والعَذراء (ع) : تُؤَثِّران بالتَّاريخِ والإنسان..

- ٢٨ -

مِن عَباقرةِ المُؤرِّخِين : مَنْ يَرصدُ التَّأثيرَ مِقياساً للتَّقويم..

- ٢٩ -

مِنَ الأمثلة : مَا قامَ به «مايكل هارت» في الكتاب الذي رَصَدَ به سِيَرَ «المئة الأوائل» الذينَ كانوا أكثَرَ تأثيراً في كوكبِ الأرض..

- ٣٠ -

جَدُّ السيِّدة زَينَب (ع) وابنُ السيِّدة مَريَم (ع) : تَصَدَّرا كتابَ «المئة الأوائل» لتأثيرِهما البالغِ بأهلِ الأرض..

- ٣١ -

كانَ شُعوري معَ الفَصلِ السَّابع عشر : مَبعَثَ حُدوسٍ رُوحيَّة ، تؤنِسُ بأحوالِ كلِّ قضيَّة .. وتَمنَحُ كُلَّ شيءٍ رُقيَّه..

- ٣٢ -

مُبارَكٌ اهتمامُك بهذا الأهَمّ..

- ٣٣ -

فُصولُ كتابِكَ الزَّينَبيّ : تُذَكِّر بِكتابكَ الحُسَينيّ.. الذي كَتبتُ مُقَدِّمَتَهُ سنة ١٩٧٩م..

- ٣٤ -

مُواصَلَةُ اهتمامِكَ بهذا الأهم تَستَحِقُّ تَقديرَنا ومَوَدَّتَنا..

***

- ٣٥ -

ويُتَمِّمُ خُبَراءُ الحُقوقِ والذَّوقِ بِالقَول : «ويَستَحِقُّ عَمَلُكَ دكتوراه الإبداع في

مؤثِّرات الإقناع»..

- ٣٦ -

تَمَّمَ اللهُ لكَ بالخَير.. ونَفَعَ بعَمَلِكَ إنسانَ عالَمِ آدم..

- ٣٧ -

شَرَّفَ اللهُ عالَمَ آدم : بالصَّالِحينَ والصَّالحات، الذين أكَّدوا فضلَ الله السَّابغِ على العِيال في كُلِّ مَجال..

- ٣٨ -

الأنبياءُ والأولياء.. وأهلُ الحَقِّ والخَير : يَتَذَوَّقونَ ثَمراتِ المُعجِزِ المُريميّ.. والمُنجَزِ الزَّينَبيّ..

- ٣٩ -

أيُّها الأخُ العزيز.. مُقَدِّمَةُ كتابكَ الزَّينَبيّ وفصلُهُ السَّابع عشَر الأخير.. ومُصطَلحاتُ عَناوين الفُصول : مُؤَثِّرَاتٌ.. ألهَمَتِ المَشاعرَ المُقْمِرَة والمُثمِرة..

- ٤٠ -

كذلكَ رسالَتُكَ الجديدَة.. وكلماتُ الإهداء على مَدخل الطَّبعةِ المُجَدَّدة منْ كتاب اللقاء الأوَّل «الحُسين (ع) في الفكر المَسيحيّ» : مُؤَثِّراتٌ مُثريات.. وثُريّاتٌ يَتَحَدَّثْنَ مِنْ تَألُّقِ الصَّفاءِ والنَّقاءِ المُوَحِّدَين بَينَ القلبِ والعَين.. وبَينَ اللسانِ والشَّفَتَين..

- ٤١ -

أستطيعُ الآنَ أنْ أُحَدِّثَكَ بلُغةِ المُوسيقا الخَفيَّة التي ألهَمَتْني : «مَزامير الحُسين»، تُنشِدُها تلك الحُور في عالَمِ النُّور..

- ٤٢ -

مثلُ هذا الشُّعور : تَوَهَّجَ هذا الصَّباح الدِّمشقِيّ الذي أسمَعُ بهِ مَزيجاً مِنْ تَلاقي النَّسَمات بأصواتٍ وأصوات..

- ٤٣ -

أستَجلي مِمَّا أسمعُ.. ومِمَّا أشعرُ : ما يَستَحضرُ بي خَواطِرَ مِنْ سِيرةِ المَسيح (ع) والحُسين (ع).. ومِنْ سِيَرِ العَذراء (ع) والحَوراء (ع)..

- ٤٤ -

ذلكَ هُوَ البيتُ الحُسَينيُّ الزَّينبيُّ.. وذلكَ هُوَ البَيتُ المَسيحيُّ المَريَميّ..

- ٤٥ -

تَوفِيقاتُ المُلهَمينَ : تَمنَحُهُمْ هويَّةَ الاهتمامِ بهذا المُستوى مِنْ مَقاماتِ الإكرام..

- ٤٦ -

عالَمُ آدم : مَشغَلَةٌ لأهلِ العُلى.. وأهلِ الدُّنى..

- ٤٧ -

وذو الجَلال والإكرام : حَفيٌّ بأنامِهِ، مِنْ رُقيِّ مُقامِهِ.. تَبارَكَ اسمُهُ وعُزَّ مَعناه..

- ٤٨ -

طُيورُ الصَّفاءِ الرُّوحِيّ : تُحَلِّقُ بِصَاحِبِها فَوقَ عَوالِمِ الضَّجيجِ والدَّويِّ..

- ٤٩ -

مُلاحَظاتُكَ الزَّمانيَّة : أنضَجَتْ ثَمَرات التَّاريخ على أشجارِ حَياتكَ العالَميَّة..

- ٥٠ -

ثِمارُ نشاطِكَ النَّاضجة : وَحَّدَتْ في حُروفِكَ حِبرَ الآلامِ والآمال.. لعَلَّها تُؤَثِّرُ في أخلاقِ الأجيال.. بِما قَدَّمْتَ مِنَ الأمثال..

- ٥١ -

رَنَّمَتْ بخَاطري : دَلائِلُ إعجازِ الآيَة الخِتاميَّة مِنَ السُّورة التَّاسعة والعشرين وَفقَ الجَمع.. حَقَّقَ اللهُ لَنا وَبِنا طُموحَ الأملِ بآمِنات المُثُل..

(والذين جاهدوا فينا..لَنَهديَنَّهُم سُبُلَنا.. وإنَّ اللهَ لَمَع المُحسنين)..(٢٩/ ٦٩)

والسلام

وألتمس الدّعاء .. لأفقرِ الفقراء..

خادم الحق بالخَلق

مرشد الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية خارج الوطن العربي

د. أسعد علي

دمشق ٧/ ٧/ ٢٠١٢

* * *

مقدمة المؤلف

مجمل مواقف السيدة زينب عليها السلام منذ طفولتها وحتى بلغت مبلغ الشباب وصولاً إلى مراحل كفاحها ، تلك المواقف ماكان منها على مستوى الأسرة أو على مستوى العقيدة .. يعد كلٌ منها سفراً للتضحية والإيثار جدير بالدراسة والتحليل واستخلاص ما يحتويه من فضائل وأسس أخلاقية وإيمانية قلَّ نظيرها ، ولا أعتقد بوجود من يقوم بشبيهاتها أو يقدر عليه إن رغب القيام به .

الدوافع النفسية والإحساس بجسامة الموقف والدور المناط ، أبدعت بها العقيلة أيما إبداع .. وألقت بنفسها في التهلكة مناصرة أخيها المحاصر والعطشان والمطعون والمهان .. ودافعت عن ركب السبي دفاع اللبؤة عن أشبالها ، وتصدت لسفاهة يزيد وقارعته الحجة .. وألَّبت قلوب المسلمين على بني أمية.

وأرى أن أفضل المحاور لأي دراسة حول عظمة السيدة زينب «ع» لايجب أن تقتصر على سرد مواقفها وحسب .. بل يجب الغوص في تجلياتها وتحليلها تحليلاً إنسانياً وعقائدياً يليق بها وبسموها ، فلم أجد خلال بحثي طوال ربع قرن حينما بدأت بكتابة سفر العقيلة .. أي إيراد عن امرأة قامت بما قامت به على مر التاريخين الديني والوضعي ، وتقلبت في شتى المواقف الصعبة ، وحملت في قلبها آلام أسرتها ، وتحملت من المصائب ما أهَّلها لتحمل عن جدارة لقب « **أم المصائب** » فلقد عاينت هذه العظيمة مقتل أبيها أمير المؤمنين ورأت سريان الدم من رأسه ، ورأت أخاها

الحسن يلفظ كبده من سم جعدة وعاشت لحظات الاعتداء على أمها وكسر جنبها وإسقاط جنينها وسلب إرثها وتحملت ماتنوء عنه الجبال الراسيات من صحبة أخيها إلى أرض الطف ومعايشتها لمحنته لحظة بلحظة ، ورفعها لجسده الطاهر محزوز الرأس وسحبها لزين العابدين من بين ألسنة اللهب ، وعذاباتها من مصرع ولديها محمد وعون ، وقيادتها لركب السبي المفجوع عبر الولايات الإسلامية ، وحمايتها لعقيلات وحرائر أهل البيت «ع» من المهانة ، وتسفيهها لوقاحة ابن زياد أمام الملأ ، وتقريعها ليزيد المتجبر فوق متكأ جبروته .

فهل يجد قارئ سيرة زينب «ع» شبيهاً لها في سير نساء زمانها وقبله وبعده .. هل هناك من عاينت وعانت مثل ماعاينته وعانته .. فما الذي دفعها لترك كل شيء من تنعم وبلهنية العيش في بيت زوجها الميسور واصطحاب ولديها والإلتحاق بأخيها إلى أرض المصارع.. وماهي القوة الخفية التي أمدتها برباطة الجأش فائقة المستوى.. هل تكفي العلاقة الأخوية للدفع إلى ذلك أم أنها استشعرت عظم ماسوف تقدم عليه من عمل يقرب من التكليف الرسالي ..؟ إذ لولا خروجها مع أخيها لما بلغت ملحمة كربلاء مرقاتها في النفوس والتاريخ والأكوان .

وكيف نفسر هذا التعلق الكبير من العقيلة بشخصية أخيها .. وهذا الحب الأخوي الفريد من نوعه والذي دفعها للموت من أجله .. وكيف لم يلفت هذا الخلق الكريم الأذهان إلى التطرق لتربية نساء أهل بيت النبوة ، وسريان تعاليم أمير المؤمنين إلى أبنائه وتحويلهم إلى متاريس للعقيدة والمبدأ .. ولمَ يُكتفى بسرد الوقائع في ذكرى الملحمة الخالدة دون الإسهاب في ماهية هذه التربية المنزهة عن كل عيب ..؟

نساء تدافع عن إخوتها وذراريهم .. فهل هناك من دافعت عن أخ كما دافعت زينب عن أخيها الحسين وحمت زين العابدين وقامت بدور أسري ورسالي متعلق بالعقيدة من خلال دفاعها واستماتتها لافتداء أخيها وهو بين براثن الموت والحرص على عدم فناء سلالته المقدسة من فوق جديد الأرض ..؟

لقد بدأت بتأليف كتابي هذا « **زينب .. صرخة أكملت مسيرة** » منذ ٢٥ عاماً وحتى

الآن لم أتمكن من إنجازه ، وكثيراً ماتساءلت في سري : لماذا كل تلك السنين لتأليف كتاب ؟! وأجد الإجابة بأنني عاجز عن استيعاب سحر هذه الشخصية العظيمة وأشعر بالتقصير عن الإحاطة بمواقفها ودورها في ثورة أخيها .. فكلما تعمقت في سبر غور هذه الشخصية الآسرة الحنون .. أشعر بإحساس التقصير .. لماذا ؟ لأن ثمة جوانب نفسية وتربوية وعقائدية وخلقية في مسيرة حياتها «ع» يلزم للإحاطة بواحدة منها إلى مجلدات .. فمن أين أبدأ وإلى أي مدى سأصل؟ فهذه السيرة العطرة محيط واسع لاغور له ، ونظراً لشدة إعجابي بهذه السيرة وبشخصية بطلتها ونظراً لسطوع تلك الألوان المشعة منها .. فإني أجزم أنه لايمكن لأي باحث في حياتها من إنجاز أي دراسة عنها دون أن يشعر بالتقصير وضعف الإحاطة بشموليتها غير العادية ، وأرى أن ما كتب عن ملحمة عذاباتها لم يفها حقها حتى الآن ، لذا أتمنى من الله أن يمدني بالقوة والجلد والإلهام لإكمال الخوض في هذا السفر الشاسع للعقيلة ، وأن تشملني بطلته ببركتها لأنجح في تحليل مجريات تضحياتها الخالدة وإنجاز هذه المهمة ، حيث أتشرف بكوني واضع تلك العبارة في كتابي « **الحسين في الفكر المسيحي** » التي أخذت حظها من الرسوخ في عقل كل ذي ضمير حي :

« **إذا قيل إن الإسلام بدؤه محمدي فمن الجدير أيضاً القول إن استمراره حسيني وإذا قيل إن ملحمة كربلاء بدؤها حسيني فمن الجدير أن يقال أيضاً إن استمرارها زينبي** » .

لقد عايشت كفاح هذه الشخصية الفريدة في تاريخ الإسلام خلال سنوات تأليفي لكتابي الحسين في الفكر المسيحي وحللت مواقفها وشعرها ومناجاتها ، لكن ليس بشكل مكثف بل من خلال سرد السياق التاريخي لملحمة الطف بالقدر الذي يصل الأحداث ويفضي إلى ما بعدها مع تحليل مبسط ، وبعد أن أصدرت الكتاب كان ثمة خاطر يلح في أعماقي ويوحي لي بضرورة إضافة جزءٍ ثانٍ لهذا الكتاب الذي استغرقني تأليفه سبع سنوات ، وشخصياً كنت على ميل لهذا الخاطر تكريماً لبطلة كربلاء التي قامت بدور لايقل أهمية عن دور أخيها ، ومن الإغماط لهذا الدور ألا أخصص له مؤلفاً آخر يكون الجزء الثاني للكتاب الأول عن أخيها ، وهكذا

تحول هذا الخاطر إلى هاتف رجَّاف يلازمني في صحوي ومنامي ويدفعني فوق ما تدفعني إليه نفسي إلى البدء بالعمل ، وكنت في كل محاولة للبداية أشعر بصعوبة تأليف كتاب عن العقيلة خوفاً من ألا يظهر بمستوى الكتاب الأول ، يضاف إلى هذه الخشية كوني استغرقت طويلاً في الإطلاع على سيرة حياتها واكتشفت أن هذه الحياة لا تقاس بطول أو بعرض حسب مقاييسنا الوضعية المتعارف عليها .. بل بحسب عظمتها وكِبَر قدر تضحيتها وتميز مواقفها ، وتفرد بلاغتها وعلو فصاحتها وتقديمها القدوة الحسنة للمرأة ، والجمع في صفاتها وأخلاقها شمائل الخلق النبوي والحس الرسالي ، لذا ونظراً لعمق هذا المحيط الذي خاضت عبابه بجسارة نادرة وجدت من العسير عليَّ المغامرة في البدء بالتدبيج في سيرتها العطرة الخالدة ، إذ مهما بلغ الكاتب من اقتدار فلسوف يجد نفسه غير جدير بالإحاطة بهذه الهالة القدسية لكن عدت وقلت لنفسي إن القلم الذي دبج سيرة أخيها العظيم ببركته .. كان قميناً به اللجوء إلى طلب العون والبركة من العقيلة وهي ام أخيها كي تعينه على البداية والاستمرارية فكانت أولى الصفحات في سفرها المقدس قد بدأتها منذ ٢٥ سنة إلا أن ظروفاً قاهرة كانت تصدني عن المضي ، وكنت على يقين تام بأن زهرة بني هاشم ستغفر لي تقصيري الخارج عن الإرادة مع رسوخ نيتي الكاملة التي تحولت إلى نذر ووعد صادقين بإكمال الكتاب حينما تنداح الظروف القاهرة ، فهذا كنت اعتبره شرفاً لي ولقلمي مهما زادت المصاعب وطال الزمن .. شرف كنت أسعى إليه وأدعو الله الفلاح لإنجازه بعونه وببركة من يحدِّث عنها .

هذا ما انتويته وكنت واثقاً أن العالمة غير المعلَّمة تعلم مدى ما أطوي عليه ضلوعي من حب لها وتقدير لشخصها ولما قامت به ، وأن أقصى طموحي وأحلامي تمحور حول إنجاز ما نواه وعزم عليه قلبي ، وهذا ما أراحني ودفعني إلى موقف الاستعداد الأقصى للبدء مجدداً في أقرب سانحة أتأكد معها من إمكانية الاستمرار بلا توقف فيما بدأت به منذ ربع قرن .

هذا الهدف كان نصب عيني منذ بدأت في أول سطور الكتاب وقد تبلور وتعمق خلال ربع قرن على التمعن فيه ، لذا فحينما عدت إلى أوراقي أتفحصها وأعيد قراءتها

تداعت مع كل كلمة وسطر أحاسيس تلك العذوبة الفائقة منذ بدأت بتسويدها واكتشفت حينها أني كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به في التأمل والتسطير، نبهني إلى ذلك تلال الصحف والمجلات وعشرات الندوات والبرامج التلفزيونية هنا وهناك في أكثر من بلد، إذ على مدى هذه السنوات الـ ٢٥ منذ بدأت وحتى وصلت إلى مرحلة المراجعة الجديدة للأوراق والتسجيلات تمهيداً لمعاودة الإنجاز، ونزولاً عند طلبات الصحف والقنوات للقاءات صحفية وتقديم مقابلات وبرامج تلفزيونية حول سيرة العقيلة .. تبين أن ما قُدم متناثراً وعلى مدى سنوات صار يشكل مادة كافية للكتاب ولا ينقصه سوى إعادة صياغة وربط وتسلسل، هذه الطلبات للحديث عن السيدة الجليلة زينب «ع» كانت تدهشني وتعلن عن مدى حب المؤمنين لبطلة كربلاء، فأنَّى توجهت كنت أواجه بالسؤال : متى ستصدر كتابك الجديد « **زينب صرخة أكملت مسيرة** » ؟ وحينما كنت أتفحص مواقع الإنترنت أفاجأ بنشر كل مقابلة تجريها معي صحيفة حول السيدة زينب «ع» كما تعرض المواقع يوتيوب برامجي وندواتي الخاصة بسيدة كربلاء، وهذا كله شجعني على تجميع هذه المواد ما دامت قد عرضت وصار محبو السيدة زينب بانتظار طبعها كاملةً بشغف كبير .

وكانت شرارة هذا الاهتمام من قبل محبي زينب خبر صغير نشر منذ عشرين عاماً في إحدى الصحف حول عملي في المؤلف منذ خمس سنوات، ومن يومها لم تهدأ المواقع والصحف والمحطات عن طلباتها في الحصول على المزيد من فصول الكتاب وهكذا صرت أهدي هذه الصحيفة مقالاً وتلك الفضائية لقاء أو برنامجاً في مناسبة عاشوراء المجيدة إلى أن فتحت عيني بعد ربع قرن على حقيقة ولا أزهى .. تجلت في أن مادة الكتاب عرضت في معظمها وصار المتابعون لها يعلمون تفاصيلها لا سيما بعد أن نشرت جزءاً كبيراً منها بمناسبة عاشوراء ٢٠١٠ بمقدار صفحة كاملة في صحيفة يومية على مدى عشرة أيام، وقد تزامن هذا النشر مع انكبابي على تجهيز الكتاب بشكله النهائي .. استسلاماً لذلك الفيض الزاخر والمسك المطيَّب الفائح من سيرة أعظم بطلة في التاريخ البشري، استسلام تتوق معه الروح إلى استصغار كل عَنَت وسهر وآلام قياساً لتلك الآلام والعذابات التي عاشتها « أم المصائب »

الصابرة المحتسبة « **أم أخيها** » العظيمة المعظمة .. القدوة الخالدة للمرأة المسلمة ولغيرها من نساء البشرية ، لأن كفاحها أسوة وشخصيتها نموذجاً إنسانياً شاملاً مؤطراً بهيولية بيت النبوة وشمائله الرسالية .

وبهكذا شعور ودفع عدت إلى الفضاء الزينبي خافقاً بجناحي طائر في رحابه اللامتناهي .. وما مصدر سعادتي ورضائي سوى ما أنبأنيه خاطري وقلبي بما استشعراه من رضا الصديقة الطاهرة على صدق نيتي رغم المطل الطويل .. ببرهان انطلاق قلمي يسابق أفكاري سيالاً بعد جفاف ، مغموساً بمداد من عطر السيرة الخالدة لشخصية « **قرينة النوائب محبوبة المصطفى** » صاحبة الدور الفريد الذي شكل انعطافاً خطيراً في مسيرة العقيدة الإسلامية .

لكن ثمة عاملاً آخر كان يحرضني على التأني وحسن اختيار اللغة والتوجه في الطرح والتحليل لهذا الموضوع التاريخي الذي كُتبت عنه مجلدات لا حصر لها منذ الواقعة وحتى عصرنا الحاضر ، لذا كان لزاماً دفعاً للتكرار والتشابه والسرد الحرفي للمواقف والأحداث .. أن يكون التناول مغايراً للسائد السهل المكرور الذي يمتطي ظهر السرد التاريخي مكتفياً بدور الحكواتي فحسب دون التعمق في جوهر دور العقيلة ، سواء ما كان منه في الميدان أو فيما آلت إليه الأمور بعد المقتل مباشرة أو بعد قرون ، لأن في ثنايا هذا الدور عِبَر إلهية قُدمت للبشر بشخص المنزهة زينب .

ففي ملحمة الطف كانت الرسالة العلوية إرساء لأسس الحق ، ورفض للضيم والظلم في كل متوالية العصور ، لذا فإن ما قامت به العقيلة «ع» كان تكليفاً إلهياً يتوجب على كل صاحب قلم حر وضمير حي أن يكشف بنورانية فكرية أبعاد هذا التكليف ومقتضاه ، وموقف المؤمنين من ناموسه العظيم ، وبلورة رؤية بشرية له ترتفع إلى مستواه السامي ليتحقق لهم أمل الوصول إلى مداه السرمدي ، فهذا هو دور الفكر المتنور الذي يتمثل قدسية وأهداف الملحمة ودور زينب فيها ، ويستلهم من أحداثها إيحاءاتها العلوية بشفافية نفسية وتجرد قِيَمي ، فحدث ملحمة الطف ليس حدثاً عادياً أو معركة حربية كي يُكتفى بسردها والتأسي على أبطالها وإقامة شعائر الحزن والبكاء دونما الاستفادة من عِبَرها ودروسها ومغازيها والعمل بمقتضاها

وأحكامها كما قصدها بطلها الفذ وأخته المضحية ، لا بتجاهل كل ذلك لتذهب الدماء الزكية هدراً ، ويتحول الفداء العظيم إلى مراسم وطقوس سنوية ليس إلا .

إن تولي الكاتب دور السارد للأحداث لن يضيف أي جديد لجوانبها المتعددة .. لذا سيلاحظ القارئ الكريم الأسلوب الذي اتبعناه فيما يخص الجانب التاريخي المدون والذي صار معروفاً للكافة ، وقد قاربناه بمقدار ما يسمح للتذكير به والانتقال منه إلى مايراد من إيراده بالشكل المختصر .. وقد قصدت جاهداً أن أنحو في التناول منحى جديداً .. ففي فصل أدعيتها ومناجاتها ركزت على المناجاة بالذات مع تأطير مواقفها ومناسباتها ، لأن هذه المناجاة من الإغماط تركها في لب الأحداث دون إفراد فصل خاص بها ولفت الأذهان إليها نظراً لما احتوته من دلالات على شخصية قائلتها ونظراً لما تضمنته من شفافية نفسيتها ورفعة مستوى أخوَّتها وشجاعتها وحرصها على واجبات شراكتها مع أخيها ومدى تفهمها لعظمة ما يقوم به وما سيؤول إليه وفي ضمها إلى فصل واحد دون حشوها بالأحداث المؤدية إليها بشكل مطول .. فيه تكثيف لأهميتها وتركيز للأذهان في معانيها الرائعة التي ازدانت بالفصاحة والجسارة المتناهية والحب الأمومي وإنكار الذات والزهد في الدنيا وزخارفها ، والتقوى والتضحية فائقة النظير ، والإحساس بأهمية دورها الحافظ لدم أخيها ولدماء أهل البيت والصحب الكرام من الهدر ، والموصل للرسالة التي ضحى أخوها وقافلة الشهادة بأنفسهم لأجل إيصالها للبشر .

وبتركيز النظر في هذه المناجاة قبل وخلال وبعد الخروج والمقتل وإيفائها حقها من التحليل والعرض .. يتضح لنا كِبَر هذا الدور العظيم الذي تصدت له ، فكان درة في جبين العقيدة ، وقلادة نبل وسمو في جبين العقيلة ، وسفر فداء وتضحية قدم للبشرية كرمز تستلهمه وتنهج نهجه .

ونظراً لتعدد الأحداث ووقوعها في أكثر من إطار .. فقد حرصنا على إعطاء كل موقف الطابع اللغوي الملائم له ، فمثلاً في فصل « **جميلاً رأت** » عمدنا إلى التوسع في تحليل هذه العبارة الرائعة وأبرزنا دلالاتها العميقة وإيحاءاتها النفسية وقوة تحديها نظراً لاحتوائها على فلسفة زينب ورؤاها المغايرة عن رؤى الآخرين بما جرى ، رؤية

مرتبطة بالهدف الذي تحقق والذي سعت إليه مع أخيها ليتحقق بالشكل الذي تحقق به ، فكانت هذه العبارة من أبلغ العبارات الدالة على عمق إيمان صاحبته بقضية أخيها .. فتحول القبح جمالاً .. والقتل جمالاً .. وتلبست الأحوال المتصلة بالحدث لبوس جماليات لاتحد .. وقد استخدمنا لإبراز هذه الفلسفة لغة وحواراً خاصين بها يعتمدان على التحليل العلمي والحسي والكلمة المنتقاة الغنية بالمعنى والمتضمنة الغِنَّة والإيقاع الموزون المستجيب لعظمة وبلاغة عبارة العقيلة التي لايشق لها منزع لإبراز عنصر التفرد في معانيها ، وكذلك الانعكاسات التي يستشعرها كل من تصله هذه الجزالة اللغوية والأحاسيس الإيمانية بعدل القضية ، فكانت اللغة المستخدمة في هذا الفصل تحمل طابع التحليل النفسي لما اعتمل في صدر العقيلة «ع» والتناول سديد الحبكة اللغوية للمعنى الثَّر في هذه العبارة .. إن من حيث المبنى اللغوي أو المعنى المحوري لها .

إن الجوانب المتعددة لحدث الطف ما سبق مرحلة الخروج وخلال المنازلة والمصرع وصولاً إلى مرحلة السبي والمواجهة الإعلامية مع ابن زياد ويزيد وتأليب الولايات الإسلامية .. هذه المراحل التي مرت بها السيدة زينب «ع» تفرض على الكاتب التنبه إلى تعدد أوجهها مما يستلزم معه تعدد أسلوب تناولها وعرضها وهذا ما حرصنا عليه في المقام الأول .. فلم نلجأ إلى وتيرة واحدة ولا إلى إيقاع سردي وتحليلي متشابه بل عمدنا إلى إعطاء كل فصل لغة تلائم موضوعه وأسلوباً في العرض يبرز طبيعته ومراميه .

وهذا ما سيلاحظه القارئ الكريم لدى قراءته لفصول « **المواجهة التاريخية والمجلس الرهيب وأم المصائب** » حيث حوَّلنا الأحداث إلى سيناريو روائي على مثال ذلك النسق الذي كتب فيه جرجي زيدان رواياته التاريخية التي عرفت بروايات « **تاريخ التمدن الإسلامي** » بتحويل المدوَّن التاريخي التقليدي إلى مواقف وحوارات بقالب روائي مشوِّق يضاعف من بروز الأحداث والمواقف ويساهم في رسوخها في ذهن المتلقي ، وهذا الأسلوب كان قد لجأ إليه الكاتب عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيته « **الحسين شهيداً** » التي حوَّل فيها الأحداث إلى مواقف حركية وجعل

سردها حواراً بين شخوصها ، وهذا ما اعتمده آنفاً المخرج مصطفى العقاد في عمله السينمائي « **الرسالة** » الذي تناول فيه بعث الرسالة المحمدية وما رافقها من إرهاصات فكرية واجتماعية أبرزها للشاشة عملاً فنياً متكاملاً ، وكما نسج على هذا المنوال الكثير من الكتاب والمخرجين المحليين والعالميين ، لا سيما بعد انتشار الفضائيات ووسائل النشر والعرض ، فرأينا على مدى العقد الأخير مسرحيات ومسلسلات عن واقعة الطف غير مسبوقة كماً ونوعاً .

أما في فصل « **صرخة أكملت مسيرة** » فقد سخرنا له لغة النثر الحر كما سبق وأن فعلنا في فصل « **من يرفع الراية** » في كتاب الحسين في الفكر المسيحي .. وجعلنا وصف ما قامت به زينب «ع» جملاً نثرية قصيرة وإيقاعية تشبه الرباعيات في أسلوبها لا في عدد أسطرها ، بل كان السرد موصولاً حمَّلناه الحدث التاريخي ووصف المواقف والرأي حولها وتداعياتها النفسية والاجتماعية والعقائدية .. وهكذا حمل هذا الفصل طابعاً خاصاً به .. إن باللغة أو بالشكل ليتجانس مع التعبير الحر عن مجمل الأحداث والمواقف بلغة رشيقة تختصر كل موقف على حدة وتتضمن وصفه بما يقربه من ذائقة المتلقي لهذا اللون من التناول.

فالتاريخ وأحداثه محيط واسع ، وإذا نظرنا إلى تاريخ كربلاء لوجدناه قد احتوى ما لم يحوه تاريخ قط من خلاصات الحرية ، وهذا ما تربى عليه الحسين وأخته زينب «ع» في كنف والدهما علي «ع» حيث لخص أمير المؤمنين الهدف من دراسة التاريخ وكانت فلسفته بهذا الصدد تعتمد على فهم الأسباب النفسية والاجتماعية والعقائدية الموجبة التي تحرك عجلته ، وهو الذي نظر إلى التاريخ نظرته الخاصة في عصره الذي لم يتعرف عليه قبلاً ، ولا تبحر في فلسفته ولم يعِ إرهاصات الحضارة ومعطياتها الأولى فقال «ع» :

« **واحذروا ما تنزل بالأمم قبلكم من المثلات** » لذا فقد نادى «ع» بتحرير الفكر من القيود والتحليق به عالياً بحرية فائقة وهو صاحب القول الأثير « **لامال أعود من العقل** » .

لقد حرصنا في فصل « **خُلَّب القرائح** » على اختيار شذرات مما دبجه الشعراء من شعر عن زينب «ع» منذ الواقعة وحتى عصرنا هذا .. إفرازات فكرية بليغة سُكبت بحق بطلة الحرية من مختلف الشرائح الفكرية ومن كافة الأعراق والأجناس والديانات ، كلها اتفقت على فرادة دورها في تاريخ العقائد والرسالات .

وفي فصل « **رمزية تعدد مراقدها** » نظرنا إلى سر هذا الرمز الإلهي فيما أبقته الدهور المتعاقبة للبشرية من سَمْت الخلود لعتبات أهل البيت «ع» واللهج في ذكرهم أنَّى اتجه الناس في أركان الأرض دون أن يقولوا به قولاً أو يذهبون به مذهباً بحيث يحوطهم سَمْت هذا الرمز من كل جهة ، متسايراً لا يتعارض وطرداً لا يتخلف في أعماق صدور المؤمنين ، وهو شاهد من دلالات الظاهر على خفي الباطل .. ولا يتوثب به الهاجس على ما يحكمه الروح ، ولا يخرج عما هو إلهي بتدبير محكم لتبجيل من اصطفاهم الله من أهل البيت على العالمين .

إلا أنه وخلال اطلاعنا على مختلف المصادر التي تناولت ملحمة كربلاء مذ وقعت وحتى الآن .. أحصينا كماً كبيراً من مواقف الندم على ما اقترفته طغمة أمية بحق أهل البيت الكرام ، وقد جاء التعبير عنها على ألسنة أبناء أحفاد تلك الطغمة ممن استفظعوا جرائم أسلافهم بحق من اعتصموا بحبل عقيدتهم وأيديهم في الأغلال ، وجنحوا إلى الذرى الإلهية بأعناقهم وهي في رِبَق الملوك من الإذلال ، وارتضوا المحنة في كل شيء إلا العبث في سنَّة نبيهم «ص» ورأوا في وجودهم بقية سماوية في الأرض ، وهذا مشاهد فيهم على أتمه وأبلغه .

لذا فقد أفردنا فصلاً خاصاً بمرحلة الندم التي اعترت النفوس بعد الأحداث التي رانت ثم مضت حيث بدأت إطلالة الحق الذي حجب عن عمد وتقصد .

ولتسليط الضوء على مرحلة الندم هذه وجمعها في إطار واحد كيلا تضيع في خضم الأحداث التاريخية فتتباعد ولا يتنبه لها المطلع فتفوته ارتعاشات رجعة الضمائر الغافية لأولئك الذين زينت لهم أطماعهم دوس كل ما هو سام ، فتعنتوا وتناقلت أخبار انتصاراتهم المزعومة ألسنة الأغبياء ، ورددت مقولاتهم حناجر منافقة مرائية جبلت لأصحاب السطوة لآلئ مزيفة من طين الأرض الملوثة بنجاسة أقدامهم

وتعاموا تغافلاً عن ذلك النور السماوي الساطع الذي لاتحجبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ، فعظموا القتلة وأحنوا الرقاب لنير الاستعباد طمعاً في أعطياتهم ، وتناسوا أولئك الأصفياء الساكبين نوراً في أحداق البشر في ظلمة لياليهم .

ونظراً لأهمية رصد رجعة الضمائر من جباب ضلالاتها الذي أوقعتها فيها ممارسات الحكام الزائفة ونصبت لهم بجانب حوافيها أفخاخاً خادعة مزينة بألف لون ولون .. فقد أفردنا لها فصلاً على غرار فصل معجزات الشهادة الاجتماعية في كتاب الحسين في الفكر المسيحي ، تضمن حواراً بين المسلم وذاته النفسية بعد حملة زينب «ع» الإعلامية وتنويرها العقول الغافلة والمتغافلة عن حقائق مجريات ما وقع من ممارسات بحق عترة نبيه «ص» باسم دينه المطعون ، ومحاولاتهم استئصال ذريته من فوق جديد الأرض لتخلو منه ذرية آل محمد وتتساوق لهم الأمور ليعيثوا في الأرض فساداً وعنتاً ، ويعبثوا بالعقيدة الوليدة التي اختص تعالى محمداً «ص» بوحيها ونصبه رسولاً لبيانها ، وخصه بكتابها ، واصطفاه لبعثها .

وفي ختام قولنا هذا نضيف أن هذا الكتاب الذي استغرق تأليفه ربع قرن من معايشة مواقف العقيلة بكل تفاصيلها والتمعن في خطبها وأفكارها ، وتخيل مراحل كفاحها المرير وما آلت إليه الأمور بعد الطف ورحيل بطلته عن هذه الفانية .. فإنه يظل وريقات متواضعة اجتهد مسطِّرها في اغتراف القليل من سفر حياتها الثَّر وتضمينه رؤاه فيه على قدر الاستطاعة مهما سخر له من القيافة اللغوية والمعنوية لأن أمثولة حياة « **أمينة الله** » كانت ترجمة صادقة للقول الشريف الذي سمعه أخوها الحسين من جده «ص» ونقله كمروية :

« **إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويبغض سفاسفها** »

فكانت حياتها كلها بما اشتملت عليه من مواقف وآراء وأفعال عناقاً مع المعالي وأشرافها ، تلك المعالي المتصلة بعقيدة جدها «ص» الذي تحمَّل الكثير من المعاناة في سبيل نشرها ، مثلما تحمل أبوها «ع» ما تحمل وما ذكره تاريخه من كفاح في سبيل الدفاع عن الدين ، وما عاشته المعصومة أمها من محن وأحزان وما تجرعه أخواها

الشهيدان من عذابات وقسوة ، وما عانته هي وولديها وكل عترة جدها في سبيل صون العقيدة .

لذا فمهما حاول الكاتب أن يدوِّن ويحلل ويقف مدهوشاً أمام السير العطرة لأهل البيت «ع» .. فإنه سيجد نفسه في موقف المقصر ، لكن حسبه رضا ضميره ونبل قلمه بمبادرته إعلاء مناقبهم واستذكار نضالهم الرسالي العظيم .. وحسبنا هنا فخراً تناولنا لسيرة بطلة أعظم ملحمة في التاريخين الإسلامي والإنساني معاً ، ونعمة ما بعدها نعمة أن يَبْرى قلمنا دفاعاً عن الحق ، لا مع الحالة المسماة حقاً في لسان من تنفعه ، وباطلاً في لسان من تضرُه .

و « **نائبة الزهراء** » كانت حفيظة هذا الحق فقد تربت على قرومه وعلى يدي الجيل الأول في صدر الإسلام .. جدها المصطفى «ص» وأبيها أمير المؤمنين وأمها المعصومة «ع» حين كان القرآن غضاً طرياً والإسلام كان لَمَّا يزل وليداً يحبو ، وكانت الفطرة الدينية مؤاتية والنفوس مستجيبة لندائه العذب حيث ما لبث أن خرج جيل ناقض أخلاق الإنطلاقة وسلك طريق الكِبَر ، ولم تشفع تلك المبادئ السامية والشمائل الرسالية لهذا الجيل ولم يكن يجمعه أدنى قاسم مع فئة الحق التي أخرجتها آداب الكتاب المنزَّل وأخلاق رسول الله «ص» في علو النفس وصفاء الطبع ورقة الجانب وبسط الجناح ورجاحة اليقين وتمكن الإيمان وسلامة القلب وانفساخ الصدر ونقاء الدخلة وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون في الإنسان من طهار الخلق والعفة في الفضيلة من حسن العصمة وشدة الأمانة وإخلاص النية وإقامة العدل والذِلة للحق لا لغيره .

كانت كل نقيضات أسس الدعوة قد جرى نشرها ففسدت الأمة وبدت بوادر انهيار العقيدة وتداخلت العوامل حاملة بذور الفرقة ، وكان السبط الحسين يرقب ذلك كله بقلب واجف ويتمثل تضحيات جده وأبيه وكيف لعبت أهواء متسيدي العروش باسم دين جده ، وتعددت ذرائع الفساد التي التمست الأعذار للناقص والمعوج والفاسد والضال ، وصار ملء الجمع يحتمل بعقيدته سَخَطَة ، ولا يؤثر عليها رضى ، ولا يعدل بها عدلاً ، ويقبل بمطاعن من يوردها على العقيدة ، فامتد

الغي وانتشر الباطل ، واستطال عَمَهُ الناس وخبطهم في دياجير الأفك المظلمة وصار الحق لا يُعمل به والمنكر لا يُتناهى عنه ، وبدت أمة الإسلام في طريقها إلى الإنحدار مفرطة بكل ما قدمه جيل الصدر الأول للعقيدة وعلى رأسهم النبي ووصيه وعترته الطاهرة .

هذه الأحوال لم تفت سبط الرسول «ع» فكان يراقب بصمت ما آلت إليه أمة جده «ص» وتهاويل مؤلمة تعتمل في صدره بانتظار اللحظة السانحة للقيام بثورته ولم يطل الوقت في عهد يزيد إلا وأعلن دستور خروجه الذي أعاد وضع العقيدة على صراطها المستقيم بشهادته فريدة الدهور .

وكانت « **محبوبة المصطفى وأم أخيها** » شريكة لحركته وشاهدة على كفاحه ومصرعه وحاملة لراية ثورته المظفرة التي لم يسجل التاريخ مثيلاً لنبلها وفدائها فكانت «ع» « **سلالة الولاية** » اسماً على مسمى ودوت صرختها الجريحة لتعلن ولادة جديدة للعقيدة بعد الجاهلية الثانية التي حاقت بأمة جدها فاستفحلت الفرقة بينهم واستحرَّ الخلاف على المطامع الدنيوية ففسدت عقولهم واسقطوا مروءتهم الدينية وصار لزاماً على الحسين القيام بنهضته خاتمة التنزيل ، متمماً بها رسالة التأويل التي تصدى لها أبوه أمير المؤمنين «ع» والتي تلت مرحلة التنزيل على جده المصطفى «ص» فإذا قيل :

« إن الإسلام بدؤه محمدي فالأجدر أن يقال أيضاً إن استمراره حسيني .. وإذا قيل إن ثورة كربلاء بدؤها حسيني فيتوجب أن يقال إن استمرارها زينبي » .

وفي الختام فإن عنوان هذا المؤلَّف « **زينب .. صرخة أكملت مسيرة** » لا يخرج عن مقتضى مجريات التاريخ الذي تلا أحداث الملحمة الخالدة ما خلدت العقيدة إذ استمرت مسيرة الحسين الظافرة «ع» وعلت أهدافها والتفت الملايين حولها والفضل يعود إلى الإعلام المُلهَم المتمثل ببلاغة وجسارة « **سر أبيها ووليدة الفصاحة** » التي أطلقت الصرخة المدوية في فضاء الأكوان وأوصلت رسالة أخيها إلى القلوب والضمائر قبل الأسماع رغم المحاولات الصفيقة لطمسها والعبث بمضامينها العظيمة ..

وسطعت الحقيقة الإلهية بينما الناس على الباطل إلبُ
ويأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

فسلام على زينب العظيمة ، الفاضلة ، كعبة الرزايا ، مليكة الدنيا ، عقيلة النساء عديلة الخامس من أهل الكساء ، كفيلة السجاد ، ناموس رواق العظمة ، سيدة العقائل ، شقيقة الحسن ، أم أخيها الحسين ، عابدة آل علي ، المعصومة الصغرى ، قبلة البرايا ، حفرة علي وفاطمة ، الباكية ، مظلومة وحيدة .

سلام على بطلة كربلاء
ملكة الأحرار
ربيبة الشمم والإباء
سيدة المناضلات
سلام عليها
يوم ولدت
ويوم ماتت
ويوم تبعث حية .

د . أنطون بارا
١ / ١ / ٢٠١٢

أدعيتها ومناجاتها

عرف عن العقيلة زينب «ع» تبتلها وخشوعها ، وكانت تمضي سحابة ليلها في الدعاء والاستغفار بدرر من الكلم ولا أبلغ ، وهي العالمة غير المعلَّمة ولا غرو في ذلك فقد لُقمت البلاغة في بيت الرسالة ورضعت القدسية من ثدي العصمة وتربت مربتاً [1] رسالياً على يد أبيها أمير المؤمنين «ع» فكان لها جلباب جلال وعظمة وطلاقة لسان لا أفصح ، وتراتبية أفكار لا أصفى ولا أوضح .

ومنذ نعومة أظفارها وحتى معايشتها لملحمة كربلاء وإلى حين رحلت عن الدنيا الفانية .. كانت مشكاة طهر وعفاف في الذروة العليا من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، فكانت طفلة وشابة في كمال الخلق والخلق ومثالاً للطهر والحنان .. ابنة وأماً وأختاً وعمة وخالة ، وقد اشتهر عنها حبها لأسرتها ولإخوتها وتعلقها بشكل خاص بأخيها الحسين منذ يفاعتها وكأنها كانت مدفوعة بإحساس خفي يعدها لشراكته في محنته وكفاحه بمقبل أيامه .

ولعلنا في هذا المبحث المتواضع الذي نرجو أن يكون مباركاً ببركة الحوراء زينب «ع» والتي مهما جهدنا في إبراز فضائلها ومزاياها الرسالية .. لن نوفيها حقها مما احتوته شخصيتها العظيمة من الخصال والتقوى والجسارة والبلاغة والتبتل

---

(١) المربت كلمة وضعها الشيخ العلامة عبد الله العلايلي في كتابه « **أيام الحسين .. سمو المعنى في سمو الذات** » ومعناها الربت على كتف الطفل لينام ، وتقال مجازاً على أسلوب التربية والتعليم للأطفال بالربت العقلي .

والفصاحة والطهر .. وسنحاول في هذا الفصل عرض وتحليل أدعيتها وأشعارها ومناجاتها وما احتوته من درر الكلم وجمال المعنى والمبنى .

فالإنسان الفصيح[1] يوصف بالذي يحسن الكلام بسلاسته ، وسهولته ، وتخير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه إعجازه بهواديه وموافقة مآخره لمباديه ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمل صوغته وتركيبه ، ومتى جمع الكلام بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة والرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعُد من سماجة التركيب .. ورد على الفهم الثاقب فقبله ولم يرده وعلى السمع المصيب فاستوعبه ولم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ والفهم يأنس بالمعروف ويسكن إلى المألوف ويصغي إلى الصواب ويهرب من المحال وليس الشأن في إيراد المعاني ، فالمعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروي والبدوي وإنما هو جودة النفس وصفاؤه وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً مستقيماً أما اللفظ فلايقنع به قانع حتى يكون على ما وصف به وعنه .

لقد روت العقيلة «ع» أخباراً كثيرة عن أمها الزهراء ، كما روت عن أبيها وأخويها وعن أم سلمة وأم هاني وغيرهم ، كما روى عنها ابن عباس[2] وعلي بن الحسين وعبد الله بن جعفر وفاطمة بنت الحسين الصغرى ، حتى ابن عباس كانت يقول عنها : حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي «ع» خاصة في كلام أمها فاطمة «ع» في قضية فدك .

ويصفها العالم الدربندي بأنها كانت تعلم علم المنايا والبلايا لجملة من أصحاب أمير المؤمنين «ع» ومنهم ميثم التمار ورشيد الهجري وغيرهما ، وجزم أن زينب «ع»

---

(١) يصف أبو هلال العسكري الفصاحة بـ « **الإبانة والظهور والوصول بالكلام وانتهائه** » ويراها هبة من الله تعالى ، وقد خص سبحانه آل النبي «ص» بهذه النعمة لتبيان الأمور الملتبسة وتبسيط فهم العقيدة على العامة .

(٢) الطبرسي ص ١٢٣ يصف من يملك الفصاحة بانه يملك العقول ويسحر النفوس بجماليات كلماته وأسلوب رصفها على لسانه .

أفضل من مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وغيرهما من فضيلات النساء وأورد عبارة السجاد «ع» : « **ياعمة أنت بحمد الله عالمة غير معلَّمة وفَهمة غير مفهَّمة** » وهذا معناه أن علمها كان اكتساباً كله من الإيحاءات اللدنية والموحيات العلوية والآثار الباطنية والهيوليات الإلهية التي يخص بها الله تعالى الرسل والأصفياء والأولياء .

ولعل أبرز مؤشر على ذكائها وارتفاع منسوب وعيها القدسي المبكر .. تلك المحاورة الجميلة التي كانت بينها وبين أبيها وهي بعد طفلة صغيرة تجلس في حجره وهو يداعبها بالكلام حينما قال لها : بنية قولي واحد .. فقالت : واحد ، ثم قال لها: قولي اثنين ، فسكتت ، فقال لها أمير المؤمنين «ع» : تكلمي يا قرة عيني ، فقالت «ع» : يا أبتاه ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد ! فضمها «ع» وقبَّل بين عينيها.

ويحكى أن زينب «ع» سألت والدها ذات يوم وقالت : أتحبنا يا أبتاه ؟ فقال أمير المؤمنين «ع» : وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي ! فقالت زينب «ع» : الحب لله تعالى والشفقة لنا[1] .

هذه المحاورة بين أمير البلاغة علي «ع» وطفلته العقيلة «ع» تدل على وعي الطفلة البريئة ونضوج فكرها الإيماني وإلمامها بالحب الإلهي الذي فرقته عن حب الوالدين وهذا مادفع والدها الأمين إلى احتضانها والنظر في وجهها الحبيب وهو مطمئن إلى إلهامات ابنته وامتيازها عن قريناتها في العمر والمنشأ ، وبسلامة أخذها الحكمة عن أهلها الكرام ومافاض من تجلياتهم النورانية من العلم الإلهي الرفيع فكانوا لها أساتذة نُجُب أزاحوا عن بصيرتها الفكرية أي مصدات مادية دنيوية تحول دون انسياب تلك الفيوضات الربانية على فكرها المنور بقدسية أهل البيت «ع» .

إن الإحاطة بكل أقوال العقيلة «ع» وتبيان دور كَلمها لا تستوعبه مجلدات ، لكن ثمة بعض أقوالها لا بد من إيرادها كاملة لأنها تستوعب الكثير مما وَقَر في وجدانها

---

(١) الخصائص الزينبية ـ العلامة الجزائري ص ٣٠٩

وفكرها الملهم ونورد هنا ذلك الموقف الذي واجهها صدفة فارتجلت له رأياً ولا أروع دونما ترتيب أو استعداد ليدل دلالة واضحة على حضور وحيها وارتكازها على مايمدها ذلك الخزين فائق العذوبة من العلم والبلاغة والذي غرفت منه منذ نعومة أظفارها وانطلاقة وعيها ، فقد دخلت[1] صدفة على أخويها الحسن والحسين «ع» وكانا يتذكران بما سمعاه من جدهما المصطفى «ص» من دعوة إلى عبادة الواحد الأحد ، فسلمت وجلست وقالت :

« اسمعا ياحسن وياحسين ، إن جدكما رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤدب بأدب الإله ، أدَّبه فأحسن تأديبه ، يقول في ذلك : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » كما هُيِّىء كذلك من رب العالمين لحمل رسالة الدين والدعوة إلى عبادة الله العظيم الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ومن كجدي النبي العربي الهاشمي القرشي ، الذي اصطفاه الله تعالى واختاره ليبين للناس طريق الحياة من خير وشر ، في أسلوبه العذب الجميل وبعباراته الطلية الممتعة ، والتي تفيض رقة وحناناً ، عطفاً وإشفاقاً ؟ »

ثم استرسلت في الكلام موضحة مافهمت من معنى الحديث الشريف معتذرة عن التقصير إذا قصرت ، وقالت : الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات ، فهناك ثلاث درجات في الدين : **حلال وحرام ومشتبه** ..

أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى بأن جاء القرآن الكريم بحلِّه ، وبيَّنه الرسول في بيانه الواضح كحل الشراء والبيع ، وإقامة الصلاة في أوقاتها ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، وترك الكذب والنفاق والخيانة وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الحرام فهو ماحرمه القرآن الكريم وهو على النقيض من الحلال ، وأما المشتبه فهو الشيء الذي ليس بالحلال ولا بالحرام ..

والمؤمن الذي يريد لنفسه السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، ما عليه إلا أن

---

(١) معاني السبطين ج ٣ ص ٩٨

يؤدي ما أوجبه عليه رب العالمين ، ويسير في طريق القرآن الحكيم ويقتدي بالنبي الكريم ويتأسى به ، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأصبح دينه نقياً صافياً ، يعبد ربه عبادة خالصة .. « **ألا لله الدين الخالص** » ..

وأما من سار في طريق الشبهات ، فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله ، وان لكل ملك يملك متاعاً حمى بجوار ملكه ، أما حمى ملك الملوك ، خالق السموات والأرض وما فيهن فإنها محارمة ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس**[1] » ..

ثم إن الله تعالى أودع الإنسان مضغة وجوهرة لطيفة ، إذا صلحت فإن الجسد كله يكون صالحاً نقياً من الأدران والعلل وعصيان الخالق الأعظم رب العالمين ذلك هو القلب ، فإن كان القلب سليماً فإن صاحبه يكون يقظاً لأمور دينه ومبادئ شريعته يرى السعادة كلها في الإستقامة على هدى القرآن والسنة ، ومن سلك هذا السبيل القويم واتبع تلك التعاليم السماوية فإنه يكون يوم القيامة من الفائزين ..

إن حياتنا مرحلة من المراحل التي توصل الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار وليس بعد الموت عتاب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار .

وما أن انتهت العقيلة من كلامها حتى قال لها الإمام الحسين :

- أنعم بك يا طاهرة ، حقاً إنك من شجرة النبوة المباركة ومن معدن الرسالة الكريمة .

لقد أطربت بجزالة قولها قلبي أخويها الحسن والحسين «ع» وهي التي لم تستعد لهذه الجزالة حتى يقال إنها تدربت عليها وعلى كيفية إلقائها .. فقد تميزت هذه المداخلة بسلاسة اللفظ وجمالية اختياره واستواء في تقسيمه وتعادل في أطرافه وتشابه إعجازه

---

(١) رواه الترمذي بنصه وأشار إلى أن زينب لم تكن في لبس وهي تشرح أركان الحلال والحرام والمشتبه ومابينها وتبين ما يتوجب على المؤمن سلوكه لينال مرضاة الله بكثير من الوضوح والفهم ، وما عليه من حقوق ليستبرئ لدينه وعرضه ولضمان صفائه ونقاوته ص ٣٤٠

بهواديه بحيث تساوى المنظوم بالمنثور بكمال صوغه .

وقد حفلت مداخلتها بالسبك الكلامي الجميل دون أن يعلق به أدنى ركاكة أو ابتذال .. لذا فليس غريباً أن يعقب أخوها الحسين على كلمتها البلغية بما عقب فقد أسرت نفسه ونفس أخيه وأخذت بفؤاديهما إلى حيث قصدت من حديثها ، فلله درها من ربيبة البلاغة العلوية والفصاحة الهاشمية وغذية حكمة أبيها صاحب نهج البلاغة أمير المؤمنين «ع» .

وقال عنها بشير[1] بن خزيم الأسدي : نظرت إلى زينب بنت علي حينما خطبت في الكوفة والشام ، ولم أر والله خفرة قط أنطق منها كأنما تفرغ عن لسان أمير المؤمنين «ع» وكانت ذات مقام عال في الجوانب العلمية والاجتماعية حتى أن زوجها عبد الله بن جعفر كان يناديها :

- يا بنت المرتضى ويا عقيلة بني هاشم .

ويصف العلامة جعفر النقدي العقيلة بقوله : أما زينب المتربية في مدينة العلم النبوي ، المتكفة بعده ببابها العلوي ، المتغذية بلبانه من أمها الصديقة الطاهرة «ع» وقد طوت عمراً من الدهر مع الإمامين السبطين يزقانها العلم زقاً ، فهي من عباب علم آل محمد «ع» وعُلَبِ فضائلهم التي اعترف بها عدوهم الألد يزيد بقوله في الإمام السجاد «ع» : « **إنه من أهل بيت زقوا العلم زقاً** » وقد نص لها بهذه الكلمة ابن أخيها علي بن الحسين : « **أنت بحمد الله عالمة غير معلَّمة وفَهِمة غير مفهَّمة** » يريد أن مادة علمها من نسغ ما منح به رجالات بيتها الرفيع ، أَفيض عليها إلهاماً لايتخرج على أستاذ وأخذ عن مشيخة .. وإذن كان الحصول على تلك القوة الربانية بسبب تهذيبات جدها وأبيها وأمها وأخويها ، أو لمحض انتمائها إليهم واتحادها معهم في الطينة المكهربين لذاتها القدسية ، فأزيحت عنها بذلك الموانع المادية وبقي مقتضى اللطف الفياض وحده .

---

(١) ذكر في بحار الأنوار ص ١٦٢ إنه « **خديم بن شريك الأسدي** » .

وكانت مناجاتها مع ربها من أرق أدعية المناجاة ومنها التحفة الفريدة :

ياعماد من لا عماد له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا سند من لا سند له ، ويا حرز الضعفاء ، ويا كنز الفقراء ، ويا سميع الدعاء ، ويا مجيب دعوة المضطرين ، ويا كاشف السوء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منجي الغرقى ، ويا منقذ الهلكى ، يا محسن يا مجمل ، يا منعم ، يا متفضل ، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، وشعاع الشمس ، وحفيف الشجر ، ودوي الماء ، يا الله يا الله الذي لم يكن قبله قبل ، ولا بعده بعد ، ولا نهاية له ، ولا حد ولا كفؤ ولا ند ، بحرمة اسمك الذي في الآدميين معناه ، المرتدي بالكبرياء والنور والعظمة ، محقق الحقائق ، ومبطل الشرك والبوائق وبالاسم الذي تدوم به الحياة الدائمة الأزلية التي لا موت معها ولا فناء ، وبالروح المقدسة الكريمة ، وبالسمع الحاضر والناظر النافذ ، وتاج الوقار ، وخاتم النبوة وتوثيق العهد ، ودار الحيوان ، وقصور الجمال ، ويا الله لا شريك له .

ومن الأدعية والتسبيحات التي كانت تواظب على قراءتها :

سبحان من لبس العز وتردى به ، سبحان من تعطف بالمجد والكرم ، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له جل جلاله ، سبحان من أحصى كل شيء عدداً بعلمه وخلقه وقدرته ، سبحان ذي العزة والنعم ، اللهم إني أسألك بمقاعد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم ، وكلماتك التامات التي تمت صدقاً وعدلاً ، أن تصلي على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين ، وأن تجمع لي خيريْ الدنيا والآخرة بعد عمر طويل ، اللهم أنت الحي القيوم ، أنت هديتني ، وأنت تطعمني وتسقيني ، وأنت تميتني برحمتك يا أرحم الراحمين .

ومن أدعية أبيها التي كانت تدعو بها صلاة العشاء :

اللهم إني أسألك ياعالم الأمور الخفية ، ويا من الأرض بعزته مدحيَّة ، ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة مضيئة ، ويا مقبلاً على كل نفس مؤمنة زكية ، ويا مسكِّن رعب الخائفين وأهل التقية ، يا من حوائج الخلق عنده مقضية ، يا من ليس له بواب ينادي ، ولا صاحب يغشى ، ولا وزير يؤتى ، ولا غير رب يدعى ، يا من

لايزداد على الإلحاح إلا كرماً وجوداً ، صل على محمد وآل محمد وأعطني سؤلي إنك على كل شيء قدير .

لقد وهب الله تعالى عقيلة بني هاشم رهافة حس فائقة الاستشعار وحناناً أخوياً قل نظيره ، لذا عبقت مناجاتها لتوأم روحها الحسين بجزالة الحب والتهاب المعنى وشوق الأخوَّة ، وهذا ما تربت عليه في بيت أبيها أمير المؤمنين «ع» أما مناجاتها لربها فكانت تعكس شفافية إيمانها ورضائها بقدرها وبما كتب عليها من أدوار صعبة في حياتها من المهد إلى اللحد .

أما صبرها على بلائها ومصائب دهرها فكان استجابة للتوجه الينبوعي إلى خالقها وتكاملاً مع وضعها كحفيدة لنبي الأمة «ص» وابنة لعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء «ع» وشقيقة لسيدا شباب أهل الجنة الحسنين ، فكانت أدعيتها ومناجاتها وشعرها ماء زلالاً سلسبيلاً من ينبوع قدسي مبارك من لدن خالق الأكوان والناطق بالأنبياء والأصفياء ومسيِّرهم إلى إتمام رسالاتهم المكلفين[1] بها وإتمام الحجة وصون العقائد .

ولقد دلت أدعيتها ومناجاتها وأشعارها على معدنها الرسالي الشريف وعلى فهمها لجوهر العقيدة كما برهنت على شدة تعلقها بأخيها فقدمت أسوة لمعنى الأخوة ووشائج الدم .

وفي تركيزنا على إفاضات قلب العقيلة «ع» مناجاة وكلما وشعراً ودعاء .. نعرض لأجمل وأرق قول جامع وبيان واسع وبر ناصع ، جاذب للقلوب وخالب للألباب مشوق للأسماع ، صادق للإقناع لصدوره من قلب[2] منزه ومعبَّر عنه بلسان مبرَّأ وتتزاحم في عباراته طمأنينة ورقية وجدانية ، وثقة إيمانية تتضاءل دونها شبهات المرجفين وتشكيك الملحدين الذين سلكوا في التنكر للعقيدة الصافية كل الشعاب

---

(١) مقاتل الطالبين.

(٢) المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .. فما فاض من قلبه يجري على لسانه فيظهر دخيلته وتتعرى شمائله وتشف نواياه .

والمسالك .. وسخروا لدعاواهم الباطلة طرائق قدداً سرعان ما فضحتهم وأبانت خطلهم ، وكشفت باطل[1] أفكهم ، ويظل في سيرة العقيلة وملحمة نضالها القدسي الكثير من روائع الأدعية والمناجاة ستَرد في سياق فصول الكتاب ، إذ لا يسعنا جمعها كلها في هذا الفصل ، وفضلنا وضعها في تسلسل المواقف والأحداث التي قيلت فيها والتي ستلي ضمن الفصول كي تعطي لكل موقف معناه الشمولي العام ضمن إطاره الحدثي الخاص به.



(١) « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل » الأنبياء ١٨

ولدت للرزايا

لولا خروج السيدة زينب «ع» مع أخيها إلى أرض مصارعه، هذا الخروج الصعب وما تخلله من عنت وجوع وعطش وآلام وإهانات .. لما كان أحد تسامع بمجريات المأساة ، ولكانت فرق المرجئة وجوقة المنافقين الملتفة حول يزيد صورت الأمر على أنه خروج فئة ضالة على أمير زمانها فاستحقت معاناة الصراع وما ينجم عنه من دموية وإزهاق أرواح ، ولكان الناس سمعوا بالمعركة على أنها حرب قائمة ومن الطبيعي أن تسفر عن غالب ومغلوب ، تقعقع فيها السيوف وتصهل في معمعتها الخيل ويتجالد الطرفان بما لديهما من عديد وعدة إلى أن يكتب النصر لأحدهما على الآخر .. بالقوة أو الحيلة كما فاز معاوية على علي «ع» بخدعة المصاحف .

وكما نظر الناس لخروج الحسين ولم يتفهموا دستور خروجه الذي أعلنه .. فإن ذات النظرة القاصرة نظر بها كثيرون إلى خروج زينب مع أخيها «ع» واعتبروا هذه الرفقة بمثابة إلقاء للنفس في التهلكة التي لاطائل من ورائها ، وعلى رأسهم ابن تيمية .

ومن الطبيعي إذا اقتصرت نظرة هؤلاء إلى هذا الحدث الوجداني الأكبر لأمة الإسلام والذي شكل منعطفاً خطيراً للعقيدة الوليدة على الرؤية المادية الدنيوية له.. أن يساء فهمه حتماً ، فكيمياء الروح الرسالية المهيمنة على أخت الشهيد عليها السلام فعلت فعلها في نفسها أولاً ، وفي مجتمعها تالياً ، فشكلت بمواقفها المشهودة

مدرسة كفاح للمسلمين كافة ولأتباع الملل الأخرى تحت لواء أي عقيدة انضووا لأن هذه المواقف ماهي إلا جامعة لتربية الإنسان المخلص في تساميه بغض النظرعن أي اعتبارات تحول بين تمثل الجميع لهذه الشيم والأخلاق المجيدة ، فكانت الصرخة المدوية التي هزت الأركان ورددت صداها فضاءات الأكوان استحقت عنها بجدارة لقبين لم يستحقهما مخلوق لا قبلها ولا بعدها ، لأنها برهنت من خلالهما على أصالة الهدف الرسالي الذي حملته والذي كانت مرصودة له مذ ولدت حينما تلقفت أسماعها الغضة همس جدها المصطفى «ص» حولها وهي ابنة يومين ، واستشعرت ضمه لها إلى صدره الشريف وإراحة خده على خدها ، واستوطن في عقلها الباطني البريء صوت بكائه وتبلل وجناتها بدموعه وهو يقول لابنته فاطمة الزهراء «ع» حينما سألته عن سر هذا البكاء وهذه الدموع : « **يابنتاه يافاطمة ، إن هذه البنت ستبتلى ببلايا وترد عليها مصائب شتى ورزايا أدهى .. يا بضعتي وقرة عيني إن من بكى عليها وعلى مصائبها يكون ثوابه كثواب من بكى على أخويها** » .

وقد جاء في سفر طفولتها أنها بعد مولدها بأيام لم يعين لها اسم ، فسألت السيدة فاطمة زوجها أمير المؤمنين عليهما السلام عن سبب تأخيره في تسمية مولودته ..! فرد الإمام : أنه بانتظار أن يختار جدها الكريم اسمها ، ومضت فاطمة إلى أبيها تخبره بذلك .. فهبط الأمين جبريل على الرسول «ص» قائلاً له : « **إن ربك يقرئك السلام ويقول : يا حبيبي اجعل اسمها زينب**(١) » ثم بكي جبريل فسأله النبي عن سر بكائه فأبلغه الأمين أن حياة هذه البنت سوف تكون مقرونة بالمصائب والمتاعب من بداية عمرها حتى وفاتها(٢) .

إذن على ضوء ما تقدم وعلى ما أوردته التواريخ الدينية والوضعية فإن السيدة

---

(١) تسمية الزينب عند الفيروز آبادي في قاموسه « **المحيط** ».. كلمة مركبة من كلمتين : « **زين وأب** » وفي لسان العرب أن « **زينب شجر حسن المنظر ، طيب الرائحة ، وبه سميت المرأة** » وفي كتاب « **لاروس** » هناك وصف آخر للزينب على أنه نبات عشبي بصلي معمِّر من فصيلة النرجسيات يمتاز بأزهاره البيضاء الجميلة فواحة العرف . وفي كتاب « **القاموس** » : الزينب اسم لشجر حسن المنظر طيب الرائحة ، واحدته « **زينبة** » .

(٢) ورد هذا في المجلد الخاص بحياة السيدة زينب « **الطراز المذهب في أحوال سيدتنا زينب** » ص ١٣٥ ـ ١٣٦

زينب «ع» شبت عن الطوق وهي مدركة تماماً لدورها الوجوبي الذي أعدتها له العناية الإلهية كحجة متممة لدور أخيها الشهيد ، وزودتها هذه العناية بذلك الحضور الذهني الشفاف واللسان الفصيح المتحرك بالبلاغة الطالبية والرؤية الموحية فكانت في مجمل مواقفها وخطبها تفرض كاريزما شخصيتها المؤثرة فتتفاعل مع فصاحتها النفوس وتقنع بصدق خطابها العقول .

فإذا كان لكل شخص مفتاحه[1] الخاص بشخصيته .. فإن لزينب هذا المفتاح والمتمثل بروحها المؤمنة وحبها لأخيها الحسين ، ومن هذا المنطلق يمكن فهم قرارها رفقة أخيها لأن ما كان عليها أن تقوم به من دور بعد المصرع سوف يتمم حركة أخيها ويشكل لها الوجه الآخر ، إذ لولا هذا الدور المتمثل بخروجها و حرائر وعقيلات أهل البيت الكرام .. هذا الخروج الدرامي المفجع لما كان تسنى للهزة الضميرية أن تبلغ هذا التوجع المؤلم الذي بلغته ، ولا كان بإمكانها الوقوف أمام ابن زياد والصراخ في وجهه تلك الصرخة التي هي في مضمونها صرخة مشتركة مع صرخة أخيها فوق مصارع الطف « **الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد وطهرنا من الرجس تطهيراً .. إنما يُفتضَح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا** »ولا كان بإمكانها مجابهة يزيد المتغطرس فوق متكأ غطرسته الطاووسية وأمام حشد كبير من أعوانه وضيوفه ومنافقي مجلسه وتقول له : « **وإني لأستصغر قدرك** » .

ولئن ارتبطت أحداث عاشوراء ببعضها فإن ما تم باستشهاد السبط الخالد كانت له فصول أخرى متممة ستترى لاحقاً وتتولى إنجازها العقيلة «ع» ، ولم يكن غيرها مؤهلاً للقيام بهذه المهمة .. وهي مهمة ليست بالسهلة كما يتصور البعض بل تكاد تكون مستحيلة لو حاول أي كان القيام بها ، والإمام الحسين «ع» كان ينظر إلى المستقبل نظرته إلى كتاب مفتوح أحرفه من نور و كلماته من سطوع باهر وكان عالماً بأن تلك الأخت المحبة العظيمة نادرة الشمائل بين لداتها سوف تكمل ما

---

(١) يقول سيجموند فرويد إن مفتاح شخصية المرء هو سر ومكنون نفسه وإن من أضاع مفتاح شخصيته فلا يحاول البحث عنه لأن فقده أبدياً ولن يعوضه شيء ، والإمام علي «ع» كانت حكمته وفروسيته وعدله مجتمعة هي مفتاح شخصيته وحينما قتل كان ضحية لهذه المثل الثلاث ، لذا فإنه «ع» كان شهيد العدل والحكمة والشجاعة في سبيل الحق الإلهي .

بدأه ، وقد رأى منها العجب العجاب مذ بدأت طلائع الخروج أولى خطواتها على طريق التضحية ، وعاين لهفتها وحرصها على بلوغ الملحمة مداها ، فكانت المعضدة والداعمة والمشجعة والمواسية والأم الهلوع على أبنائها بما كانت مهيأة له ومستعدة لتنفيذه بجوارحها .

وقد اطمأن أخوها الشهيد إلى أن حركته ونتائجها في يد أمينة تعرف مايتوجب عليها فعله ، إذ كان يراهن على حيوية الضمائر الإسلامية وعلى أن خذلان شيعته لن يدوم إلى الأبد ، حينما لا يجدون مندوحة ولا أعذاراً في لوم أنفسهم على التقصير وخذلان سبط نبيهم في أشرف مرحلة من مراحل الدين الوليد ، فهذه اللحظات التي يسميها علم النفس بـ « **رجعة الضمير** »[1] من جب آثامه وغفلته عن الطريق السوي ، كان الشهيد الحسين يعوِّل عليها أيما تعويل .. وما كان أجدر بزينب لتجيير هذه اللحظات لصالح ما ضحى أخوها بنفسه و بأنفس أهل بيت النبوة لأجلها .

(١) يرى العديد من علماء النفس أن الضمير ديان رهيب قد يحيل المجرم المتنكر لأبسط مشاعر الإنسانية والذي يقتل بدم بارد دون حساب لأي نتائج .. إلى « **معترف** » بجريمته النكراء ومستعد للتكفير عنها والتنكر لفعلته ، ويقول د.هنري كوبر في كتابه « **صفع النفس والخلق** » ص ٢٢٤ : إن محاسبة الإنسان لنفسه بعد الخطأ قد تحمل قسوة أشد من محاسبة القانون لها ، لأن المحاسبة في هذه الحالة تعتبر مبادرة ذاتية من صاحبها مرتكب الخطأ أو الخطيئة وهي مبادرة تسبقها رجعة ضمير ورغبة منه في التخلص من أدران ما ارتكب وإعادة نفسه إلى سويتها الفطرية الأولى للخلاص من تقريعها وجلد ذاته عقاباً لها .

أم المصائب

أغرقت وجهها براحتي يديها وهامت في فضاء الذكريات .. كانت تعابيرها المحجوبة بكفيها تنم عن أسى دفين مشوب بحزن حائر .. تذكرت وتذكرت ومضات من طفولتها الغضة وهي في حجر جدها المصطفى «ص» تمرح في أعطاف براءتها غير آبهة لحدثان الغد المخبأة لها ، تذكرت كيف كان جدها الكريم يلصق خده بخدها ويقبلها ويضمها إلى صدره ثم ينظر إليها وتنهمر دموعه بينما تنداح هي مع طفولتها وتعتلي أكتافه وهي تضحك وتكركر فرحة غير مدركة لما يبكيه .

وتمر في خاطرها تلك الرؤية المفزعة التي رأتها في تلك السن المبكرة وحدثت بها جدها «ص» : « **يا جداه رأيت البارحة أن ريحاً عاصفة قد انبعثت فاسودت الدنيا وما فيها وأظلمت السماء ، وحركتني الرياح من جانب إلى جانب ، فرأيت شجرة عظيمة فتمسكت بها لكي أسلم من شدة الريح العاصفة ، وإذا بالرياح قد قلعت الشجرة من مكانها وألقتها على الأرض .. ثم تمسكت بغصن قوي من أغصان تلك الشجرة فكسرتها الرياح ، فتعلقت بغصن آخر فكسرتها الريح العاصفة ، فتمسكت بغصن آخر وغصن رابع ثم استيقظت من نومي** » .

وحينما سمع رسول الله منها هذه الرؤيا بكى وقال : أما الشجرة فهو جدك ، وأما الغصنان الكبيران فهما أمك وأباك ، وأما الغصنان الآخران فأخواك الحسنان ، تسود الدنيا لفقدهم ، وتلبسين لباس المصيبة والحداد في رزيّتهم .

شريط الذكريات الحزينة لايزال يعرض صوره في أعماق مشاعرها .. رأت أباها أمير المؤمنين «ع» كيف عصف به الحزن بعد وفاة جدها «ص» واستعادت ذوب روحه وهو خائر القوى يجهز جثمان سيد الأنبياء «ص» من وراء ستار ويناجيه بكلمات تقطع نياب القلوب ، وقد سمعتها وبكت لوقعها الأليم .. فلم تر أباها قبل ذلك في مثل هذا الإنهداد وهو يقول : « **بأبي أنت وأمي ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء ، خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤون ، ولكان الداء مماطلاً ، والكد مخالفاً** [١] » .

وتدمع عيناها وهي تسترجع جزع أمها الزهراء «ع» تبكي أباها الراحل بمرارة ليس بعدها مرارة وهي تردد : واأبتاه ، وارسول الله ، وانبي الرحمتاه الآن لا يأتي الوحي ، الآن ينقطع عنا جبرائيل ، اللهم إلحق روحي بروحه وأشفعني بالنظر إلى وجهه ولا تحرمني أجره وشفاعته يوم القيامة[٢] .

ومع مناجاة أمها لأبيها .. كانت العقيلة تتذكر كل تلك المشاهد التي رافقت رحيل جدها وما انطوت عليه من أبعاد وفوادح ستتلى تباعاً .. وكيف شعرت آنذاك بفقد العطف والحدب الذي كا ن يغدقه عليها في سنوات عمرها الخمس .

تراءت لها صورة أمها البتول «ع» ممددة على فراش حصير سعف النخيل وجلد شاة ، ورأتها متدثرة بكساء من صوف الإبل وهي تطحن الشعير بيديها وتعجن طحينه وتخبزه وجبينها يصفد العرق ، ورأتها ممددة تئن من آلام ضلعها المكسور بعد الإعتداء عليها وانتهاك حرمتها ومنع إرثها وإسقاط جنينها وتلطيخ سمعتها وهي تنادي ولا تجاب .

ثم تراءت لها الصدر الحنون في الساعات الأخيرة لها مصفرة واهنة تنظر إلى

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢٥٥

(٢) وردت هذه المناجاة في تاريخ الخميس ٢ : / ١٩٢

أبنائها نظرة خوف وإشفاق عليهم مما سيحيق بهم في مقبل أيامهم ، فتنهمر دموعها

وتسترجع محاولة أبيها " ع " في التخفيف عنها ومواساتها بكلمات كالبلسم الشافي بينما هي تشكو له ماحاق بها من ظلم في مواقف شهدها الكثير من معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل المفضية إلى الخذلان من نيل الحقوق وضياع المستحق منها برغم قوة حجتها وبلاغة بيانها وعرض شواهد لايمكن دحضها .

الغضاضة الطفولية التي حاقت بسنواتها القليلة ومرض أمها ورفقتها لها إلى حيث ألقت خطابها المؤثر أمام حشد واسع أبرزت في عباراته مطالبها ، وعرضت حال أسرتها بعد وفاة أبيها «ص» وكيف لم تُحفظ له إثرة بذريته وضُيق على معيشتها فعانت بما لايليق بأهل بيت النبوة بعد رحيل رمزها وسندها[1] .

كل تلك المآسي فتحت عقلها الملهم فحفظت خطاب أمها الخالد عن ظهر قلب قبل أن تعود معها وهما تجران أذيال الخيبة ، وسمعت ما أفاضت به أمها بعد إلقائها الخطاب وعطفها برفقتها إلى قبر جدها «ص» ومناجاة أمها لأبيها قائلة :

قـد كـان بعدك أنبـاء وهنبثة لو ... كنت شاهـدها لم تكبر الخطب
إنّـا فقدناك فقد الأرض وابلها ... لما مضيت وحالت دونـك الترب
لكلّ قومٍ لهم قربٌ ومنزلةٌ ... عند الإله على الأدنين مقتربٌ
وكنت بـدراً ونـوراً يستضاء به ... عليك تنزَّل من ذي العزة الكتب
وكـان جبريـل بالآيات يؤنسنا ... فغاب عنا فكـل الخيـر محتجب

---

(١) ليس من طلب الحق ليعرفه كالذي يطلبه ليُعرَف به ، فإن الأول يُنصف من نفسه كما ينتصف لها ، ولكن الثاني خصم لا يريده إلا جدلاً وله مع الجدل قوة الحرص على المؤاربة ، وشدة الصريمة في المراوغة ، كيما تنتهي إليه الحجة ويقف عنده البرهان فيكون له الصوت المردد ويصير إليه مرجع القول في النحلة أو المذهب ، فهو يعتسف لذلك ولا جَرَمَ يسلك كل طريق ، ويركب كل صعب ، ويتحمل من كل وجه ، ويتعنت بكل آية ، وليس له هم دون قوة الإقناع المنطقية ، ودون الإفحام والتعجيز ، ومن ثم لا يبالي أن يتورد خصمه بالسفه ، أو يقر له بالسخف ، أو يتبسط على الباطل أو يحتجز دون الحق ، ما دامت هذه كلها أدوات في صناعة الكلام ، وما دام الكلام قادراً بأدواته على أن يصنع الحق أو ما يسمى حقاً ، وإن كانت الصنعة فاسدة او سقيمة ، وكانت التسمية من خطأ أو ضلال ـ من كتاب : « **تاريخ آداب العرب** » لمصطفى صادق الرافعي ص ١٢٤

تذكرت والدموع تتسابق على التهاطل من بين أصابعها كيف استقبلهما أبوها أمير المؤمنين «ع» بعد عودتهما من زيارة قبر الجد وزرف أمها دموع الحسرة والحزن على حالها ، كان أبوها قلقاً من تأخر عودتها وطفلتها زينب ، ولما وصلت دارها بادرت بالقول لزوجها مصورة له ما جرى :

« يا بن أبي طالب إشتملت شملة الجنين ، وقعدت قعدة حجرة الظنين ، نقضت قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل وبالجهر المشهود ابتزت نحيلة أبي وبلغة ابني وغضت الجماعة دوني طرفها ، فلا دافع ولا مانع ، خرجت كاظمة وعدت راغمة ، أضرعتَ خدك يوم أضعت حدك ، افترستَ الذئاب وافترشت التراب ما كففت قائلاً ولا أغنيت باطلاً ، ولا خيار لي ، ليتني مت قبل هَنِيَّتي ودون زلتي عذيري الله منك عادياً ومنك حامياً ، ويلاي في كل شارق ، مات العَمَد ووهت العَضُد شكواي إلى أبي ، وعدواي إلى ربي ، اللهم أنت أشد قوة وحولاً وأحدُّ بأساً و تنكيلاً ».

تتخيل رد والدها على أمها مواسياً بلسان مفعم بالحب .. وبكلمات طافحة بالأمل والقناعة بما قضي .. والاكتفاء بفخر النسب وعزوة المحتد الشريف :

« لا ويل عليك الويل لشانئك نهنهي عن وَجدكِ يا ابنة الصفوة ، وبقية النبوة فما ونيتُ عن ديني ، ولا أخطأت مقدوري ، فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون ، وما أعدَّ لك خير مما قُطع عنك ، فاحتسبي الله » فقالت :

« حسبي الله » وأمسكت .

في هدأة الليل الدامس اختلت خيالاتها الماضية بنفسها الحزينة .. الليلة يتوجب عليها أن تفاتح زوجها عبد الله بن جعفر بمسألة خروجها غداً مع أخيها الحسين ولكن الخواطر الأليمة وما عانته منذ طفولتها الغضة لا يبرح خيالها ، تذكرت وتذكرت .. ها هي أمها الحنون بعد أن أبلاها المرض وقسوة الأحداث وكانت تحتضر أمامها وأمام أسماء بنت عميس .. تلفظ أنفاسها أخيراً ويهمد الجسد الطاهر إلى الأبد

وهاهما أخواها الحسنين يعودان إلى البيت فيفاجآن بموت أمهما ليلقي أخوها الحسن نفسه عليها هاتفاً : « **يا أماه كلميني قبل أن يفارق روحي بدني** » ويعقبه الحسين : « **يا أماه أنا ابنك الحسين كلميني قبل أن ينصدع قلبي** » وها هو أبوها علي «ع» صدع قلبه بموت رفيقة دربه وحبيبته وأم أبنائه .. فيبكي وهو يناجيها بعبارات[1] قطعت قلبها الصغير حينما سمعتها فانتحبت كما لم تنتحب من قبل وألقت نظرة الوداع على جثمان أمها الطاهر وأوسعتها وأخويها تقبيلاً قبل أن يحمل[2] جثمانها إلى مثواه الأخير .

تكلكل الأحزان على قلب العقيلة وهي في جلستها تحضن رأسها بين يديها خوفاً من انفلات صور المآسي التي طوقت حياتها منذ كانت طفلة حينما ودعت جدها المصطفى «ص» إلى رحيل أمها الزهراء «ع» خلال نفس العام والبيت العلوي يطوي أضلاعه على ألم فقده ويوسد صدره على أكثر من جرح .. رحلت والدتها الحنون وفقدت برحيلها أحد مرتكزات حياتها ، وأحست بفجيعة فقد الصدر الحنون واليد الضامة اذ كانت والدتها مستودع سرها ومكمن أحلامها ، وقد كانت تستشعر على الدوام منذ طفولتها الغضة بحب جدها «ص» لأمها فقد كانت أثيرته في الحياة ويدعوها بأم أبيها تكريما لها ، وكانت بضعته يرى منها قطب الحنان واختصار البنات والأبناء .

نحيبها المكتوم يزداد حينما تذكرت محنة أمها المعصومة «ع» ومرت في ذهنها

---

(١) بمن العزاء يا بنت محمد ، كنت بك أتعزى ففيم العزاء بعدك ؟

(٢) عهد الإمام علي «ع» إلى من كان معه من خلص صحابة رسول الله «ص» أمثال سلمان الفارسي ونفر من بني هاشم بحمل جثمان الزهراء في الهزيع الأخير من الليل .. ولما أودعت قبرها عفى الإمام موضعه بناء على وصيتها ليكون دليلاً على رحيلها مكلومة مجحودة الفضل والأمل .. وقد وقف الإمام الحزين على حافة القبر وهو يروي ترابه بدموع مُقلتيه وارتجل كلمات تأبين تصور لوعه وأساه على هذا الرزء القاصم موجهاً خطابه إلى رسول الله يعزيه بقوله : « **السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي إلا أن في التأسي بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر المصائب الجسام التي حاقتها بعدك ، واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين** » .

أحداث تلك الفترة الصعبة التي تكاثفت فيها غيوم الهموم الثقيلة على بيت النبوة بفقد زعيمهم وأبيهم رسول الله «ص» ورحيل[1] أم أبيها والدتهم الزهراء مقهورة مظلومة[2] ، وفقدهم حقهم الشرعي في خلافة مؤسس الدين وولاية أمته وضياع ممتلكاتهم .

وتحدق العقيلة في تلك الظلال التي حامت حول طفولتها وفوق مهد أحلامها .. وكيف تصدت لرعاية شؤون العائلة بأريحية واقتدار نادرين لأن الأحداث المتلاحقة أنضجتها ودفعتها إلى الصدارة في الإمساك بدفة أسرتها الصغيرة التي أخذت تتواثب عليها النوائب وتصليها المصائب ، وكانت هي من تتصدى لها وتحاول تحملها وتخفيف عبئها عن أهلها .

وهاهي الصور تعاود الدوران أمام خيالها فترى أباها وهو مضروب الرأس محمولاً بين أذرع أخويها الحسن والحسين من مسجد الكوفة والدم يشخب من جبهته ويخضب شيب لحيته الشريفة إثر طعنة ابن ملجم .. فتطير نفسها أسى وتهرع إليه باكية نادبة ذائبة النفس حزناً وأسى ، تسأله أن يحدثها بحديث أم أيمن[3] عن رسول الله «ص» عما سيحيق بها من مصائب وخطوب ، وتحامل الإمام على نفسه

(١) أوردت بعض الروايات أن السيدة فاطمة الزهراء «ع» رحلت بعد رحيل والدها «ص» بثلاثة أشهر لكثرة ما حزنت عليه حتى هزل جسدها ومرضت .

(٢) عمدت الزهراء «ع» قبل موتها إلى تذكير من حرموها من فدك بحجة عدم توريث أبناء الأنبياء بالقول : **أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود سورة النمل الآية ١٦ ، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب »** سورة مريم الآيتان ٥ ـ ٦

(٣) إسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو وكنيت بأم أيمن ، وهي امرأة جليلة محترمة ، كانت أَمَة لعبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله وصارت ميراثاً لرسول الله «ص» وبذلك صارت حاضنة له ، وقد أعتقها النبي الكريم عندما تزوج من السيدة خديجة «ع» وقد روت عن النبي أحاديث متعددة ، وشهد لها الرسول بأنها من أهل الجنة ، كما شهد لها الإمام الباقر «ع» بذلك حيث قال للراوي : « **أرأيت أم أيمن فإني أشهد أنها من أهل الجنة** » تزوجها عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له « **أيمن** » واستشهد عبيد يوم خيبر فتزوجها بعد ذلك زيد بن حارثة والد أسامة بن زيد ، كانت علاقاتها مع أهل بيت رسول الله علاقات طيبة جداً وخاصة بعد وفاة النبي «ص» وقيل إنها توفيت في أيام حكومة عثمان بن عفان وصلى على جنازتها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «ع» ودفنت في البقيع .

رغم آلامه من أثر السم الذي كان يسري في عروقه وقال لها : يا بنية الحديث كما حدثتك أم أيمن وكأني بك وبنساء أهلك سبايا بهذا البلد ، أذلاء خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس ، فصبراً صبراً ، فوالذي فلق الحبة و برا النسمة فالله على ظهر الأرض يومئذ وليّ غيركم وغير محبيكم وشيعتكم .

هذا ما رسخ في ذاكرتها الحزينة حيث تمر أمام ناظريها صورة أبيها قبل لحظات من نزعه الأخير حينما تطلع بوجوه أبنائه وقال لهم : « **أستودعكم الله** » ثم أفاق للحظات وتلا قوله تعالى : « **لمثل هذا فليعمل العاملون** »[1] وأسلم بعدها الروح .

عاودها النشيج كما لو أن أبيها رحل لتوه ، ووجدت نفسها تبكي بحرقة وألم وفي غمرات حرقتها وأساها مرت ذكرى أخيها الحسن المجتبى «ع» فازداد نشيجها وحرقة قلبها وكأن الأحزان تجمعت ودوَّمتها في دوامتها وأرخت بكلكلها الثقيل على صدرها ، فقد كان أخوها الأكبر الحسن بمنزلة أبيها[2] كما كان إمام زمانها بعد رحيل أبيه أمير المؤمنين «ع» .

توالت دقائق هذه الذكرى قاسية على قلبها وهي تتخيله جثة هامدة بعد أن انتزع الموت صلته بالحياة ، وقد أيقظ موته ماكان غافيا في صدرها من ذكرى وفاة جدها وأبيها وأمها وشعرت للحظات بأنها تلثم خديه الباردين وتصيح كسيّرةً[3] :

« **واأخاه .. واحسناه .. واقلة ناصراه .. يا أخي من ألوذ به بعدك**[4] **؟** »

صورة تلو أخرى لا تترك مندوحة لاختيار بينها بل تتوارد كعجاج الماء المنحدر من عل .. فتتهادى على صفحة ذاكرتها مشاهد لما تعرضت له جنازة أخيها من إساءة

---

(١) صورة الصافات الآية ٦١

(٢) ورد في الحديث الشريف « **الأخ الأكبر بمنزلة الأب** » وقد رواه الإمام علي بن موسى الرضا «ع» وذكر في عدة مصادر منها « **بحار الأنوار** » ص ٣٣٥

(٣) يقول الطبيب ابن سينا أن الحزن المفجع بعزيز يحيل نظرة صاحبه يأساً وانهياراً نفسياً

(٤) يروى أن الحسن «ع» كان يحب أخته زينب حباً جماً .. ولما وضع الطست بين يديه ليتقيأ دم كبده المسموم وسمع بأن زينب قادمة لزيارته .. أمر برفع الطست كيلا تراه إشفاقاً عليها .

وهوان عندما حيل بين وصولها إلى قبر جده «ص» لدفن الجثمان بجواره وماكان من إبعاد المشيعين من الاقتراب[1] من بيت الرسول «ص» توغلاً في المهانة ، وتفادياً من وقوع أحداث لايمكن السيطرة عليها لما أثاره قرار المنع من غضب المشيعين .

غداً سوف يخرج أخوها الحسين بطلائعه من بعض الرجال والنساء ، وجلستها مع أحزانها استغرقت الشيء الكثير من دموعها وشلت أعصابها بحيث لم تعد قادرة على النهوض من مكانها ، وعليها الآن التحدث مع زوجها عبد الله بن جعفر ومفاتحته بأمر مرافقتها لأخيها وحبيبها الحسين كل ما تبقى لها من أغصان شجرة أسرتها المباركة .

وابن عمها كان على بينة من دعوة الحسين لأخته بالسفر معه لما لمسه منها من حرص ومصلحة على حركته ودعوته .. والأهم من كل ذلك تنفيذاً لما دبرته العناية الإلهية من تدابير لخروجها وما بثته من موحيات لبطل الخروج حينما رد على ناصحيه وعلى رأسهم محمد بن الحنفية الذين أشاروا عليه بعدم الخروج ، ومنهم أيضاً زوجها ابن جعفر فقد كان الجميع حريصاً على حماية عترة النبي «ص» من الإندثار إذا ما عجَّ عجاج الحرب وقويت شوكة العصبيات التي كانت سمة ذلك العهد والتي قسمت المسلمين إلى فرق متناحرة على الملك والسيادة .

يتطلع ابن جعفر إلى زوجته وهي قادمة إليه يحمل وجهها هموماً خطفت منه النضارة وبدت لناظريه وكأنها خارجة للتو من مناحة بكاء لما كان في عينيها من حمرة وانتفاخ .. ونظرت إليه تريد أن تبدأ الكلام ولكن التعبير خانها .. فكيف تطلب منه هذا الطلب الصعب المتمثل في تركه وحيداً ومرافقة أخيها إلى المجهول .. لكنها استجمعت قواها واستعارت من التردد إقداماً وسألت بصوت مرتعش خجول :

- يا بن العم .. يا زوجي الحبيب .. هل تأذن لي بالسفر مع أخي الحسين غداً ؟

وتنحبس الكلمات بيت شفتي ابن جعفر ويجف ريقه وتضرب صفرة خفيفة

(١) حدثت ملاسنات ومشادات كادت تؤدي إلى وقوع عراك بين المشيعين وبين من أنفذوا للحؤول بين القبر والجنازة .

وجهه وكاد يبكي لهذا السؤال ، وبين ارتعاشة شفتيه ونبض عروقه المتواتر أجابها :

- يا بنة العم العزيزة .. تعرفين أني مجيبك لهذا الطلب كما تحبين لأني مقدر مدى حبك للحسين ولهفتك على الوقوف إلى جانبه فيما عزم عليه .

عقبت : لا بد لي من الاستئذان منك فأنت زوجي وابن عمي ووالد أبنائي ..

قال ابن جعفر :

- لك الرخصة يا ابنة المطيبين ومني الموافقة ، وهذا ما اتفقنا عليه مع أبيك في عقد الزواج بأن تزوري الحسين وتخرجين معه إلى أي مكان في أي وقت تشائين .

عقبت : أنا بنت الشريفين وأخت السيدين وربيبة أخلاق بيت النبوة .. ولن أسمح لنفسي برخصة الخروج دون موافقتك .

أكمل :

- يا بنة العم .. هذا ما وقَرَ في قلبي فجرى على لساني وكنت أود لو أتمكن من رفقة ابن عمي وسيدي الحسين لولا ما تعرفين مما يحول دون نيل هذا الشرف المؤثل والذي يحز في نفسي شعوري بالعجز عن مساندته .

سألت :

- وهل تقولها نعم كي ترضيني إذا كان قلبك يقول لا ؟

هز برأسه ثم أطرق قليلاً قبل أن يجيب :

- أقولها بملء قلبي لا شفتي .. وأزيد بأن أطلب منك لو تقبلين اصطحاب ولدينا محمد وعون ليكونا في ركب خالهما في سفره هذا .

على حين غرة انفتحت أمام العقيلة كوى سعادة عارمة .. فابن عمها لم يقتصر على إعطائها رخصة السفر .. بل ها هو يطلب منها أن تقبل اصطحاب فلذتي كبدها وهذا دليل على موافقته الخالصة لهذا الخروج .

ولم يكن موقف ابن جعفر غريباً عليه مع ما عرف عنه من الشمائل الرجولية

والتآلف العائلي كما هي شيم بني هاشم .. وبهذا الموقف تستبشر العقيلة بزوال آخر الحواجز من أمامها وهذا ما كان يدور في خلدها كأم ترغب بمشاركة الأمهات الثكلى بتقديم أبنائهن قرابين في ساحات وغى الجهاد المقدس ، ومن أولى بنساء أهل البيت بهذه التقدمة ؟

إنها تشعر في قرارة نفسها بصعوبة دورها الجديد الذي ستهون أمامه كل أدوارها السابقة ، كما تستقرئ مبكراً قساوة ما ينتظرها من تضحيات ومواقف ، وهي الآن في لهفة لإبلاغ أخيها الحسين بقرارها وبموافقة ابن عمه عليه ، أليست شريكته في هذا الخروج ؟

أوليس الحسين ملء حياتها منذ الطفولة كما كانت ملء حياته على الدوام .. ألم يستشرفا معاً آفاق مستقبل كفاحهما المزمع .. ألم تكن علاقتهما حباً[1] ملكوتياً ينبع من مشكاة واحدة من نور الغيب المغيب والذي استشرفاه سوية ..؟

ولقد عرف عن زينب تعلقها بأخيها الحسين منذ نعومة أظفارها ، وكانت تشعر بالضيق إذا تأخر عن العودة إلى البيت ، ولما كانت تنظر إليه وهي طفلة كانت تنفرج أسارير وجهها وتغمرها سعادة آسرة برؤياه .. ومن جانبه كان الحسين يحبها حباً ملك عليه قلبه ، وكان على الدوام يحس بأن زينب ستكون شريكته في نهضته وكفاحه من أجل عقيدة جدهما المصطفى «ص» لذلك فكان يعاملها برفق أخوي وصحبة فكرية واحدة .

وأخيراً حان وقت الرحيل وأزفت ساعة خروجها مع حبيبها الحسين .. ونادت أبناءها لتودعهم الوداع الأخير ، وكان مشهداً مؤثراً قاسمه المشترك الدموع من الأم وأبنائها ، والوجوم من الزوج الملتاع من لحظة فراق زوجته وأم أبنائه ورفيقة دربه المتجهة إلى المجهول الذي لايعلم ما يخبئه من مقتضى وأقدار للسائرين إليه .. ومنهم الزوجة وفلذات الأكباد وخُلص الأصحاب .

---

(١) تروي المصادر أن الحسين كان يخص أخته زينب بنمط مميز من التبجيل والاحترام ، وكان إذا زارته يقف إليها إجلالاً ويجلسها في مكانه ، وفي إحدى زياراتها كان يقرأ القرآن فوضعه على الأرض ونهض لتحيتها .

وفيما ترتجف القلوب وتغبش العيون من الدمع ، وتهلع الصدور من ألم الفراق إذ بعبد الله بن عباس يدخل على الإمام الحسين «ع» محاولاً ثنيه عن الخروج إلى العراق لكن الإمام قال له بإصرار أربكه :

- يا بن عباس .. ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت نبيهم من وطنه وداره وقراره وحرم جده ، وتركوه خائفاً مرعوباً لايستقر في قرار ولا يأوي إلى جوار ، يريدون بذلك قتله وسفك دمه ولم يترك بالله شيئاً ولم يرتكب منكراً ولا إثماً ؟

بدا التأثر على ابن عباس وأجاب بصوت متلجلج النبرات :

- جعلت فداك يا حسين إن كان لا بد لك من المسير إلى الكوفة فلا تسري بأهلك ونسائك ، لأنهم يزعمون أن دم عثمان عندك وعند أبيك ، فوالله إني خائف أن تُقتل ونساؤك ينظرن إليك ، فالغدر أقرب لأخلاقهم من قربهم إلى النذالة .

رد الحسين :

- يا بن العم إني رأيت رسول الله «ص» في منامي وقد أمرني بأمر لا أقدر على خلافه ، إنه أمرني بأخذهن معي ، يا بن العم فهن ودائع رسول الله ولا آمن عليهن أحداً .

وسمعت زينب هذا الحوار وهي دامعة العينين فقالت لابن عباس في عتاب رقيق :

«يا بن عباس تشيرعلى شيخنا وسيدنا أن يخلفنَّ[1] ها هنا ويمضي وحده ..؟ لا والله بل نحيا معه ونموت معه ، وهل أبقى الزمان لنا غيره ؟ »

ما إن سمع ابن عباس هذا الرد حتى هاجت مشاعره وأجهش في البكاء وجعل

(١) الحكمة المتجلية في خروج نساء أهل البيت مع الحسين لها تدابيرها المقضية ، ويقول الإمام كاشف الغطاء : وهل نشك ونرتاب في أن الحسين لو قتل هو وولده ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جباراً ولم يطلب به أحد ثأراً ولضاع دمه هدراً ، فكان الحسين يعلم أن هذا عمل لا بد منه وأنه لا يقوم به إلا تلك العقائل فوجب عليه حتماً أن يحملهن معه لا لأجل المظلومية بسببيهن فقط .. بل لنظرٍ سياسي وفكر عميق وهو لتكميل الغرض وبلوغ الغاية من الثورة .

يقول مبرراً وهو يشرق بدموعه :

- يعز والله عليَّ فراقك يابن العم .

لحظات الوداع الأليمة انتهت واقتربت ساعة الرحيل ، وانضمت زينب إلى ركب أخيها مع ولديها وانطلقوا تحوطهم العناية الإلهية إلى ساحات مصرعهم واستشهادهم في سبيل نصرة العقيدة وتلألؤ جوهرها الذي أراد إطفاءه أولئك الخارجون عن الملة البائعون ذواتهم للشيطان بسعر بخس قوامه الطمع في الجاه والمال والاستحواذ والتكالب على ملذات الدنيا الفانية[1] .

هـي المـثـل الأعــلى لـكـل فضيلة وفي فضلها الأمثال في الناس تضرب

وكم أعجزت في مدحها كل شاعر وإن كان يعلو الشعر فيه ويعذب

فمن جدها أو مـن أبـوهـا وأمها ومـن أخواها حين تنمى وتنسب

قـد اكتسبت أخلاقهم وتأدبت بـآدابـهـم يـا نـعـم هــذا التأدب

مـبـاركـة في كـل أرض تحلها فتخضر منها الأرض يمناً وتخصب[2]

(١) « **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً** » الآية ٥٨ من سورة القصص

(٢) أبيات من قصيدة للشيخ حسن مرتضى الكاظمي .

الفصل الثاني

عرس الشهادة

سيدة المواقف

تميزت العقيلة زينب «ع» بمواقفها الجريئة وقوة حجتها في كل ما واجهته من أحداث وظروف ، ولم تكن من ذلك النوع المتخاذل عن المجابهة في أحلك المواقف فقد أهَّلتها تربيتها في كنف والدين جمعا القداسة والتقوى والعلم والفصاحة والشجاعة فشبت تملك هذه الخصال الحميدة التي تميز بها أهل البيت الكرام ، وهي العالمة غير المعلَّمة كانت على علم بما ينتظرها من أدوار ستضعها في مواقف صعبة يُمتَحن فيها صبرها وتُستنطق لها فصاحتها ، ولكن كل شي كان مقدراً من العناية الإلهية ، وفي فترة يفاعتها وشبابها المبكر وجدت نفسها بين أعظم مربين وعظماء أنجبتهم جزيرة العرب .. الجد المصطفى «ص» والأب علي والأم فاطمة والأخوين سيدا شباب أهل الجنة الحسنين عليهم جميعاً السلام ، فكان لها أن تفخر بين لدَّاتها بما حظيت به من المجد والعلم والسؤدد والتربية الرسالية العالية ، وهذا ما شكل نفسيتها وجعلها شديدة الإحساس بما ينتظرها في مقبل أيامها حينما بدأت قروم أسرتها بالرحيل واحداً تلو الآخر ، وتلقي على كتفيها الصغيرين مسؤولية الأسرة وتُلبسها رداء الأم وهي في العاشرة في الوقت الذي تلعب فيه مجايلاتها وتلهين مرحاً بطفولتهن .

هذه الفترة لم تمهلها طويلاً .. فقد تزوجت ابن عمها عبد الله بن جعفر وعاشت في كنفه ، وحينما استعد أخوها الحسين «ع» للقيام بثورته .. استنفرت حواسها الإيمانية ومشاعرها الأخوية لمشاركته ما هو عازم عليه واستهلت أول مواقفها بردها المعاتب

على عبد الله بن عباس قبل أن يتحرك ركب الخروج وتودع الربوع والأهل وسط أجواء مشحونة بالأسى والدهشة ، إذ لم تفلح محاولات الإخوة والخُلص من وجوه بني هاشم في ثني أبي عبد الله عن تصميمه ، وفي محاولة من هؤلاء عمد ابن جعفر إلى آخر محاولاته فدبج كتاباً سلمه لولديه محمد وعون ليسلماه إلى خالهما لعل قلبه يرق من رجاء هذين العزيزين على قلبه وعلى قلب أخته ، قال له فيه :

« **أما بعد ، فإني أنشدك الله أن لا تخرج من مكة ، فإني خائف عليك من هذا الأمر الذي قد أزمعت عليه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، فإنك إن قُتلت خفت أن يطفأ نور الله ، فأنت علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالمسير إلى العراق ، فإني آخذ لك الأمان من يزيد ومن جميع بني أمية لنفسك ولمالك وأولادك وأهلك ، والسلام** » .

وكي يضمن النجاح في مسعاه لم يكتف ابن جعفر بكتابه فقد بث في نفس الوالي الأموي هذه الخشية ودفعه إلى الكتابة لابن عمه ، وقد جاء في نصيحته للإمام :

« **فقد بلغني أنك قد عزمت على الخروج إلى العراق ، وأنا أعيذك بالله تعالى من الشقاق ، وخائف عليك ، ولقد بعثت إليك بأخي يحيى بن سعيد فأقبل إليَّ معه ، فلك عندنا وبيننا الأمان والصلة والبر والإحسان وحسن الجوار ، والله بذلك عليَّ شهيد ووكيل وراع وكفيل ، والسلام** » .

لكن تصميم الحسين النهائي حملته كلمات رده على كتاب ابن جعفر وقد قال له فيه : « **أما بعد ، فإن كتابك ورد عليَّ فقرأته وفهمت ما فيه ، أعلم أني رأيت جدي رسول الله في منامي فأخبرني بأمر ماض له ، كان لي الأمر أو عليَّ فوالله يا ابن العم لو كنت في حجر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني حتى يقتلوني ، ووالله ليعتدن عليَّ كما اعتدت اليهود في يوم السبت ، والسلام** » .

وأخيراً أزفت ساعة الحركة ويترك السبط المهموم مدينة جده وبيت الله مترئساً طلائع خروجه قليلة العدد والمهمومة بذات همومه ، فلم يكن هناك من في صدره ذرة فرح .. لا خوفاً من المقبل الذي يسعون إليه بفرح لا يعادله فرح ويعلمون مآله

بل لفراق تلك الربوع الحبيبة والوجوه المشفقة بصدق ، واستسلاماً لتلك الخشية التي تصيب المضحين وأهل الشهادة من ألاَّ يعتَوِر خطوهم ما يعيق هدفهم ويؤخر تنفيذ ما انتوته نواياهم .

لكن العقيلة زينب «ع» كانت أشدهم قلقاً وكان لابد لها من طي أضلعها على هذا القلق وهي الصابرة المكلفة بتحمل قلق جميع من في القافلة التي تغذ السير في تلك القفار الموحشة حيث تنتظرهم مذابح القرابين المستعدة للبذل اللامحدود وكانت أم المصائب تتطلع إلى تلك الفيافي وفي صدرها شوق للوصول إلى هناك وفي أحداقها تتراقص الأماني والأمنيات في تحقيق الهدف كما رسمته لها العناية الإلهية وكما تتخيله قبل حدوثه ، وهاهي تعيش إرهاصات هذه اللحظات المكهربة التي أعقبت قول أخيها :

« **خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني لأسلافي كاشتياق يعقوب إلى يوسف** » .

وكأن شوق أخيها قد سرى إلى الجميع لا سيما إلى قلبها اللهوف ، فكانت تغمض عينيها وتبكي دون أن تدع أحداً يلاحظ بكاءها حيث بدأ طريق الحق الطويل الموحش الذي ذكرتها وحشته بقول أبيها أمير المؤمنين «ع» : « **ما أوحش طريق الحق لقلة السالكين فيه** » وهاهي وحشته تتبدى لناظريها حيث لم يكن يدب فوق أديمه أحد سوى قافلتهم السائرة إلى مهوى الأفئدة ومطارح الاستشهاد في سبيل العقيدة .

لم يكن ثمة حادٍ يحدو للقافلة ، لكن زينب تلمح أخيها في محرابه يؤدي وِرده فتقدم إليه على رؤوس أصابعها وتجلس إلى جانبه ونظرها مسمَّراً على وجهه وهي تتخيل هذا الوجه منذ طفولتهما ومراحل حياتهما معاً وصولاً إلى هذه اللحظات التي يتوجهان خلالها إلى حيث أمرهما الجد المصطفى «ص» وتنفيذاً لما أعدتهما له العناية الإلهية.

وهي تتأمله وخيالها لا تهدأ صوره .. وما أن انتهى من وِرده حتى قالت له بصوت ملتاع اختلط بحشرجة حزن ظاهر :

- يا أخي سمعت البارحة كأن هاتفاً يقول :

ألا يــاعــين فــاحــتــفــلي بجهد فمن يبكي عــلى الشهداء بعدي
عــلى قـــوم تــســوقــهــم المنايا بمقدار إلى إنجــــاز وعــــد

سادت فترة صمت بعد قولها الشعر وانتظرت سماع رأي أخيها في تفسيره للهاتف الذي سمعته في هدأة الليل ، وما لبث أبوعبد الله أن أجاب مؤكداً ما كتب في لوح المقتضى والتكليف الإلهي والنبوي :

« يا أختاه كل الذي قضى فهو كائن »

ولما وصل الركب إلى الرهيمية المنزل الرابع عشر من منازل الحسين «ع» في مسير قافلته إلى العراق ، وسمعت زينب بتراجع أهل الكوفة وقلة ناصري أخيها .. تأثرت والتاع قلبها المشفق على أخيها وعياله وأهل بيته ، فصاحت قائلة :

« وليت الأعادي يرضون أن يقتلونا بدلاً من أخي » .

وهكذا في كل موقف وآخر تقدم العقيلة نفسها فداء لأخيها ، فأي حب كانت تكنه هذه الزهرة ابنة الزهراء لأخيها وهذه المناجاة فائقة الشفافية التي ينطق بها لسانها كيف كانت تضرب أحاسيسها الأخوية وأمومتها لولديها المرافقين إلى المجهول ؟

وحينما وصل الحسين «ع» بأهله وأصحابه إلى كربلاء الخميس الثاني من محرم وضُربت الأخبية فوق أرض المصارع .. جاءت زينب «ع» ملهوفة وارتمت إلى جانب أخيها وقالت : أرى هذه مخوفة وقد امتلكني خوف عظيم .. فما كان من أخيها إلا أن أمرها بالصبر فانتحبت بكاء مراً ، وفيما الحسين جالساً يصلح سيفه استعداداً للمقبل من الأحداث وكان يردد :

يــادهــر أفٍ لــك مــن خليل كــم لــك بــــالإشراق والأصيل
مــن طــالــبٍ وصــاحــب قتيل والــدهــر لا يــقــنــع بالبديل
وكـــل حـــي ســالــك سبيلِ مــا أقــرب الــوعــد مــن الرحيل

وما أن سمعت قولة أخيها حتى استطار قلبها هلعاً ووثبت تجر ثوبها واقتربت على وجل وقالت : يا أخي هذا كلام من أيقن بالقتل ؟

فقال : نعم يا أختاه .

عقبت «ع» :

- وآثكلاه .. ينعى إليَّ الحسين نفسه ؟ ليت الموت أعدمني الحياة ، يا حسيناه ، يا سيداه ، يا بقية أهل بيتاه ، استسلمت للموت ويئست من الحياة ، اليوم مات جدي رسول الله ، اليوم ماتت أمي فاطمة الزهراء ، وأبي علي المرتضى ، وأخي الحسن الزكي ، يا بقية الماضين وثمال الباقين .

وهبت النسوة يستطلعن الأمر وما الذي حدا بزينب لهذا الوصف .. ولما رأينها على هذه الحال من الأسى والنشيج بالدمع حتى علا بكاؤهن وعويلهن ولطمن الخدود وشققن الجيوب ، ونادت أم كلثوم : « **وآمحمداه**[1] **وآعلياه وآأماه وفآطمتاه وآحسناه وآحسيناه وآضيعتاه بعدك يا أبا عبد الله** » .

غص قلب الحسين بالحزن على حال أخته الحبيبة ولم يحتمل رؤية دموعها وتلهفها وجزعها واستقرائها للمآل قبل حلوله ، فنظر إليها وقال محاولاً صرفها عن مخاوفها : يا أخيَّة لا يُذهبَنَّ حِلمَكِ الشيطان .

قال ذلك وترقرقت عيناه بالدموع بينما زينب لا تهدأ لها عبرة والنساء ينحن حرقة مما تمثله العقيلة من حزن مجسد .. وعاد الحسين إلى القول مفسراً ما كان :

- يا أختاه .. لو تُرِكَ القطا لغفا ونام[2] .

ما أن انتهى من عبارته حتى لطمت وجهها وصاحت :

---

(١) أوردها علي بن موسى بن طاووس في كتابه الملهوف على قتلى الطفوف ص ١٣٩

(٢) هذه العبارة كانت مثلاً يُضرب على من يُحمل على أمر مكروه لا يطيقه .. ذلك أن طائر القطا لا يُحلق ليلاً إلا إذا أصابه الذعر ، ولولاه لكان نام وغفا .

يا ويلتاه .. أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟ فذاك أقرحُ لقلبي وأشدُ على نفسي .. ولما حاول «ع» تهدئتها أهوت إلى جيبها فشقته وخرت مغشياً عليها .

تطلع الحسين إلى حبيبته وقد غشي عليها وغابت عن الوعي ، فأسرع بطلب الماء وأخذ يرش به وجهها وهو يقول ناصحاً ومشفقاً :

- إيهاً يا أختاه .. اتق الله وتعزي بعزائه ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته ويبعث الخلق ويعيدهم وهو فرد وحده ، جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي الحسن خير مني ، ولي ولكل مسلم برسول الله «ص» أسوة .

كان يسمعها ذلك وقلبه يعتصر ألماً .. فهو لم ير أخته بهذه الحال من الحزن ، وقد عزا ذلك إلى علمها المعروف عنها بالمآل والنهايات لذا فقد حاول التخفيف عنها بكلمات شافية كالبلسم وقد تحقق له ذلك وهدأت نفسها لما سمعت ، ولما اطمأن إلى ابتعادها قليلاً عما أشجاها حتى أكمل كلامه :

- يا أختاه إني أقسمت عليك .. فأبِرِّي قسمي ..

وافقته بهزة من رأسها .. فأكمل ناصحاً :

- لا تشقي عليَّ جيباً[1] ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت[2] .

وفي موقف آخر صعب حينما رأت أخاها الحسين راجعاً إلى المخيم باكياً منكسراً منحني الظهر ، ولما أعلمها بمقتل أخيهما العباس حتى هتفت صائحة معولة :

« **وأخاه ، واعباساه ، واقلة ناصراه ، واضيعتنا من بعدك** » .

---

(١) نُصح الحسين لأخته بعدم شق الجيب وخمش الوجه كان هدفه عدم إظهار الضعف والانكسار أمام أولئك المتشفين المستعدين للشماتة بمقتل أخيها .

(٢) عبارة « **إذا أنا هلكت** » هي عبارة شرطية وتوكيدية معاً وقد تقيدت بها العقيلة في كل المراحل التي تلت هذا الموقف عدا بعض المواقف التي استدعت ذلك خلال مرحلة السبي لضرورة تأثيرها في النفوس .

وكمن تذكرت خاطراً فالتفتت إلى أخيها الحسين متسائلة :

- لَمَ لم تأتِ بأخي العباس ؟

بكى الحسين وتطلع بأخته بعين كاسفة وهو يجيبها :

- أختاه .. كلما هممت بحمل أخي رأيت أعضاءه مقطعة إرباً إرباً فلم أتمكن من حمله .

واستمرت زينب تندب أخاها العباس بعبارات تقطع نياط القلوب وشاركها الثاكل المحزون الندب على أخيهما المخلص المحب حامل رايته وهو يتذكر محنته حينما تكاثرت عليه السهام وسقط بعد أن قُطعت يداه[1] الاثنتان وحمله القربة بأسنانه لعطشى المخيم .. لكنه وصل إليه وهو يحتضر ، فألقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلاً ولثماً لوجنتيه ويردد : « **الآن انكسر ظهري وقلَّت حيلتي** » .

ولعل الباحث المدقق في المواقف[2] الأليمة التي واجهتها عقيلة بني هاشم «ع» يقف حائراً إذا ما ابتغى تحليلها .. ففي كل منها محنة لم يُبتلى بها مخلوق .. إذ حينما اشتد العطش بالطفل الرضيع وجفت شفاهه وغارت عيونه .. قالت زينب لأخيها ملهوفة جزعة على ما كانت تراه من عذاب طفله : « **أطلب له شربة ماء** » .

فرقَّ قلب الحسين وحمل طفله الرضيع وتوجه به إلى قوم الغلظة والقسوة مستعطفاً قلوبهم لإعطاء الرضيع رشفة ماء تحيي أنفاسه المتصارعة .. وقال لهم :

---

(١) روت المصادر أن قاطع يد العباس اليمنى هو زيد بن الرقاد الجهني بعد أن عاجله بضربة سيف من وراء نخلة .. فبرى يمينه ، أما باتر يُسراه فهو حكيم بن الطفيل السبسي الذي كمن له وراء نخلة ولما حاذاه العباس فعل ما فعله الجهني صنوه في الغدر .

(٢) يلاحظ القارئ الكريم أننا نورد في هذا الفصل مواقف السيدة الجليلة وكلماتها ومناجاتها الحزينة دون إطالة سوى التركيز على الموقف بعينه لإبراز هذه المواقف التي عاشتها دون سرد للأحداث السابقة واللاحقة إلا فيما يتصل مباشرة بها ويفضي إليها .. وقد يظن القارئ الكريم أن هناك عدم ترابط بين مفاصل هذه المواقف .. لذا فقد نوهنا في مقدمة المؤلف لهذا الأمر .. حيث أن هذا الفصل « **سيدة المواقف** » مخصص لمجمل مواقف العقيلة «ع» وربطها بالهدف الأساسي لخروجها مترئسة حرم أهل البيت الكرام ، ولإبراز حبها لأخيها الحسين وعظم تضحيتها واحتمالها وصبرها على ما حاقها بهذا الخروج .

« يا قوم قد قتلتم أخي وأولادي وأنصاري وما بقي غير هذا الطفل وهو يتلظى عطشاً من غير ذنب أتاه إليكم ، فاسقوه شربة فقد جف اللبن في صدرأمه .. فإذا لم ترحموني فارحموا هذا الطفل » .

كان الحسين يستعطف قلوباً قُدت من صخر وصدوراً تحجرت على قسوة .. ولما رفع[١] طفله الرضيع على يديه عالياً وصار مكشوفاً وتحت بصر الأوباش .. علت ضحكات ساخرة منهم واستل حرملة بن كاهل الأسدي سهماً ذي ثلاثة شعب ووضعه على قوسه مسدداً إياه إلى نحر الرضيع ورشقه به فغاص في نحره الشريف وصار يرفرف بين يدي والده كالطير الذبيح ، وما لبث إلا قليلاً على هذه الحال حتى أسلم الروح.

لما رأى الحسين طفله مذبوحاً بكى وتلقف دمه الطاهر ورمى به إلى السماء مناجياً ربه طالباً منه جعل هذا الدم ذخيرة لهم في الأجل ، ثم قفل راجعاً بالرضيع المذبوح إلى الخيام ، ولما وصل ورأى أم الرضيع والنساء واقفات على باب الخيمة ينتظرن رجوعه ببعض الماء الذي فاض عن سقيا رضيعه .. غيَّر طريقه إلى خلف الخيام كيلا يرين حالة الطفل ، ثم نادى أخته زينب .. ولما جاءته طلب منها أن تمسك[٢] جثمان الرضيع لكي يتمكن من إخراج السهم المنغرز في نحره .

لله صبر زينب العقيلة ... كم شاهدت مصائب مهولة
رأت من الخطوب والرزايا ... أمراً تهون دونه المنايا
رأت رضيعاً بالسهام يُفطم ... وصبية بعد أبيهم أُيتموا[٣]

(١) حمل الحسين «ع» لطفله الرضيع كما يصفه الفيلسوف الألماني « **ماربين** » حيَّر عقول الفلاسفة ، فلما كان «ع» يعلم أن أوباش بني أمية لا يرحمون له صغيراً .. فقد رفعه أمام القوم تعظيماً للمصيبة ، ولما طلب له الماء أعطي سهماً قاتلاً ، ولا يظن أحد أن يزيد كان مجبوراً على تلك الأفعال المفجعة للدفاع عن نفسه .. لأن قتل طفل بتلك الحالة والكيفية ما هو إلا توحش وعداوة سبعية منافية لقواعد كل دين وشريعة .

(٢) لنتخيل ألم العقيلة حينما كانت تمسك بجثمان ابن أخيها الرضيع وسط تلك الأجواء المسمومة ، بينما يسحب أخوها السهم من نحر رضيعه .. فكم هي أليمة تلك اللحظات وكيف احتملتها أم المصائب وسيدة المواقف الصعبة .. لله درها من عظيمة بين النساء .

(٣) من قصيدة للشيخ هادي آل كاشف الغطاء .

وحينما زحف الجيش الأموي كالذئاب الجائعة إلى ولوغ الدم .. أقبلت زينب إلى خيمة أخيها تخبره بالهجوم فوجدته وقد احتضن ركبتيه وأسند رأسه عليهما والنوم يغالبه .. وحينما دخلت عليه استيقظ من غفوته القلقة على صوتها تقول له بصوت امتزج فيه الخوف الممزوج بالحنان عليه :

- أخي أما تسمع هذه الأصوات قد اقتربت ؟

- تطلع إليها الحسين بعينين مشفقتين وقال وهو يغالب حزناً ملك سكناته :

- أخيَّة .. إني رأيت رسول الله «ص» الساعة في المنام وأبي علياً وأمي فاطمة وأخي الحسن يقولون : **ياحسين إنك رائح إلينا عن قريب .**

ما أن وعت زينب كلمات أخيها حتى لطمت وجهها وصاحت وهي ترتمي إلى جانبه ونظرت إليه بعيون باكية وكأنها تودعه ، ولما رأى الحسين جزع أخته الحنون حتى قال لها مشجعاً : **ليس لك الويل يا أخيَّة ، لا تُشمتي القوم بنا ، فصبراً يا أخيَّة واسكتي[١] رحمك الله .**

وثمة موقف تجلت فيه رباطة جأش العقيلة وكان ذلك حينما دخل الحسين خيمتها بعد جولة استطلاع له في التلال برفقة نافع بن هلال حيث استقبلته ووضعت له متكئاً فجلس يحدثها سراً محاذراً أن يسمعه أحد عداها .

ولم تلبث العقيلة إلا قليلاً بعد سماعها ما حادثها به أخوها حتى اختنقت عبراتها وقالت : واآخاه .. أشاهد مصرعك وأُبتلى برعاية هذه المذاعير من النساء والقوم كما تعلم ماهم عليه من الحقد القديم ، ذلك خطبٌ جسيم يعزعليَّ مصرع هؤلاء الفتية الصفوة وأقمار بني هاشم ، فهل استعلمت من أصحابك نياتهم .. فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنَّة .

---

(١) هذه العبارة التي تضمنت كلمة « **اسكتي** » لم يقصد بها الإمام زجر أخته عن الجزع .. بل كانت لفتة حنان وشفقة عليها في هذا الموقف الصعب والظروف المحيطة ، وكان «ع» يمهد للأسوأ فيما يستجد من شدائد .. لذا فجاءت عبارته هنا لتدل على شدة حرصه على مشاعر حبيبته زينب التي يعرف مقدار حبها وجزعها عليه واستعدادها لافتدائه بروحها ولا معنى للعبارة غير ذلك .

كان الحسين «ع» يستمع إلى كلام أخته النصوح وهو واجم ودموعه تتهاطل فوق وجنتيه ، ولما أنهت كلامها قال لها مطمئناً :

- أما والله لقد لَهزتهم[1] وبلوتُهم ، وليس فيهم إلا الأشوس[2] الأقعس يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل بلبن أمه .

وفي موقف آخر قبل خروج ابن أخيها علي إلى القتال وكان مفطور القلب وهو يرى أهله مجزرين كالأضاحي فوق الصعيد ، ويعتصر وجدانه ألماً لما كان يراه على وجه عمته زينب من مظاهر الألم وعظيم الأسى والحيرة ، وقد لمست العقيلة ما يعتمل في صدره فتناست آلامها وهدأت من روعه وطفقت تصبِّره بكلمات بليغة مصورة له ما ينتظر الشهداء من ثواب عند ربهم على قدر معاناتهم وآلامهم وعمق جراحهم وتقبلهم لما كتبته العناية الإلهية في ألواح حيواتهم .

لقد أسمعته عمته الحنون كلمات شدت من عزيمته في الوقت الذي كان أوار المعركة يستعر أمام ناظريه ، والمشاعر تجيش في صدره وهو يرى كيف يتجندل المقاتلون حول أبيه وعلى ثغورهم ابتسامات الفوز العظيم وعلى وجوههم المكدودة سمات الرضا بما خصتهم به العناية الإلهية من فرصة المجالدة في ساحة إباء رمزهم ، وبعد هذه الهنيهات من القتال تهاوى المتصاولون يمنةً ويسرة ، كل ذلك تمثل أمام زينب وهي تحاول تهدئة روع ابن أخيها وهو يتهيأ للنزول إلى ميدان الصراع بتزامن مع رغبتي ولديها محمد وعون للمشاركة في هذه المعمعة الرهيبة .

وبعد خروج علي إلى الميدان واستبساله وقتاله قتال الأبطال الصناديد . . صفعته يد المنون وتناهشته أنياب الذئاب المكشرة عن شراسة ، وقطعته سيوف الغدر وهو الأقرب شبهاً بجده رسول الله « ص » وحينما توجه الحسين إلى حيث صرع ولده تناهى لزينب ما جرى فخرجت من الخيمة تعدو واللهفة تسبقها إلى حيث كان

---

(١) لهزتهم معناها اختبرتهم .

(٢) الأشوس : الجريء في القتال .. والأقعس : الثابت العزيز المنيع .

جثمان ابن أخيها هامداً يغطيه الدم الزكي من كل جانب وهي تنادي بأعلى صوتها :

« واويلاه ، ياحبيباه[1] يا ثمرة الفؤاد ، يا نور عيناه ، يا أخيَّاه وابن أخيَّاه ، واولداه واقتيلاه ، واقلة ناصراه ، واغريباه ، وامُهجة قلباه ، ليتني كنت قبل هذا اليوم عمياء ليتني وُسِّدت الثرى ».

ولما وصلت إلى الجثمان الطاهر انكبت عليه تولول وتنوح ، فاقترب منها الحسين ورفعها ممسكاً بيدها وردها إلى المخيم ثم طلب من فتيانه أن يحملوا أخاهم بينما العقيلة تبكي وتنوح في الخيمة وقد انفطر قلبها الرقيق مما شاهدته من وحشية فاقت سبعية الوحوش الضارية .

ياقلب زينب ما لاقيت من محن فيك الرزايا وكل الصبر قد جمعا
لو كان ما فيك من صبر ومن محن في قلب أقوى جبال الأرض لانصدعا
يكفيك صبراً قلوب الناس كلهم تفطرت للذي لاقيته[2] جزعا

وتصل الأهوال ذروتها في هذه المواقف الأليمة التي لا تحتملها الجبال واحتملتها أم المصائب ، وها هي تنهال على قلبها المكلوم المفطور بالرزايا .. وهي ترى فلذتي كبدها محمد وعون يمتشقان سيفيهما وينزلان إلى الميدان دفاعاً عن مبادئ خالهما الثائر لدين جده المصطفى «ص» وحينما يغيبان عن عينيها الذابلتين من البكاء .. ترتد إلى الخيمة وهي تسترجع في خيالها أرق تلك الليالي التي عاشتها في تربيتهما ، والقلق الذي كان ينتابها وهي تراهما يدرجان في مدارج طفولتهما ، ولكنها في قرارة نفسها تشعر بالغبطة لوصولهما إلى هذه اللحظات الحاسمة الصعبة .

والمنتظر من موقف كان سيلي مصرع هذين البطلين الفتيين أن تنهار أمهما كما

(١) العبارات المنتهية بـ : « آه » اشتهرت بمناجاة أهل البيت الكرام .. وزينب «ع» لكثرة ما عاشته من محن كانت تعبر عن حزنها وانكسارها بهذه الكيفية البليغة من التعبير .. وهي دلالة على عمق الألم الذي تحسه ، فكانت كلمات مثل : واولداه وابن أخيَّاه وامهجة قلباه .. هي اللزمة الصوتية الحنون ، وهي آه اللوعة بعد كل كلمة بدل كلمات مثل واولدي وابن أخي ومهجة قلبي .. فلنلاحظ هذه الجمالية في إبراز الحزن .. وهذه البلاغة من غذية بلاغة أبيها أمير المؤمنين «ع» في نهجه البليغ.

(٢) من قصيدة للسيد حسن البغدادي .

استطار بها الحزن على ابن أخيها علي ، فكيف ستستقبل العقيلة مصرع ولديها..؟ حتماً كانت ستملأ الصحراء عويلاً وندباً وهي المرأة الرقيقة العطوف .. فكيف ستصبر دون البكاء والعويل على برعمين ربتهما بعناية وسهر وعرق ودموع .. كيف سيكون استقبالها لهما بعد أن يعودا جثمانين بلا حراك ؟

شيء من هذه التوقعات لم يحدث ، واستقبلت السيدة العظيمة نبأ مصرع ولديها بالصمت وهي التي ملأت الفضاء لوعة وبكاء على كل فرد صُرع من أهل البيت في الميدان .. فكيف صمتت في هذا الموقف .. ألم يكن موقفاً استثنائياً خاصاً بها ويجدر بها العويل عليه وخمش الوجه وشق الجيب هلعاً على هذه المصيبة المتمثلة في موت جزأين من جسدها وحشاشة جوفها وثمرة عناء أمومتها الطويل ..؟

فلماذا إذن لم تعول ولم تحزن وهي الثكلى المفجوعة ؟! عجباً لهذه المرأة القدسية فلقد كظمت حزنها كيلا تجرح مشاعر أخيها الحسين أو تشعره بالحرج كون ابنيها قدما نفسيهما فداء له .. وبصمتها الحزين بعثت برسالة إلى أخيها ، مفادها : لا يحرجنَّك يا أخي مصرع ولدي فداك ، فأنا فخورة وسعيدة بهذا المصير الذي كنت أتمناه ويشاركني زوجي ابن جعفر هذا الشعور بالفخر فهو الذي قدم ولديه لنصرتك وهو عالم بما ستؤول إليه الأمور من وراء ذلك .

وهكذا وقفت العقيلة هذا الموقف الشهم المعبر عن أخوَّة ولا أعمق ، وعن أخلاق رسالية ولا أرفع .. وقد برهنت على أصالة تربيتها العظيمة في بيت النبوة وهذا ليس بغريب على زينب ابنة مكرم الوجه وفاطمة الزهراء وشقيقة سيدا أهل الجنة الحسنين «ع» ، وما تقدمة ولديها[1] على مذبح ملحمة أخيها إلا عنوان لعظمة خلقها وفهمها الأكيد لخطواتها واستقرائها الملهم لمستقبل هذه التضحيات .

---

(١) محمد وعون هذان الغصنان المتفرعان من شجرة النبوة ذُكرا في نص إحدى الزيارات التي تُتلى في مناسبة عاشوراء والمتضمنة : « **السلام على عون بن عبد الله بن جعفر الطيّار في الجنان ، حليف الإيمان ، ومنازل الأقران ، الناصح للرحمن ، التالي للمثاني والقرآن ، لعن الله قاتله عبد الله بن قطبة النبهاني ، السلام على محمد بن عبد الله بن جعفر ، الشاهد مكان أبيه والتالي لأخيه ، وواقيه ببدنه ، لعن الله قاتله عامر بن نهشل التميمي** » .

الموقف المهول

وتحل آونة أصعب المواقف التي وقفتها العقيلة زينب «ع» في حياتها ، كان ذلك بعد أن تجزَّر أهل البيت كالأضاحي فوق أديم كربلاء ولم يبق أحد منهم عدا أخيها وابنه المريض ، ويتطلع الحسين «ع» يمنة ويسرة فلا تقع عيناه إلا على الجثامين المجندلة المصطبغة بلون الدم الأحمر القاني ، أجساد مقطعة ومطعونة ، وبعضها مازالت الأقواس مغروسة فيها ، أياد مبتورة ، عيون مسبولة ، صدور نازفة ، وأرجل مهروسة .

ويعاود النظر إلى خيم بني أبيه فيجدها خالية والصمت المرعب يلفها ، تنافسها في وحشة الصمت خيم أصحابه ، فأخذ يردد « **لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** » ووحشة المكان تبعث في النفس رهبة لا توصف بعد حلول هذه الساعات الرهيبة لتهيج معها العواطف هيجان الأمواج المتلاطمة ، فلا تسمع نأمة إلا هنهنات نحيب النسوة من الخيم وآهات المرضى والعطاش من النساء والأطفال وبالأخص منهم ولده زين العابدين «ع» لذا فقد توجه إلى خيمته فألفاه ملقى على نطع من الأديم وعمته زينب تمرضه وتحنو عليه وتواسيه وتبلل وجنتيه بدموعها ، ولما رأى الشبل المريض والده داخلاً إلى الخيمة حتى همَّ بالاستواء احتراماً لمقدمه .. فلم يقدر لشدة مرضه ، فطلب من عمته زينب أن تسنده إلى صدرها وهو يردد قائلاً : « **هذا ابن رسول الله قد أقبل** » فما كان من عمته إلا أن أسندته إلى صدرها بحنان الأم محاولة عدم إجهاده ، فأخذ الحسين يسأله عن مرضه ، وبدوره سأل زين العابدين أباه عن

أصحابه وأهل بيته .. فما كان من زينب إلا أن انتحبت وخنقتها العبرات مشفقة على أخيها من الرد على ولده ، وخائفة على ابن أخيها من وقع ما سيخبره به وهو المريض الواهن .

لحظات مكهربة عاشتها العقيلة وسط وجوم أخيها عن الرد ريثما يستجمع شتات أفكاره ، حيث نظر أخيراً نظرات حانية إليها ثم إلى ولده وقال وهو يغالب أسى يعتصر قلبه وحزناً يجمد الكلمات بين شفتيه :

« **يابني اعلم أنه ليس في الخيام رجل إلا أنا وأنت ! وأما هؤلاء الذين تسأل عنهم فكلهم صرعى على الثرى** » فبكى علي «ع» بكاءً شديداً ثم قال لعمته زينب «ع» يا عمتاه عليَّ بالسيف والعصا .. فسأله أبوه :

- وما تصنع بهما ؟

قال :

- أما العصا فأتوكأ عليها وأما السيف فأذب به بين يدي ابن رسول الله «ص»فإنه لا خير في الحياة بعده .

فمنعه الحسين «ع» من ذلك وضمه إلى صدره ، وقال له :

- لا أدعك تفعل ذلك ، فأنت حجتي على أهل بيتي وشيعتي وترد هؤلاء النساء إلى المدينة .

بعد أن ودع الحسين ابنه واحتضنه طويلاً وهو يذرف الدمع الهتون .. أمسك بيده ونادى :

- يا زينب ويا أم كلثوم ويا سكينة ويا رقية ويا فاطمة عليكن مني السلام ، فهذا آخر اجتماع لنا وقد قرب منكن الإفتجاع واعلمن أن ابني هذا خليفتي عليكم وهو إمام مفترض الطاعة .

وحيال هذا الموقف الحزين الذي يدمي القلوب ويفتت الأعصاب ويشتت أعتى العقول .. علت أصوات المشرَّفات وأعولن وهن يصحن :

« **الوداع .. الوداع .. الفراق** »

واقتربت سكينة من أبيها وقالت بصوت حزين :

- يا أبتاه استسلمت للموت[1] فإلى من أتكل ؟!

احتضن الحسين ابنته النائحة وقال لها :

- يا نور عيني كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين ، ورحمة الله ونصرته لا تفارقكم في الدنيا والآخرة فاصبري على قضاء الله ولا تشتكِ فإن الدنيا فانية والآخرة باقية .

دفنت رأسها في صدر أبيها وقالت :

- أبَه ردنا إلى حرم جدنا رسول الله .

قال لها «ع» :

- هيهات لو تُرك القطا لغفا ونام .

بعد هذا الموقف الحزين والحوار الممض دعا الحسين «ع» النسوة وقال لهن :

- استعدنَّ للبلاء واعلمن أن الله حافظكن وحاميكن وسينجيكن من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمركن إلى خير ، ويعذب أعاديكن بأنواع العذاب ، ويعوضكن عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة ، فلا تشتكين ولا تقولن بألسنتكن ما ينقص قدركن .

ثم أمرهن بلبس أُزَرِهِنَّ ومقانعهن ، فسألته زينب «ع» عن سبب طلبه هذا في

---

(١) قصدت سكينة من عبارتها لا الاستنكار ولا الاستغراب من موقف أبيها .. بل هي عبارة استفهامية تحمل تأكيد ما هو مؤكد والمقتضى المرسوم له ، والذي لإنفاذه كان يقف هذا الموقف .. وهو الأمر الإلهي الذي كيفما دار مقتضاه فهو ضرورة مقضية ليس لهم بد من قبولها ، وهؤلاء الذين يحيطون بالشهيد ليعملوا فيه سيوفهم ناباً .. فإنه سيأكلهم ، ونزالهم له .. ضرساً سيمضغهم ، لذا فإن في قولة سكينة : « **أبتاه استسلمت للموت ؟** » فهو تسليم بقرب النهاية فسَّر عبارتها التالية : « **فإلى من أتكل ؟** » وهي عبارة تندرج تحت أسلوب التقليب اللغوي ، وتكريس جواب من سؤال اشتقاقي .. وهذا منزع قوي من تفرد القريحة لدى أهل البيت الكرام .

هكذا ظرف .. فقال «ع» : كأني أراكن عن قريب كالإماء والعبيد يسوقونكن أمام الركاب ويسومونكن سوء العذاب .

لم تحتمل أم المصائب العقيلة هذا القول فازداد نحيبها ونادت من قلب فطره الألم والحزن وطفح به كيل المحنة : « **وآوحدتاه ، وآقلة ناصراه** » وأرفقت عباراتها باللطم على وجهها ، فما كان من الحسين إلا أن قال لها :

« **مهلاً يابنة المرتضى إن البكاء طويل** » .

كانت همهمات الحقد تصل إلى الخيمة الحزينة فتزيد من سوداوية الموقف ، وتناهت إلى أسماع المقرّين بها في لحظات الوداع الأخير هذه .. قعقعة السيوف وصهيل الخيل وشخيرها وضرب الأرض بحوافرها وكأنها متحالفة مع أصحابها التواقين لإتمام المجزرة التي تكاد تسدل الستارة على آخر فصولها الدموية ، وتحرك الحسين «ع» إلى باب الخيمة يريد الخروج فزعقت زينب فزعة وهي ترى أخاها وخدين نفسها وتوأم روحها ورفيق طفولتها وهو يستعد للغياب الأخير ، واندفعت إليه متعلقة به وهي تهتف بصوت متلجلج والدموع تتهاطل من عينيها الكليلتين اللتين أدميتا من البكاء منذ وطئت قافلة الشهادة أرض الطف :

- توقف يا أخي حتى أتزود منك ومن نظري[١] إليك وأودعك وداع مفارق لا تلاقي بعده.

وطفقت تقبل يديه ورجليه[٢] وهو«ع» يحاول أن يصبِّرها ويذكِّرها بما أعد الله للصابرين ، فقالت :

---

(١) عز على العقيلة انصراف أخيها قبل أن تطيل النظر إليه وتودعه وداع مفارق لا تلاقي بعده .. وهذه العبارة لعمري من أجمل العبارات الدالة على عمق الأخوة .. فها هي رفيقة أخيها بعد أن عاشت معه ولازمته كل تلك السنوات التي مضت تشعر أنها بحاجة إلى التملي للحظات قصار في وجهه الذي يوشك أن يغيب ، لذا طلبت منه التوقف لتشبع ناظريها من رؤيته لتنطبع صورته الأخيرة في سويدائها فلا تفارقها في صحوها ومنامها .

(٢) لله در هذه المرأة ما أعظمها .. لقد درست حياة كثيرات من نساء التاريخ فلم أجد مثل زينب «ع» في حبها العجيب لأخيها ، ومن المستحيل أن يسجل التاريخ مثل محبتها وخلقها وعطفها الأمومي ، وهذه الاستحالة مردها إلى الطبع والجبِلَّة وخلق الفطرة والمربت النبوي الفريد في طبيعته وسمو أهدافه .

- يا بن أمي طب نفساً وقر عيناً فإنك تجدني[1] كما تحب وترضى .

قال لها والدموع تسابق كلامه :

- أخيَّة إيتيني بثوب عتيق لا يرغب فيه أحد ، أجعله تحت ثيابي لئلا أجرَّد[2] بعد قتلي فإني مقتول مسلوب .

وأخيراً خطا الخطوة الأخطر فوق رمال مصرعه ، ولما صار خارج الخيمة تطلع يميناً وشمالاً ونادى :

- من ذا يقدم لي جوادي ؟ .

وسمعت زينب «ع» مناداة أخيها فعصفت في نفسها الآلام وعلمت أن لا أحد سوف يسمع نداءه .. فهبت بلا تردد إلى حيث مربط الفرس وأسرجته وألجمته وقدمته إلى أخيها وهي تقول:

- أخي .. لمن تنادي[3] ؟ قطَّعت نياط قلبي وقرَّحت فؤادي

ثم أردفت من شفاه ترتجف لهول الشدة التي تعيش وشقيقها لحظاتها الدامية :

---

(١) قالت لأخيها في آخر عباراتها : « **إنك تجدني كما تحب وترضى** » وفي هذه القولة مغاز متعددة .. فهي تلقي في مسامعه ما يطمئنه إلى صلابة ما سيتركه نهباً للعواصف والشدائد والأعاصير ، وتؤكد له في الوقت ذاته إلى أن ما يحب ويرضى من إخراج الحرم معه لن يكون هباء منثوراً ولن تؤثر في فعاليته أية عوامل مهما علت ، وهو تأكيد من العقيلة غير قائم على الهاجس والظن بل هو أساس في غايتها وتصميمها ، فإذا رحل شقيق روحها فسيرحل راضياً مطمئناً إلى من سيرفع راية ثورته ويبلغ بها البرية . ولننظر في هذه الأقوال ونحاول ربطها مع بعضها .. فهل نرى شيئاً غير إلهي فيما ترمي إليه الكلمات وينصب به البيان وتتساوق بلاغته لتشكل مذهباً رسالياً في الكفاح واستنهاض الضمائر الهاجعة ؟

(٢) لقد استقرأ الحسين قبل مصرعه بأنه سوف يجرد من ثيابه وهذا ما حصل فعلاً ، وسلب قتلته حلته وتكة سرواله وهذا ما وقع لعيسى «ع» إذ اقتسموا ثيابه بالاقتراع ، فسبحان الله الذي هيأ لأوليائه الصالحين هذه النهايات لتكون عبرة وتذكرة .

(٣) « **أخي لمن تنادي ؟** » سؤال يعبر عن الوحدة المرعبة في أرض خلاء .. فلا أحد يسمع هذا النداء ، وهذا التعبير من العقيلة والتصرف الذي أعقبه ليدل دلالة قاطعةعلى رباطة جأشها وتسليمها لقضاء الله الذي كتب لها ولأخيها هذه الوحدة وهذا المصير .

– ما أجلدني وأقساني .. أيُّ أخت[1] تقدم لأخيها فرس المنون ؟

تأثر الحسين من هذه العبارة وبكى وهو يتطلع بأخته وكأنه لا يريد الابتعاد عنها وبادلته أخته الأم الرؤوم النحيب قبل أن يغيب عن ناظريها .

من ذا يقدم لي الجواد ولامتي — والصحب صرْعى والنصير قليل
فأتته زينب بالجواد تقوده — والدمع من ذكر الفراق يسيل
وتقول قد قطعت قلبي يا أخي — حزناً ويا ليت الجبال تزول
ولمن تنادي والحماة على الثرى — صرعى ولا منهم يبل عليل
ما في الخيام وقد تفانى أهلها — إلا نساءً ولهاً وعليل
أرأيت أختاً قد أتت لشقيقها — فرس المنون ولاحمى وكفيل

وحلت ساعة الظليمة الكبرى بعودة فرس الحسين إلى الخيم وهو يحمحم ويصهل ويضرب الأرض برأسه ، فخرجت النساء والأطفال فرأوا الفرس مخزياً وسرجه ملوياً والنبال قد ثقبت كل شبر في بدنه .. فصاحت النسوة وخرَّت زينب مغشياً عليها وصاحت سكينة : « **قتل والله أبي الحسين .. ونادت : وا قتيلاه ، واأبتاه واحسيناه ، واغربتاه** » .

لما أفاقت العقيلة من غشوتها ، انحدرت نحو المعركة مسرعة وهي تتعثر بأذيالها وبين كل خطوة وأخرى تسقط على وجهها من شدة ذهولها حتى وصلت إلى أخيها المعذب فرأته ملقى على وجهه وهو يخور في دمه فوق بقعة واسعة حوله ، ويقبض يميناً وشمالاً ويرتجف بشدة وهو يجمع رجلاً ويمد أخرى والدماء تشخب من جراحاته [2] الملذذة على بعضها .

---

(١) وصف أخاذ يملأ القلب حزناً وأسى .. وهو يدل على العزيمة القاطعة التي لا مسوغ للعذر فيها ولا وجه للتعلل عندها ، فهل هناك أخت في أركان الدنيا الأربع تفعل ما فعلته زينب «ع» بتقديم فرس المنون لأخيها ؟ ولنلاحظ بلاغة العقيلة كيف وصفت الجواد بـ « **فرس المنون** » ولنلاحظ أيضاً تسليمها بحتمية وقوع المنية وتمالك أعصابها حيالها .

(٢) ذكر في تاريخ الواقعة بناء على معاينة شهود المعركة من الجانبين أن جراح الحسين حينما وصلت إليه زينب كانت تعد ٣٨٠ جرحاً بين ضربة سيف وطعنة خنجر وقذفة نبال .

حاولت محادثته ولكنه لم يقوَ على إجابتها فطفقت تناجيه بعبارات تفتت الأكباد لحنوها وجزالتها:

« أأنت الحسين .. أأنت أخي ، أأنت ابن أمي ، أأنت نور بصري ، أأنت مهجة فؤادي ، أأنت حمانا ، أأنت رجانا ، أأنت ابن محمد المصطفى ، أأنت ابن علي المرتضى أأنت ابن فاطمة الزهراء ؟ » .

كانت تنوح وتبكي والقوم السافلون يتفرجون عليها شامتين .. كانت تلح على أخيها الواهن بالخطاب إلى أن أفاق ورمقها بطرف عينه ومد يده ناحيتها ، فعاودتها الغشية مجدداً .. ولما أفاقت عادت إلى ندبها ومناجاتها فكانت تقول :

« أخي بحق جدي رسول الله إلا ما كلمتني .. وبحق أبي أمير المؤمنين إلا ما خاطبتني ، يا حشاشة مهجتي بحق أمي فاطمة الزهراء إلا ما جاوبتني ، يا ضياء عيني كلمني ، يا شقيق روحي جاوبني » .

السبط المشغول بآلامه وجراحاته وعذاباته النفسية ازداد كرباً من مخاطبة أخته ، لأنه وهوالمحب لها كان بائساً من حزنها وانكسارها في لحظات نزاعه ، فتحامل على نفسه وقال لها محاولاً كبح جماح حزنها الذي لا يحتمله :

- يا أختاه .. هذا يوم التناد والهزاق ، هذا اليوم الذي وعدني به جدي وهو إليَّ مشتاق .

قال ذلك بصعوبة وتحامل على نفسه كي يهدئ من روع أخته الحبيبة ، وما أن انتهى من عبارته القصيرة حتى عاودته الغشية ، فالتاعت زينب وجلست خلفه وأدخلت يديها تحت إبطيه وأجلسته حاضنة له بصدرها ، ولما شعر بما فعلته هذه الثكلى المحبة غالب وهنه من جديد وقال لها :

- أخيَّة زينب .. كسرت قلبي وزدتني كرباً على كرب ، فبالله عليك إلا ماسكنتِ وسكتِّ.

صاحت أم المنازع :

- وآويلاه ، أخي وابن أمي ، كيف أسكن وأسكت وأنت بهذه الحالة تعالج سكرات الموت تقبض يميناً وتمد شمالاً ، تقاسي حنوناً وتلاقي أهوالاً ، روحي لروحك الفداء ونفسي لنفسك الوقاء .

لحظات ممضة عاشتها زينب وهي تحتضن أخاها المدمى وهو يودع آخر أنفاس الحياة ، كانت تبكي وتنوح وتردد : « **أخي أخي لا تتركني** » وبينما هي على هذه الحال إذ بسوط ينزل بين كتفيها وصوت أجش كنقيق ضفدع مهدداً :

- تنحي عنه وإلا ألحقتك به .

التفتت وإذا بها وجهاً لوجه مع الزنيم شمر بن ذي الجوشن بسحنته الشيطانية العاكسة لنفس خسيسة وشخصية بلا مبدأ .. فما كان منها إلا أن اعتنقت أخاها بشدة وحوطته بذراعيها الحنونين وردت على الشمر بغضب وتصميم لا تراجع عنه :

- يا عدو الله لا أتنحى عنه .. إن ذبحته فاذبحني معه .

تقدم الشمر بلؤم طبعه الشيطاني فجذبها عنه قهراً وضربها ضرباً مبرحاً ثم هددها بقوله :

- والله إن تقدمت إليه لضربتك بهذا السيف .

وأعقب كلامه بالجثوم على صدر الحسين الشريف الذي كان لحظتها في إغماءة ثم قلبه على وجهه النوراني .

لما رأت العقيلة ما يفعله المجرم بأخيها تقدمت منه غير هيابة ولا وجلة جاذبة السيف من يده وقائلة :

- يا عدو الله ، أرفق به ، لقد كسرت صدره ، أما علمت أن هذا الصدر تربى على صدر رسول الله «ص» وعلي وفاطمة «ع» ويحك هذا الذي ناغاه جبرائيل وهز مهده ميكائيل ، فبالله عليك إلا أمهلته ساعة لأتزود منه ، ويحك يا لعين دعني أقبّله ، دعني أغمضه ، دعني أنادي بناته يتزودن منه ، دعني آتيه بابنته سكينة فإنه يحبها وتحبه.

فعند ذلك غار عليها فوقعت على وجهها مغشياً عليها .

ولما استفاقت بعد قليل التفتت إلى المدنس عمر بن سعد وصاحت في وجهه :

- ياعمر أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه ؟

لكن الخبيث المتسربل برداء الخسة والبشاعة أشاح بوجهه عنها ودموعه تسيل على لحيته الخسيسة .

فنادت :

- **ويحكم .. أما فيكم مسلم ؟!**

ومن بين آلامه وجراحه الثخينة طلب الحسين من أخته العودة إلى المخيم فامتثلت له ، في حين أحاط جنود عمر بن سعد به بين طاعن بالرماح وضارب بالسيوف وقاذف بالحجارة ، وبعد أن شبعوا من هذا التشفي الوحشي .. أمر الزنيم بن سعد أحد جلاوزته شبث بن ربعي النزول والمجيء برأس الحسين .. فامتنع لأنه بايعه فما كان من شمر إلا أن نزل إليه والصارم في يده مجترئاً على ابن الرسول ، وقبل أن يهوي بسيفه على الرقبة الشريفة قال له الحسين :

- **إذا كان لا بد من قتلي فاسقني شربة**(١) **ماء .**

فرد ابن الزنا قائلاً :

- هيهات هيهات والله ما تذوق الماء أو تذوق الموت غصة بعد غصة وجرعة بعد جرعة .

ثم استطرد هازئاً :

- يا بن أبي تراب ألست تزعم أن أباك على الحوض يسقي من أحب ؟ أصبر قليلاً

---

(١) لنستدل على حجم الوحشية في نفوس أولئك المجرمين في كربلاء .. لقد استكثروا على الجريح المطعون سبط نبيهم شربة ماء وهو الذي سقاهم حينما كانوا يجعجعون بركبه ، وسقى خيلهم عبة وعبتين من الماء .. لكنهم امتثلوا للخسة المعشّشة في خلاياهم ولم يستجيبوا لطلب السبط المشرف على النزع الأخير ولم يعطوه هذا المطلب الأخير الذي يعطى لعتاة المجرمين قبل إعدامهم كحق من حقوقهم .

حتى يسقيك أبوك .. والله لأذبحنك من القفا .

ثم أكبه على وجهه الشريف وجعل يحز على أوداجه بالسيف ، وكلما قطع منه عضواً نادى «ع» :

- وآمحمداه وآعلياه وآحسناه وآجعفراه وآحمزتاه وآعقيلاه وآعباساه وآقتيلاه وآقلة ناصراه وآغربتاه .

وهلل المجرمون وكبروا وكأنهم قضوا على كافر لا على سبط نبيهم ابن علي وفاطمة ، وفي لحظة غرور ونشوة أمر بن سعد بوطء جسد الشهيد بحوافر الخيول فتقدم عشرة خيالين عتاة بخيولهم ذات الحوافر الحادة ورضوا صدره وظهره حتى ألصقوه بالأرض .

وقد وصف أبي ذيب شيخ القطيفي هذه الفعلة النكراء بأبيات معبرة قال فيها :

فليت أكفاً حاربتك تقطعت ... وأرجل بغي جاولتك جذام
وخيلاً غدت تردى عليك جوارياً ... عقرن فلا يلوى لهن لجام
ورضت قراك الخيل من بعد ما غدت ... أولو الخيل صرعى منك فهي رمام
أصبت فلا يوم المسرات نير ... ولا قمر في ليلهن تمام

لما انتهى مشهد الوحشية بذبح سيد الشهداء .. خرجت زينب من فسطاطها هلعة تجري نحو الميدان وهي تنادي :

- وآأخاه ، وآسيداه ، وآأهل بيتاه .. ليت السماء أطبقت على الأرض وليت الجبال تدكدكت على السهل .

كان المشهد الدامي الذي تبدى لعيني العقيلة «ع» لا يمكن احتماله .. جثمان أخيها محزوز الرأس وجسده مهتك من رض حوافر الخيل وليس فيه موضع لم تغرس فيه نبلة أو شقته طعنة سيف أو كدَّمته ضربة حجر ، وكان أهل بيته وأصحابه مجزرون كالأضاحي فوق الرمال وقد داستهم الخيول بحوافرها ، والمشهد برمته يبعث على الحزن وتلجم حياله الألسن وتهلع من سوداويته القلوب ، لكن بطلة

هذه الملحمة التي لم تختم فصولها المأساوية بعد .. ظلت مخلصة لدورها الذي أعدته لها العناية الإلهية ، وقد وقفت بشموخ وجلال وتسليم بقضاء الله أمام هذه المجزرة يحيط بها أعداء الدين ، وركعت خاشعة بجانب جثمان أخيها واضعة رأسها على صدره ومنتحبة بأسى دفع المتحلقين حولها إلى إبعاد أبصارهم عن هذا المشهد الأليم الذي لاتحتمله أشد القلوب عتواً ، وتهتز له المشاعر رغم خلو صدورهم من أدنى شعور إنساني يميزهم عن وحوش الغاب الضارية .

ما كاد غروب ذلك اليوم العصيب أن يكتمل حتى أضاءته شعل ألسنة النار التي أخذت تأكل خيم أهل بيت النبوة .. فما أن انتهت المعركة بذبح الحسين «ع» حتى هجم العتاة بأمر من ابن سعد لتغطية هزيمته حيال صلابة أهل البيت وسطوة الإيمان في نفوسهم والتي قزمت عنفوان جبروتهم وصغرتهم في أعين أنفسهم .

وحينما نظر زين العابدين إلى خارج خيمته ورأى فرس أبيه خالي السرج وملقى العنان وقد توطنت في جسده النبال قال لعمته :

- ياعمة إجمعي العيال والأطفال ، لقد قتل أبي الحسين ، قتل أسد الله الباسل قتل ابن سيد الأوصياء ، قتل ابن فاطمة الزهراء ، ثم سقط أرضاً مكبوباً على وجهه.

ضرب الهلع عمته فأسرعت إليه ووضعت رأسه في حجرها وصارت تردد بصوت حزين واهن :

- إجلس تفديك عماتُك ، إجلس تفديك أخواتُك ، إجلس يا بقية السلف إجلس يا نعم الخلف .

لكن الجسد الواهن التعب الذي رُزىء للتو بمقتل سنده .. لم يجب على نداء عمته ولا استوعب لوعتها وشكواها ووعى أنينها ، ولما لاحظت غياب وعيه انكبت عليه تحضنه بحنان الأم وتمسح التراب عن وجهه وتهتف به محاولة إيقاظه من غشيته: « **يا زين العباد يا مهجة الفؤاد** » فاستفاق وفتح عينيه .

وبينما تحتضن العائد من غيبوبته .. دخل خولي بن يزيد الأصبحي الخيمة ونهب ما فيها ، ثم نظر إلى الصبي العليل وهو على نطع من الأديم فجذبه من تحته ورماه إلى

الأرض ، ثم أقبل الشمر ومعه حثالة الميدان و سيوفهم تقطر من الدماء الزكية التي أسالتها وهم يسألونه : « **ألا تقتل هذا العليل؟** » فجرد سيفه وهم بقتله فألقت زينب بنفسها فوقه وصاحت بالشمر : « **والله لا يقتل حتى أقتل** » ولكن عمر بن سعد أخذ بيده وقال : أما تستحي من الله .. تريد أن تقتل هذا الغلام المريض ؟

فانتزع شمر يده من قبضة عمر وقال غاضباً وهو يحدق في زين العابدين :

- لقد صدر أمر الأمير عبيد الله بن زياد بقتل جميع أولاد الحسين .

ولما رأى عمر عناده زاد في منعه إلى حد المبالغة فكف عن العليل على مضض .

تكالب الوحوش على ساكني مخيم المأساة وأعملوا فيهم نهباً وسلباً ، وطفقت زينب تجمع النسوة والأطفال وتحاول الحد من ضراوة المعتدين ، ولما اشتدت النيران وبدأت بالتهام خيمة العليل زين العابدين اندفعت لإخراجه من الخيمة بينما كان الأوباش يعتدون على بنات رسول الله بكعوب رماحهم وهن يلذن ببعضهن من الرعب .

ومرت ساعات رهيبة على حرم رسول الله «ص» لا تحتملها الجبال في رواسيها نالت منها أم المصائب النصيب الأكبر ، إذ ما أن بدأ الهجوم وحتى انتهى كانت تحامي على النساء وتخفيهن خلف جسدها المنهك ، وكان الأطفال يفزعون إليها ويلوذون بها ويتسترون وراءها اتقاء لضرب السياط والعصي ، فكانت الأم الكبيرة ترد السياط عنهم بجسدها كما يحمي الطير فراخه حين هجوم الصقور على عشه وقد نالت[1] منها السياط والعصي ما نالت حتى أسود ظهرها .

---

(١) إن الباحث المستحضر لخوارق بطولة زينب ليشعر بالضيق ورجفة اليد لحظة تدوينها .. فأي امرأة تحملت ذرة مما تحملته هذه السيدة النادرة بين النساء ؟ وكيف حافظت على هذه الشكيمة القتالية رغم ما أصابها من الوهن والسياط والخوف .. ألا تدفعنا مواقفها الجسورة إلى التفكر في عظمة المداميك الصلبة التي قامت عليها أساساتها العقائدية فكانت رهبة للطغاة في صلابتها ودهشة للعقول في رباطة جأشها ، ومثلت أباها علياً في شجاعتها واشبهت أمها الزهراء في عظمتها وبلاغتها ، فاستحضرت كل ذلك الشموخ والعلو والقداسة في شخصيتها الفذة .

هذه الفعلة النكراء والتي يعف عنها أشرس الوحوش ، ويستكبرها عتاة المجرمين الذين اشتهروا بساديتهم .. أقدم عليها وبدم بارد وبوجوه أصلد من جلمود الصخر جلاوزة ابن زياد ، فكانت سابقة في سجلات الوحشية لبعض البشر يفخرون بها ويعلنون عن ارتكابها بدون أدنى تأنيب ضمير أو أسف .

حملت خطوباً لو تحمَّل بعضَها ... لانهار كاهلُ يذبل ويَلَملَم
ورأت مُصاباً لو يلاقي شجوَها ... العذبُ الفراتُ كساه طعم العلقمَ
في الرُزء شاركتِ الحسين وبعدَه ... بقيت تكافح كل خطب مؤلم
كانت لِنسوته الَشواكل سلوةً ... عُظمى وللأيتام أرفَقَ قيِّمِ[1]

* * *

(١) من قصيدة للشيخ العالم جعفر بن الحاج محمد بن عبد الله التقي الربعي المعروف بـ « **النقدي** » .

ليلة الغد المجهول

وسجى الليل والرجال ضحايا والنساء المخدرات ذُهول
واليتامى تشرد وضياع والثُكالى مدامع وعويل
وبقايا مخيم من رماد وقيود يئن منها عليل
وزنود قست عليها سياط وجسوم يُضري بها التمثيل[1]

أجل لقد سجى الليل وأرخى سجفه السوداء المخيفة على أرض المصارع وغارت نجومه المضيئة وخبت شعل الموت الزؤام التي أضرمتها أيد زنيمة كافرة .. وهاهم أصحابها يتجرعون كؤوس الراح فوق أرض القداسة بعد أن نضبت ذخائر السيوف من الأبدان القدسية التي غادرتها أنفاسها وظلت فوق الصعيد تسفوها الرياح وكان المشهد الدامي : رجال مجندلون مرملون بدمائهم الزكية وأطفال مذبوحون ومرضوضون بحوافر الخيل وهائمون على وجوههم من الرعب الذي حل عليهم عترة النبوة بددتها صوارم الكفر الفواح بنتن الخطيئة والضلال ، فتوزعت فوق أديم الطف الذي تبارك للتو بدمائها الزكية الطاهرة ، فغاب الحماة وظلت مخدرات النبوة بلا جدار يستندن إليه ، وأمهات فقدن أعز ما يملكن ، وفاقدات انتهبت حشاشاتهن بفقد شقيق وولد ونادبات على الأشلاء المبضعة والنحور الدامية والرقاب المحزوزة والأطراف المقطعة .

(١) من قصيدة للدكتور الشيخ أحمد الوائلي .

وسط هذه الأجواء السوداوية حالكة الضيم والأذى تحركت الحوراء «ع» وهي تشعر بأن دورها لم يكتمل بعد وبأن تلالاً من المواقف المضنية في انتظارها بدءاً من هذه الليلة .. فالكابوس الذي ران اليوم لم يعبر وها هي هنهنات الثاكلات المغمسة بالعبرات وصدى عربدة الأجلاف المحتفلين بالنصر المزيف تصلها من كل جانب فلا تدع للصمت هنيهة ولا للقلب من مستقر .

في هذا الجو المفعم بالقنوط والرهبة كانت العقيلة تشكر ربها على اختصاصها بما ابتلاها به ، فهي في كل موقف ابتلاء كانت تستذكر كلمات أبيها أمير المؤمنين «ع» فتشعر بالسكينة ويهدأ اضطرام مخاوفها وثوران مكنونها : « **إن أشد الناس بلاء النبيون ، ثم الوصيون ، ثم الأمثل فالأمثل ، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة فمن صح دينه وحسن عمله أشتد بلاؤه ، ذلك أن الله لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر ، ومن سخف دينه ضعف عمله وقلَّ بلاؤه ، وإن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض** » .

وفي دخلتها يرتسم طيف جدها المصطفى «ص» وأبيها «ع» فتملأ هذه الأطياف القدسية ملء قلبها وتتمدد في زوايا روحها ، وحينما أضافت إليها طيف أخيها الصريع والصفوة المختارة استحالت هذه الأطياف إلى رؤى هيولية عصفت بنفسها وارتبطت بخيوط نورانية ما بين الأرض والسماء فأضاءت من جديد هذه الظلمة الموحشة المحيطة بها والتي تدعوها إلى القنوط والتساؤل « **لمَ هي بالذات ؟** » لكن شيئاً من هذا القنوط لم يقع في صدرها المؤمن بل كانت تصلها قوة الروح من ذكرى من رحلوا فتغمرها بالحب الإلهي وتسقيها من نبعة الشعور الصافية فتتخلق لديها مثاليات من الاصطفاء والإخلاص تطرد طفح العاطفة الباردة وتحيل الحاضر ليصبح ماضياً في الآت ، وتحول الغد إلى مستقبل يبشر بالبشرى العظيمة المتضمنة لحن النبوة في حروفها القدسية والوعد الإلهي بالرفعة ووراثة(١) الإمامة والسمو القدسي .

---

(١) يقول المولى عز وجل في محكم كتابه العزيز : « **إن فرعون عَلا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** » القصص ٤ ـ ٥ .

وحينما تصل المشاعر إلى هذه الدرجة من شعاع الروح ترى في حمرة الدماء المراقة بريق وردة طافحة بالشذى ، وهذا ما وصل لقلب زينب فحولت آلامها العظيمة إلى لذة روح تباركها الملائكة المرفرفة فوق هذه البقعة التي تضمها مع الشهداء والثكالى والأيتام والأرامل .

ساعتها تحاملت على أوجاعها وآلامها وأدت صلاة الشكر لله على ما أمد به أخاها من توفيق وعلى ما أفاض عليها من صبر ومجالدة لخدمة الدين .

ولا غرو في هذا الصبر من قبل جامعة ذاتها المقدسة من عصارة صبر جدها المصطفى «ص» الذي كان يقول : « **ما أوذي نبي مثل ما أوذيت** » ومن حكمة أبيها «ع» حينما واجهته المظالم الكبار والغدر المستتر فقال : « **صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى** » ومن لوعات أمها المقهورة مسلوبة الإرث مكسورة الضلع فاقدة الجنين التي قالت : « **صُبَّت عليَّ مصائبٌ لو أنها صُبت على الأيام لصرن لياليا**(١) »

ما أن انتهت زينب من صلاة الشكر حتى نهضت تلملم شتات أسرتها المنكوبة مستحضرة وصية أخيها لها قبل مصرعه بضرورة المحافظة على العيال والأطفال ووضعهم عهدة في ذمتها لما يعرفه عنها من التزام خلقي وحرص على وعدها وقد بدأت بالفعل تفقدها النساء والأطفال منادية على كل منهم باسمه وإحصاءهم لتتأكد من وجودهم في كنفها .

وتروي المصادر أنها «ع» حينما كانت تتفقد ما تبقى .. لم تجد طفلين(٢) بين المجموعة فطارت نفسها شعاعاً وانطلقت بنفسها للبحث عنهما .. ولما عثرت عليهما بعد بحث مضن وجدتهما معتنقين نائمين ، فلما حاولت إيقاظهما وجدتهما بلا حراك

---

(١) وردت في بحار الأنوار ص ١٠٦ وقد وصفت الزهراء ابتلاءها بالمصائب بـ « **الانصباب** » وهذا التعبير فيه منتهى البلاغة .. فالانصباب ليس به توقف وإذا بدأ فهو يشبه انفتاح شآبيب السماء بمطر ليلة شتوية ، وقد توجت «ع» هذا الوصف للدلالة على عظم ما أصابها فأحال نهاراتها إلى ليال مخضبة بالسواد المحلولك .

(٢) ذكر في بعض الكتب أن طفلين لعبد الرحمن بن عقيل اسمهما سعد وعقيل أمهما خديجة بنت الإمام علي «ع» وقد وجدا ميتين عطشاً ورعباً .

فأيقنت أنهما ماتا من العطش والهلع .

لكن هذه الحارسة الأمينة على تركة أخيها البشرية لم تركن إلى الهجوع بعد عثورها على الطفلين ، بل أكملت بحثها لتكتشف أن الرباب زوجة أخيها الحسين غير موجودة فعاودت بحثها وسؤالها عنها ، ولما اجتازت بضعة خطوات حتى التقت بأحد الموكلين بالحراسة وسألته إن كان قد رأى امرأة في الجوار .. فأبلغها أنه أثناء مروره على ساحةالمعركة أن سمع أنين امرأة تندب وتنتحب وهي واقفة على جسد مجندل ، فأسرعت زينب ومناداتها تغلب خطواتها : « **رباب .. أين أنت ؟** » إلى أن وصلت إليها فإذا بها جالسة إلى جانب أبي عبد الله وهي تنوح وتبكي بكاءً مراً وتردد خلال شرقها بالدمع الهتون :

وآحسيناً وأين مني حسينٍ أقصدته أسنَّة الأدعياء
غادروه في كربلاء قتيلاً لا سقى الله جانبي كربلاء

اقتربت العقيلة منها وهي غارقة في لجة أحزانها ودموعها تتسابق على النفور من بين أجفانها الكليلة .. وبصوت أضناه الوهن سألتها : **ما الذي أخرجك في هذه الليلة والوضع كما ترين ؟**

أجابت الرباب باكية : سيدتي .. صدري أوجعني وثدياي درا[1] عليَّ فخرجت أبحث عن ولدي .

احتضنتها زينب بحنو أمومي وبكيتا بنوح واحد إلى جانب جثمان أخيها الطاهر ثم أمسكتها من يدها مصطحبة إياها إلى حيث يلتصق المكلومون من بقية العترة الطاهرة تحت لحاف السماء بلا غطاء ولا طعام ولا جدار يستندون إليه من الضراوة المتملية المحيطة بهم.

وكان الليل قد انتصف وزينب لا تزال قائمة تحرس العهدة .. فمن طفل جائع

---

(١) لقد ثبت علمياً أن الأم التي تحب رضيعها تجود له بحليب صدرها .. وإذا ما فكرت به وهو على مبعدة .. يدر صدرها الحليب وكأنها ترضعه حتى أنها تشعر بحركة شفتيه على ثديها .. والرباب التي جف لبنها من الخوف عاد مدراراً حينما فكرت بعبد الله الرضيع العطشان مطعوناً بالسهم في نحره .

إلى طفلة باكية خائفة إلى نسوة كانت لهن عمة وأماً وخالة ، فكيف سيهدأ لها بال في تلك الليلة الظليمة وأجفان الراقدين ترتجف ، ونسوة العراء لا تهدأ لهن ذاعرة في أي ساعة من هذه الساعات التي تتأوه فيها الأرواح متوجعة من الضنى ، ويمزق نقاب الكرى عن الأجفان ، وتذوب حشاشات الأمومة على فراق الأحبة ، وتلقي السماء بذور الغد المجهول في أعماق هذه الحلكة وبين أصقاع مهدومة حيث بدأت اللحظات تتقلص نحو بداية جديدة لا يعلم أحد كيف ستكون .

تشعر زينب بالإرهاق الشديد يضرب أعصابها ، ولكن غفوة ولو يسيرة لا تزال بعيدة عن أجفانها .. فكيف تغفو وهي تشعر في كل لحظة وكأن ذات أثيرية تقف إلى جانبها وصوت حبيب يناغيها ويحثها على الصبر ويوحي إليها بأن المهمة الصعبة بدأت للتو .. فتمتثل إلى هذه الرجفات النفسية وهي ممتلئة الصدر من هذه النسيمات العليلة القادمة إليها من هذا الفضاء الدامي بينما الأثير يخزن أشباح الموت وأنفاس القبور التي لم تحفر بعد للجثامين المطهرة التي بكت السماء عليها بالإظلام فأبصرت في حلكته ما ليس يُدرك بالعيون الهجع .

وهاهي في جلستها الصامتة تحرس أولئك المتعبين الذين هدتهم ضراوة الأحداث بعد أن أرزمت الفتنة الضارية وألقت بباعها فلم تترك لأحد صرف قلبه ولا إحاطة استحسانه السلو والتصبر ليلقي ثلجاً بارداً على الأكباد المحترة بعد استحكام سطوة الضغائن الحاقدة واستشراء السخائم في الصدور المتوحشة .

تتخيل أم المصائب وكأن مصائبها التي استقبلت معها عمرها الغض تسير معها جنباً إلى جنب حتى حافة لحدها فتصرف فكرها إلى حيث مثوى الأخ الحبيب الذي تحوم حوله الآن سكينة توحي بالرهبة والوقار وتدعو للارتفاع عن الحزن والدموع وأخذ العبرة من صدر الفناء ليصبح الوجود نهراً ضجاجاً بالماء الفرات الذي اشتهى منه الشهيد شربة قبل هموده ، لكن حيز مصرعه سيفيض كوثراً بمماته وسيروي مساحات لا حدود لها من القلوب العطشى إلى مائه النمير ، وستشفي انسيالاته البللورية العذبة من نبع هذه الصحراء الموحشة بعد تفجره من بئر العزة دماً زكياً من سلالة نبوية سيورق زلاله الرمال الصفراء الجرداء بفسيفساء من الزهور والثمار التي

لم تر مثلها عين ، والتي غرست بذورها تلك الجثامين القدسية حيث وقعت بعد أن كانت مواضعها لا تنبت غير الزوان ولا تحصد غير الهشيم والشوك والقطرب .

تنظر إلى السماء .. النجوم واجمة حزينة على حزنها وأساها ووجد كبدها المحروق ساعات ويطل فجر يوم جديد ، تُرى ماذا سيحمل هذا اليوم الآتي لهم من مفاجآت؟ تريد الصلاة في هدأة الليل والكل هجوع من حولها إلا من ارتعاشات بعضهم وكوابيس تدفع الأطفال للانتفاض والصراخ المفاجئ .. لكنها واهية لا تستطيع السجود وتشعر بهبوط كيانها وهي المعتادة على صلاة النوافل في آخر الليل ، وقد أوصاها أخوها أن تذكره بصلاتها الليلية وستلبي رغبته الآن .. لكن رجليها لا تقويان على حملها فتصلي وتسجد وهي جالسة متحاملة على وهنها .

ما أن انتهت من صلاتها حتى عادت إلى تذكار يوم الصعيبية المهول وكيف مر ككابوس مفزع ، وفي لحظات تجلياتها هذه كانت تردد في نفسها باستسلام تام لمشيئة ربها : يا إلهي إله الحياة والموت ، أنت كوَّنت أرواحنا وسيَّرتها في الأنوار والظلمات وفطرت قلوبنا على عشق سمو تعاليمك وجعلتها تنبض بالأمل والألم ، أنت الذي بحكمتك قدتني من أرض إلى أرض لتبين لي مراد الموت بالحياة ومشيئة الفرح بالوجع ، أنت الذي أريتني رفيقي جسداً بارداً بلا رأس ، يا من أنبتَّ في صحراء حياتي زنبقة بيضاء ثم سيَّرتني إلى فلاة بعيدة لتريني إياها زنبقة ذابلة فانية .. لتكن مشيئتك يا رب الكون فقد شئت أن تسقيني كأساً علقمية ، وأنا سعيدة مما تجرعت لإيماني بحلاوة هذه المرارة التي استشعرتها في كل رشفة ، وبحدب الأصابع الحديدية التي تضغط حول قلبي لتحول شكاً يراوده إلى يقين يفعمه فيغبطه ، وعروة توثق ضراوة الأمس ببهاء الغد معلنة الاستشهاد عرشاً والصبر ظفراً ، والموت الظلوم الساحق بضراوة سيحيل الحياة نوراً يشرق ليضيء الحنايا المظلمة التي عشش فيها السواد القاتم فأخفى سموها الإنساني تحت لحفه السميكة ، فلم يعد للضوء مسلك إليها ولا عاد يمين الحق يلامسها فانطوت على ضلالها وغيها ، إن للموت القدسي وسم نيِّر يتوسمه متوهم النصر فينهزم أمام بهائه ، وتظل حقيقة المهزوم الظاهرية هي عنوان لنصر لا يهزم أمام أية قوة مدادها الأسنة والنار ليعلن للبشرية بغلبة التضحية

على الخنوع والذلة مهما حاول المرجفون إطفاء شعلتها الساطعة في فضاء النفوس وبيداء الأفئدة التي ركنت إلى السكون الإيماني المفضي إلى العدم والتلاشي .

تتطلع أم أخيها إلى ابنه زين العابدين العليل وتلتقط أسماعها تنهيدات يتيم انسحق قلبه وتأوهات أم حزينة وابنة مكلومة وزوجة ثكلى فترتد من رحلة أفكارها المجنحة إلى واقعها الأليم الذي تنتظر انبلاج فجره القريب لتتبين مصير ما تبقى من رفاق نصرة أخيها الشهيد وفي صدرها لوعة ترقب وخوف عليهم من تلك الهياكل الصنمية المتجردة من أي إحساس إنساني والملأى برعونات أناس اطمأنوا إلى أطماعهم الدنيوية وعبثهم بالسنن النبوية وغدوا منتظرين دانق يزيد جزاء لما أظهروه من خسة وضعة شيطانية في مناجزة عترة الطهر والسمو الملائكية .

وكما يفقد المبدأ ومعاني النبل إذا أرضت صاحبها شهوة أو أقنعه مُنفس أو أجاب إلى الدنيا ودناءتها فينقلب النبل عاباً والشرف حطةً .. فإنه بالمقابل تتموضع كل معاني الكبرياء والعزة في كلمة حق وموقف إباء تفلح جميعها في تفريق نفس العاتي وتضؤل معها كبرياء الظالم ، وهكذا ارتفعت الحوراء فوق أحزانها وشفت نظرتها للمستقبل الآت على الرغم من دياجير الظلام المحيطة بها ، فقد استحالت قضية أخيها وثورته روحاً يجب أن تحيا لها وبها وتمثل دور المحامي والمدافع عن دستورها وعن بقية المناصرين لصاحب هذا الدستور .

حينما وصلت إلى هذه القناعة أحست بطمأنينة غمرت سويدائها وبقوة لا مثيل لها عصفت في كيانها فأرخت جفونها مسلمة إياها لوسن قاهر وهي تردد : حسين .. حسين أنت معي يا أخي ويا حشاشة قلبي .. فلا تغب عن ناظري .

لم تلهُ عن جمع العيال وحفظهم … بفراق إخوتها وفقد بنيها
لم أنس إذ هتكوا حماها فانثنت … تشكو لواعجها إلى حاميها
فعسى نبلٌ بها مضاجع صفوةٍ … ما بلَّت الأكباد من جاريها[1]

(١) من قصيدة طويلة للسيد رضا الهندي .

الفصل الثالث

بطلة الطف

الموكب الجنائزي

وأطل يوم محنة جديد على ما تبقى من العترة الطاهرة واستعدت زينب «ع» بكل ما أوتيت من جسارة على منع تحويل مجهول هذا اليوم إلى مهانة تحيق بها أؤتمنت عليه من الثكالى والأطفال المرضى .. وهاهي المتاعب تطل برأسها مُبكرةً مع تباشير الصباح ، وسرت فوق الأديم حركة مريبة فقد بدأ الفاسقون القتلة بدفن فطيسهم ثم تكالبوا كبواشق كاسرة على جثامين آل الرسول يقطعون رؤوسهم ويرفعونها على أسنة الرماح بعد أن قسمها لهم ولد الزنا ابن سعد على حسب القبائل المشاركة في المذبحة من أجل تقديمها إلى ابن زياد ليجزل لهم العطاء .

وبعد قسمة الرؤوس التي بلغت حسب المصادر ثمانية وسبعين رأساً ، كان نصيب كندة منها ثلاثة عشر رأساً صاحبهم قيس بن الأشعث ، ونالت هوازن اثني عشر مالكهم شمر بن ذي الجوشن ، وحظيت تميم بسبعة عشر ، وبنو أسد بستة عشر ، ومذحج بسبعة ، بينما اقتسم الآخرون باقي الرؤوس ، ومنعت عشيرة الحر الرياحي من قطع رأسه ورض جسده .

ونادى ابن سعد بتجميع السبي ، فتولى جنوده سوقهم بالسياط وسط زوبعة من الغبار والفوضى ، وجيء بنياق مهزولة لتمنع عظام هياكلها البارزة الراحة لراكبيها وأمر بإركاب الأسرى عليها بلا وطاء ولا حجاب ، وكانوا عشرين امرأة معهن صبية الحسين وجواريه وعيال الأصحاب ممن أحجم ابن سعد عن قتلهم ، ولما

أحاط القوم بهم قالوا للنساء : تعالين واركبن فقد أزفت ساعة الرحيل[1] .

تطلعت زينب إلى ما يجري حولها فانتفضت مستنكرة وصاحت قائلة : **سوَّد الله وجهك يا ابن سعد في الدنيا والآخرة ، تأمر القوم أن يُركبونا ونحن ودائع رسول الله «ص» ؟ فمرهم ليتباعدوا عنا ليُركب بعضنا بعضاً .**

امتثل ابن سعد وطلب من الجنود التنحي عن الحرم ، فتقدمت زينب ومعها أم كلثوم وجعلت تنادي كل واحدة من النساء باسمها وتركبها على الجمل ، ولما لم يبق أحد غيرها راجلاً .. نظرت حواليها يميناً وشمالاً فلم تر أحداً في هذه الفلاة الموحشة سوى زين العابدين «ع» وهو متحامل على نفسه من الوهن وينظر إليها مشفقاً من الوصب الذي تعانيه ، واستبقته بالطلب أن تركبه .. فقال لها : يا عمتاه اركبي أنت ودعيني أنا وهؤلاء القوم ، فرجعت إلى ناقتها وحانت منها التفاتةً حواليها فلم تر إلا رؤوساً منصوبة على الأسنة كل منها بيد رجل ، فلم تتمالك نفسها حيال هذا المنظر المقيت ، فصرخت من نفس مكلومة : « **واغربتاه واأخاه واحسيناه واعباساه وارجالاه واضيعتنا بعدك يا أبا عبد الله** ».

وهاجت بها الذكرى من بين غبش الأيام الخوالي فاستذكرت خروجهم من الحجاز وسط مظاهر العزة والرفقة والعظمة والجلالة ، فدمعت عيناها على ما آلت إليه الأحوال ، ولما نظر ابن أخيها إليها وهي على هذه الحال من الحزن .. لم يتمالك نفسه وهبَّ وهو يرتعش من الضعف متكأ على عصاه وأتى ناحيتها وثنى ركبته وهو يقول : **اركبي يا عمتي فلقد كسرت قلبي وزدت كربي** .. ولما حاول إركابها ارتعش وسقط على الأرض .

لما رآه الزنيم شمر لم يرحمه بل تقدم إليه مفرقعاً بسوطه اللاسع وجعل يضربه على مواضع بدنه ، ورأت زينب هذا المشهد المأساوي ، ذابح أخيها يجلد ابنه العليل

---

(١) جاء في كتاب الملهوف لابن طاووس أن ترحيل الأسرى كان بعد زوال يوم الحادي عشر من المحرم بعد أن انتهى القتلة من جمع قتلاهم ودفنهم ، بينما ترك جثمان الحسين الطاهر وجثامين شهداء الطف بلا غسل أو دفن تسفي عليهم الرياح وتحوم حولهم وحوش الفلوات .

بالسوط ، فبكت وقالت له بنبرة مؤنبة : « **ويلك يا شمر ، رفقاً بيتيم النبوة وسليل الرسالة وحليف التقى وتاج الخلافة** ».

ولم تزل على قولها حتى نحته عنه ، وما أن اطمأنت إلى ابتعاده حتى حاولت ركوب الناقة وإذا بجارية[1] مسنة سوداء أقبلت إليها وساعدتها على الركوب .

ولم يتبق فوق التراب غير زين العابدين .. فتولى بعضهم إركابه على بعير أعجف مهزول ، فلم يتمالك التوازن من شدة ضعفه .. وأسرع أحدهم وأخبر ابن سعد بذلك فأمرهم بأن يقيدوا رجليه من تحت بطن البعير كيلا يسقط .

وأخيراً انتظم ركب السبي وأعطى ابن سعد إشارة المسير فتحرك الركب بموكب جنائزي تهلع لمرآه القلوب ، يتقدمه السَفَلَة حملة الرؤوس الملطخة بالدماء الزكية تتبعهم نوق الأسارى المترنحة بأحمالها ، وما أن دبت أخفاف الإبل فوق الرمال حتى طلبت حرم أهل البيت من موكليهن أن يمروا بهن على البقعة التي تضم جثامين قتلاهن ، ولما وصلن إلى هناك بدا المشهد الرهيب الذي لو رأته الوحوش الضارية لارتعشت منه .. أجساد مقطعة ومطروحة هنا وهناك ، والجسد الشريف لسيد شباب أهل الجنة ملقى بمهانة ، وأوصال طعمتهم سمر الرماح ونهلت من دمائهم بيض الصفاح ، وهياكل مطحونة بسنابك الخيل وفوقها تحوم طيور جارحة تنتظر انصراف البشر لتعمل مناقيرها الحادة في الوليمة الجاهزة ، وحواليها تتحلب أفواه وحوش[2] كاسرة تتأهب للانقضاض حينما تزداد حلكة الليل وتتنادى من جحورها لتأخذ نصيبها من الجثامين المجندلة .

وكان المشهد الذي تراءى للعقيلة وتحالف مع أحاسيس الحزن والإرهاق الذي عانته طوال ليلة أمس أثره الكبير في إثارة أشجانها الأخوية ومشاعر الأمومة

---

(١) هي فضة جارية فاطمة الزهراء «ع» .

(٢) قبل خروجه من مكة وقف الحسين «ع» يخطب بما أوحي إليه في قصة استشهاده حتى لكأنه يقرأ مخطوطاً أمام ناظريه نقتطف منها ما اختص بهذه الجزئية إذ قال «ع» : **وخير لي مصرع أنا لاقيه ، كأني لأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً .**

في أعماقها فلم تتمالك نفسها وصرخت منادية بصوت رددت صداه تلك الأنحاء القفر ينعي موت الإحساس الإنساني في نفوس الطغاة والقتلة ، وكان فيما ندبت به أخاها الذبيح وأهلها المجندلين مقطعي الرؤوس المعتلية أسنة رماح شياطين الإنس والمرتفعة بقدسية فوق رؤوس تلك الخلائق الدونية الممسكة بها بتعطش لا متناه لثمن جريمتها التي لن تغتفر لها .. كان مناجاة تلين لها أقسى القلوب صلابة ، وقد أعلنتها العقيلة بصوت سيتردد دهوراً في فضاء الأكوان وفي أفئدة بني الإنسان :

« يا محمداه ، صلى الله عليك مليك السماء ، هذا حسين بالعراء تسفى عليه الصبا قتيل أولاد البغايا ، وآحزناه ، وآكرباه عليك يا أبا عبد الله ، اليوم مات جدي رسول الله ، يا أصحاب محمداه ، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا ، وهذا حسين محزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والردا ، بأبي من أضحى معسكره يوم الاثنين نهبا ، بأبي من فسطاطه مقطَّع العُرى ، بأبي من لا غائب فيُرجى ، ولا جريح فيداوى بأبي من نفسي له الفدى ، بأبي المهموم حتى قضى ، بأبي من جده محمد المصطفى ، بأبي خديجة الكبرى ، بأبي علي المرتضى ، بأبي فاطمة الزهراء ، بأبي من ردت عليه الشمس حتى صلَّى ، بأبي من شيبته تقطر بالدماء » .

واندفعت الهاشمية الثكلى تتعثر بخطواتها ناحية أخيها ورمت نفسها على جسده الطاهر المثخن فاقد الرأس واعتنقته ووضعت فمها على نحره الشريف وهي تقبله بشوق محموم وتردد :

« أخي لو خيِّرت بين الرحيل والمقام عندك لاخترت المقام[(١)] ولو أن السباع تأكل من لحمي ، يا ابن أمي لقد كللت من المدافعة عن هؤلاء النساء والأطفال وهذا متني قد اسود من الضرب » .

ولكن ها هي ساعة الرحيل قد أزفت ، وأم أخيها لا تريد وداعه ونفسها الولهى

(١) لو اجتمع الشعراء جمعاً وعصروا قرائحهم فلن يفلحوا في التعبير عن هذا الموقف كما عبرت عنه زينب بهذه الشفافية وصدق المشاعر وجموحها إلى المرتقى المقصود منه تصوير الحب الأخوي واشتياق الأخت للبقاء بجانب أخيها حتى لو كان جسماً بلا حراك .. وحتى لو أكلتها السباع .

إلى دوام قربه يقلقها تصور التنائي عن حبيبها وتوأم روحها الذي أعزته فأعزها وأغلته في قلبها فأغلاها كما لم يغل أحد غيرها ، وكان يكن لها من الحب مقداراً لا يسعه الكون على رحابته .. فكيف ستطيق اليوم فراقه وغياب وجهه الحنون الذي لن تراه غداً وبعده ؟ .

كان موقف الصابرة ومناجاتها لأخيها يستفز المشاعر فأبكت المتحلقين حولها المنتظرين نهاية هذا الموقف المؤثر .. كانت تقف وعيناها معلقتان بأخيها ، وأخيراً جثت على ركبتيها ومدت يديها تحت الجسد المدمى المرمل بالدم الذكي والتراب القدسي من أرض الشهادة ورفعت رأسه إلى السماء وهتفت ضارعة بقلب خاشع وعيون باكية : « **اللهم تقبل منا هذا القربان**[1] »

لقد بوركت أرض أنت بها قاطن وبورك من فيها وحل بها السعد
فرمالها تبر وسُعدانها[2] ورد ومواضعك شهد وتربته ندُّ

لما حاولت زينب النهوض بأمر من رئيس الجلادين .. خانتها رجلاها ، ولما وقع نظرها على ابن أخيها علي وقرأت على وجهه أسى الدنيا بعد رؤيته لأول مرة ميدان المصرع لطول بقائه في الخيمة عليلاً غير قادر على الحركة .. فقد لهف قلبها جزعاً عليه وهي تراه على هذه الحالة من الحزن ، وكيف لا يحزن وهو يتفرس بأبيه المجزر كأضحية محزوز الرأس مرضوض البدن مثخن بضربات السيوف والنبال ولا معالم تنبئ عن موت طبيعي بضربة أو طعنة .. بل بدا «ع» لناظريه وكأن هؤلاء السفلة المتحلقين حولهم لم يتركوا وسيلة لتعذيبه إلا واستخدموها بكثير من الوحشية

(١) تضرعت العقيلة إلى ربها بأن يتقبل منها جثمان أخيها قرباناً فداء للعقيدة ، وفي ثنايا هذه العبارة تكمن سجايا هذا الخلق الرسالي الذي تربت عليه زينب في كنف بيت النبوة .. وما جبلت عليه من إيمان وتقوى ورضا بتدابير العناية الإلهية فكانت حروف هذه العبارة القصيرة الزجلة كنبض البرق في اشتماله ما بين أقطار السموات ، وقد برهنت متوالية القرون على عظمة هذا القربان ودوره في خلود العقيدة ، وقد أوردت بعض المصادر أن العقيلة قالت : « **اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان** » وورد في ناسخ التواريخ أنها قالت : « **إلهي تقبل هذا قليل من القربان منا أهل البيت** » والعبارات الثلاث تحمل ذات المعنى بصيغ متقاربة لا تحمل أي منها أي معنى مغاير أو مختلف عن الأخرى .

(٢) السُعدان : نوع من الشوك القاسي إذا غرز في الجلد يصعب إخراجه بدون تهتك اللحم لتسنن أشواكه إلى رأس الشوكة وانفلاشها في قاعدتها .

السبعية التي تأبى الوحوش الإتيان بعشرها ، فما كان من عمته الحنون إلا أن قالت له لتصبِّره وتخفف عنه المصاب الذي تتفطر له السماوات وتنشق له الأرض وتخر أمام قسوته الجبال هداً :

« مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ، لا يزعجنك ما ترى فو الله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يُمحى رسمه على كرور الليالي والأيام وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا علواً » .

بعد هذه المواقف التي أججت في قلب العقيلة شوقها لأخيها وأمضَّت نفوس من دُهي بفاجعتها من الحرم والأطفال .. فلا شيء من دواهي الدنيا يعدل هذا الافتراق ولو سالت الأرواح به فوق الدموع ، فالفراق شقيق الموت ، وفي هذه اللحظات المكهربة فقد تحول الموت إلى أخ للفراق .

وعلى زجر ابن قيس وضربه للمودعات إيذاناً ببدء المسير .. نهضت زينب وهي تبكي وتنوح وتحاول الرجوع إلى اعتناق جثمان أخيها ، لكن فرقعة السوط حال دون مبتغاها واعتلت ناقتها ومن فوقها أرسلت لأخيها آخر لواعج قلبها المفطور وكبدها المحرور وهي تتجرع غصصاً أمرَّ من الحنظل ، فقد تقبلت كل مكروه وقع حتى هذه الآونة ، لكن مكروه فراق حبيب عمرها وتوأم فؤادها فراق لا تلاق بعده .. فذلك لم تكن لتقبله بسهولة رغم السياط والزجر ، ولو كان الأمر لها لما فارقت جثمانه مهما اشتدت الخطوب وادلهمت الأحوال ، لكن لا بد لها من مرافقة ركب السبايا الحائرات اللواتي ينظرن إلى المجهول نظرتهن إلى كتاب مغلق .

والقافلة تعرعر بجمالها المعروقة التي تشرئب برؤوسها استعداداً للسرى ، بكت زينب وأعولت وأبكت كل من كان شاهداً على لوعة هذا الوداع ، ومن فوق راحلتها ندبت ندبتها الأخيرة وعيونها شاخصة بالجثمان الغالي على قلبها وهي غير مصدقة

أنها ستفارقه أخيراً ، واستغرقتها إطراقة مفاجئة ولبست بها هنيهات كأنما تتذكر أمراً حجبته سيول الدماء ورابيات الجماجم والأشلاء وأبعدت صداه عن أسماعها قهقهات جبروت البطش وبدوات الأطماع الكبرى التي خلفت في الأنفاس هلعاً نكيراً وإحساساً ملحاً ينبئ بهولٍ غامض تستشعره الأعماق ينذر بويل مجهول ، لكن هذه الإطراقة لم تطل وتتطلع العقيلة بعيون راضية عن هذا المشهد الذي يتبدى لها من علو وتحدق في وجه أخيها المرفوع على السنان وتهبط بنظرها إلى جسده الشريف وتقول : « **أودعك الله عز وجل يا ابن أمي ، يا شقيق روحي ، فإن فراقي هذا ليس عن ضجر ولا عن ملامة ، ولكن يا ابن أمي كما ترى يا نور بصري ، فأقرئ جدي وأبي وأمي وأخي مني السلام ، ثم أخبرهم بما جرى علينا من هؤلاء اللئام** ».

ويتحرك الركب متثاقلاً .. وجلاوزة ابن سعد يتعجلون الوصول إلى سيدهم لينالوا جوائزهم على مقدار رؤوس الطهر التي بحوزتهم ، وتخب الإبل خباً بطيئاً بما يسمح به هزالها ، وتمسك « **أم المصائب** » برأسها وبعد أن اطمأنت على رفقة أفراد الركب وأخيلة من تحب لا تفارقها لحظة .. طيف توأم روحها الشقيق الحبيب وخُلص أصحابه ، ولداها محمد وعون ، رجال عترة الجد «ص» هناك يهجعون في تلك الصحراء المجدبة التي ترتع بها العسلان .. في الفيافي المقفرة ينامون ، فوق مأوى الذئاب ومعازف الغيلان المخيفة مجندلون ، قرب مكامن الوحوش الضارية وخرائب الاستيحاش والرهبة متروكون عراة مرضوضون .

أجزعت أن أزف الرحيل ... ووهت أن نص الذميل[1]
كلاً مُصابك فادحٌ ... وأجل فراقهم جليل
كذب الأُلى زعموا بأن ... الصدِ مرتعه وبيل
لم يعرفوا كنه الغليل ... وقد تُحُملت الحمول
أما الفراق فإنه ... للموت إن أهوى دليل

---

(١) الذميل .. ضرب من سير الإبل .. وهو السير البطيء المتناقل .

الخطاب المذهل

ودَّعتك الله يا جسد حامي الظعينة
ساقوا مطايانا العدا وقـوّه مشينا

ودعتك الله ياذبيح ما احتضى ابماي
عنك ينور العين سافرت ابيتا ماي

يمقطع الأوصال لو يحصل على اهواي
ما فارقت جسمك يسلطان المدينه

ودعتك الله سفرتي صعبة وطويلة
يحجاب صوني ناقتي عجفا وهزيله

محّـد بقي منكم يعقلي نلتجي له
بس العليل وفـوق ناقته امقيدينه

ودعتك الله يا طريح ظل عريان
يا ليت خلّوا لك يخويه اثيابك أجفان[1]

بهذه المعاني كانت نفس زينب «ع» تجيش بذكرى لن تمحوها الأيام والسنون من أعماقها ، ذكرى الضراوة والألم المتصلة بتراب الطف المباركة التي تلقفت دماء أهل البيت الزكية ، وتعطرت بالدم المطلول لبطل ملحمتها الخالدة الحسين «ع» السبط العظيم الذي حطم بنهضته هياكل الأوثان المنضدة وأصنام الضلالة المتخذة لبوساً عدة ، وتحمل العنت القاتل وهو مندفع إلى ميدان كفاحه غير حافل بالأذى ، غير منثن ولا متردد ، واثق من فوزه بخسرانه رغم تأشب الباطل وسورته ، محجم عن الانكماش على خاطر أن يغدو صانع المجد طريد اللحد .

تتفكر زينب وما زاد تفكرها بعد المذبحة التي تسلس قيادة استعادتها لأفكارها

---

(١) من قصيدة على لسان السيدة زينب «ع» من نظم الخطيب الملا عطية بن علي الجمري في كتابه « **الجمرات الودية في المودة الجمرية** » .

حتى لكأنها ترجع الأمس الذي لم يفصل عنه يوم واحد فتخلف شعوراً زاهياً تلفه من نواحيه نشوات العز والفوز ، وتلفعه بلألآت تحوطه من أقطاره الأربعة ، وتنشر أريجه العابق في الأجواء مع أنسام الندى فتطرد أي شعور بالاسترقاق وافتراس الحرية ، وتثبت ذاتية خالدة في سفر العقيدة ، لم تشك العقيلة لحظة واحدة بتدوينه من حبر أخيها المراق أحمر قانياً ، فسفره المحفوظ في لوح العناية الإلهية إبقاءٌ لحياة النبوة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. فيوم الحسين يوم نظر النبوة إلى خلودها في مرآة الزمن ، وعهده المختتم أمس بأعظم تضحية في تاريخ العقائد والأديان .. هو انعكاس لعزة الأنفس التي لا تقر على ضيم ، وغيابه الدامي أين منه حضور الحضرة فلا استسلام كسيفاً ولا صموت طامساً بعده بل عبودية[1] لا تحد لله تعالى الناطق بالأنبياء ومنزِّل الرسالات ومسيِّرالشهداء إلى حتوفهم من أجل رسوخ العقائد وتمددها في النفوس .

والجمِال الأربعون في خبوها بعد اجتياز ركب السبي صحراء القائم وقد اقتربت من مشارِف الكوفة .. حدست زينب «ع» بما سينتظر الركب من المهانة المبيتة حينما تقع أنظار الناس على وضعهم فوق الرواحل بلا وطاء ولا غطاء والإرهاق يعلو وجوههم وغبار المعركة الرهيبة يكسو ملامحهم ويعفر ملابسهم الرثة وكان الغروب قد بدأت تباشيره فأخبر الموكلون على الركب ابن زياد الذي أمرهم بالبقاء على مشارف الكوفة ليوم غد ريثما يستكمل جلاوزة الحكم الأموي مظاهر الزينة ابتهاجاً بانتصارهم وقتلهم الحسين وأهل بيته وسبي نسائه .

في هذا الجو البائس المتردي من الناحيتين النفسية والجسدية .. أنزل أفراد الركب في ناحية مقابل خيام وفساطيط الحرس ، وما أن شاع الخبر في أنحاء الكوفة حتى وصلت جماعات من أهلها تحمل للحرس الأموي القدور والأواني المملوءة باللحوم المطبوخة والأطعمة الكثيرة المنوعة ، حيث فاحت في الأجواء رائحة الطعام وعبرت أنوف نسوة وأطفال أهل البيت فاشتد جوعهم وارتفع بكاؤهم وهم يشتهون كسرة

---

(١) العبودية لله هي الحرية بأوسع صورها .. فلا عبودية مذلة إلا عبودية إنسان لإنسان ، أما العبودية لله فهي تحرير لنفس الإنسان من كافة أشكال العبوديات وإشعار النفوس بذاتيتها وعنفوانها .

خبز يابسة بينما سَفَلة ابن زياد يتمتعون بها لذ وطاب على مقربة منهم ولا يتحننون عليهم بقليل مما يأكلون .

جاءت فضة إلى زينب وقالت لها : « **يا سيدتي إن رسول الله «ص» قال لي :** إن لك ثلاث دعوات مستجابة ، فمضت دعوتان منها وبقيت الثالثة ، فاذني لي أن أدعو الله تعالى يفرجنا في شأن الأطفال ، فرخصتها .. فانتبذت إلى ناحية فيها تل صغير فصلت فيه ركعتين لاستجابة الدعاء ، ثم دعت ، فبينما هي في أثناء دعوتها فإذا قد نزلت من السماء قصعة مملوءة من اللحم والمرق وفوقها قرصان من الخبز وكانت نفحات المسك والعنبر والزعفران تفوح من تلك القصعة ، فكان غذاء أهل البيت والسجاد «ع» والنساء والأطفال منها ومن القرصين ، فكانوا كلما يحتاجون إلى الغذاء يأكلون منها ويشبعون ، ثم كانت القصعة بحالها مملوءة باللحم والمرق وكأنها لم ينقص منها شيء ، فكانت هذه الآية الساطعة والمائدة السماوية موجودة عند أهل البيت «ع» إلى اليوم الذي وردوا فيه المدينة وبعد ذلك فقدت وارتفعت[1] » .

---

(١) قد يجد البعض في هذا النص مبالغة وعجيبة لا تحدث .. فكيف لا وقد حدثت مع عيسى «ع» وهي مدونة في إنجيل متى (٩-١٣) تحت عنوان « **معجزة الخبز والسمك الأولى** » ؟ وقد أوردت بهذا الوصف : ودعا يسوع تلاميذه وقال لهم: « **أشفق على هذا الجمع فهم من ثلاثة أيام يلازمونني وما عندهم ما يأكلون فلا أريد أن أصرفهم صائمين لئلا تخور قواهم في الطريق** » فقال له التلاميذ : « **من أين لنا في هذه البرية خبز يشبع مثل هذا الجمع ؟** »

فقال لهم يسوع : « **كم رغيفاً عندكم ؟** » أجابوا : « **سبعة أرغفة وبعض سمكات صغار** » فأمر يسوع الجمع أن يقعدوا على الأرض ، وأخذ الأرغفة السبعة والسمكات وشكر وكسرها وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ أعطوا الجموع فأكلوا كلهم حتى شبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبع سلال ممتلئة ، وكان الذين أكلوا أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد وفي الأدبيات المسيحية أن القديس الياس الحي الذي يكرمه المسيحيون والمسلمون على السواء باسم « **الخضر** » حينما اضطهده آحاب وإيزابل الشريرين في عقيدته وارتحل إلى البراري والجبال منصرفاً إلى الصلاة والتأمل .. أن أكرمه الله وسخر له طيور السماء والغربان لتأتي له بالطعام والماء طوال ثلاثين سنة أمضاها في الجبال المطلة على ضفاف نهر كريت ، والنبي يحيى بعد أن وبَّخ هيروديا وهيرودس العاهرين والتجأ إلى الجبال قيَّد له الله أسراب الجراد ليقتات عليها طوال فترة اختفائه عن أنظارهما كما أن القرآن الكريم يخبرنا بقصة مريم العذراء وكيف كان رزقها يأتيها من السماء وهي في منسكها الطهري وكذلك بعد ولادتها لعيسى «ع» حينما جاءها الأمر الإلهي بهز جزع النخلة ليتساقط عليها رطباً جَنيا فتأكل وتشرب مما رزقها الله بفضله ، وهذه الأعجوبات قد ورد ذكرها في كافة الكتب السماوية والأدبيات الدينية وغدت إلهاماً دواماً لذوي القلوب المؤمنة ، وتأنيباً مستمراً لأصحاب القلوب الضالة الراتعة في حمأة مكابرتها وانسياقها لهمس الشيطان .

وحل اليوم الثاني عشر من المحرم واستجابت الكوفة لأمر عبيد الله بن زياد الحاكم السادي[1] ، فعلقت الزينات ورفعت رايات النصر وخرج أهلها إلى الشوارع ليعاينوا حصاد خذلهم لسبط نبيهم والتسبب في مقتله وسبي نساء أهل البيت المكرمين وكان ابن زياد قد بث أعوانه ومنافقيه في أرجاء المدينة يشنعون على الركب المقبل من المشارف ويصفونهم بفئة ضالة من الخوارج ، لذا فقد دُقت الطبول ونُفخت الأبواق وقُرعت الصناجات ، وصار الناس يتبادلون التهاني بهذا الانتصار الباهر لزعيمهم الملهم يزيد بن معاوية وجلوازه الحقير ابن زياد .

لكن هذه الفرحة كانت تشوبها بعض المخاوف في نفس ابن زياد إذ كان يخشى تعاطف أهل المدينة مع الأسرى بعد إطلاعهم على حقيقتهم .. لذا فقد هيأ لدخول الركب عشرة آلاف فارس وبثهم في الشوارع وفي الأزقة والسكيك ليكونوا على أهبة الاستعداد لوقوع أية أحداث ليست في الحسبان .

إلا أنه على الرغم من مخاوفه كان مطمئناً إلى أن شيئاً ما لن يحدث .. فممَّ يخاف؟ هل تخيفه مجموعة نسوة لاحول لها ولا قوة مع بعض صبيةٍ صغار وقد طحنت أعصابهم شدة الأحداث وطول المسافة من كربلاء وخلو الركب من الرجال والحماة؟

كان هذا الخاطر قد عبر في خياله ، فرأى في إجراءاته قمة الاستعداد لما يستجد وغاب عنه معرفة نفسية قائدة الركب ابنة الإمام علي ملك البلغاء وابنة المعصومة فاطمة سيدة الشجاعة والكلمات المحاجة ، ولم يدر في خلده ما ستقدم عليه العقيلة من تصرفات وما ستتفوه به من إيضاحات وإزكاء للنفوس .

لما سُمح للركب بالدخول إلى المدينة تحلق الناس يتفرجون عليهم وصار البعض منهم يناولهم الخبز والتمر وهم فوق محاملهم .. فصاحت بهم العقيلة :

---

(١) يصف سيغموند فرويد هذا النمط من المتسلطين بأنهم ذوو غلظة سادية .. وهي الرغبة العارمة في إيقاع الأذى على الآخرين ، وهي مرض نفسي وتربوي خطير يقول عنه فرويد إن التربية السيئة والقدوة الشاذة العوجاء تفعلان فعلهما في نفسية الطفل فيشب على مبادئ القسوة ولا يجد لذته إلا حينما يوقع أذاه على الأبرياء بالذات ، وهذا ما فعله ساديو التاريخ مثل هتلر ونيرون وستالين وهنري الثامن ، وفي زمننا الحديث صدام والقذافي وعيدي أمين وبوكاسا والبشير وكانوا مصابين بجنون العظمة والسادية من الدرجة الأولى .

« **يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام** » وأعقبت كلمتها غاضبة بأخذ ما كان بيدي الأطفال وأفواههم وإلقائه على الأرض .. بينما كانت النسوة المتحلقات حولهن يبكين متأسيات على مهانتهن .

وبينما الجمع يدفعه الفضول للنظر إلى من بداخل المحامل .. إذ ارتفعت ضجة بشكل مفاجئ خالطها لغط من هنا وهناك ، والتفتت زينب فإذا بحملة الرؤوس قد وصلوا يتقدمهم حامل رأس أخيها وكان وجهه يشع جمالاً ونوراً ، وحامله يتلاعب به فيديره مع الرمح يمنة ويسرة .. وكان الناس يشيرون بأيديهم إلى الرأس الشريف ويرددون : « **هذا رأس الحسين .. هذا رأس الحسين** » ولما رأت هذا المشهد المهين نطحت جبينها بمقدم المحمل فانبجس الدم منه وسال من تحت قناعها ، ولما حاذى حامله محملها لوحت له بخرقة[1] وجعلت تندبه قائلة :

يـــاهـــلالاً لمّـــا اســتــتــم كمالا — غـــالــه خــســفــه فـــأبـــدا غروبا
مـــا تـــوهـمــت يـــا شـقـيـق فؤادي — كـــان هـــذا مــقـــدّرا مكتوبا

وحدَّثت المصادر واصفة هذه المواقف الدامعة .. بأن بنتاً صغيرةً للحسين «ع» كانت مع عمتها زينب في محملها ولما رأت رأس أبيها فوق الرمح أخذت تنوح وتناديه : « **يا أبَه .. يا أبه .. كلمني .. أين كنت ؟!** » وسمعت العقيلة سؤال فاطمة البريئة التي لم تكن قد علمت شيئاً بعد من تفاصيل ما جرى .. فرقَّ قلبها وطفقت في البكاء والعويل حينما رأت فاطم اليتيمة منكسرة الطفولة حيرى لعدم رد أبيها على سؤالها ، فتطلعت إلى الرأس المنوَّر ونادت مخاطبة أخاها وكأنه حي[2] :

يـــا أخـــي فاطم الصغيرة كلّمها — فـــقـــد كــــاد قـــلـــبـــهـــا أن يذوبا
يا أخـــي لو تـــرى علياً لـــدى الأسر — مـــع الـــيـــتـــم لا يـــطـــيـــق وجوبا
مـــا أذل الـــيـــتـــيـــم حـــين ينادي — بـــأبـــيـــه ولا يــــــراه مجيبا

---

(١) كان من عادة عشائر العرب المتبعة آنذاك التلويح بخرقة لدى رؤية موكب جنازة الفقيد الغالي .

(٢) يرى العالم الفرنسي «**لوبون**» أن فقد عزيز على قلب المحب يوقعه على الدوام في دائرة شعور يقدح زناد وجده بنار التوقد فيتخيل وجود الغائب بحضور مادي حي فيخاطبه ويستمع له ويجيبه ويسأله ويحاوره .. وهذا ما يسمى بـ « **رجعة الطيف** » وسماها ابن حزم الأندلسي بـ « **الحضرة الشاطبة في كتابه طوق الحمامة** » .

ثم أشارت «ع» للجمع المتراكم فسكنوا وكأن على رؤوسهم الطير ، وهدأت الأنفاس والأجراس ، واندفعت بعد استتباب الصمت ملقية خطابها بثقة رسالية وجسارة حيدرية ، فحمدت الله تعالى وصلَّت على رسوله وقالت[1] :

« أما بعد يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر والخذل ، ألا فلا رقأت العَبرة ولا هدأت الزَفرة ، إنما مَثَلُكم مَثُل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون إيمانكم دَخَلاً بينكم ، هل فيكم إلا الصلف والعجب والشنف والكذب ومِلق الإماء وغمر الأعداء ، أو كمرعى على دِمنة ، أو كفضة على ملحودة ، ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سَخِط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون ، أتبكون أخي؟! أجل والله فابكوا فإنكم أحرى بالبكاء ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد أبليتم بعارها ومنيتم بشنارها ، ولن ترحضوها أبداً ، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ حربكم ومعاذ حزبكم ومقر سلمكم وآسي كلمكم ومفزَع نازلتكم والمرجع إليه عند مقاتلتكم ومِدرة حججكم ومنار محجتكم ..

ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم ، وساء ماتزرون ليوم بعثكم ، فتعساً تعساً ! ونكساً نكساً ، لقد خاب السعي ، وتبت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ..

أتدرون ويلكم أي كبدٍ لمحمد «ص» فريتم .. وأيَّ عهدٍ نكثتم وأي كريمة له أبرزتم وأي حرمة له هتكتم وأي دم له سفكتم .. لقد جئتم شيئاً إدّا تكاد السماوات يتفطَّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا ، لقد جئتم بها شوهاء ، صلعاء ، عنقاء سوداء ، فقماء ، خرقاء ، كطلاع الأرض أو ملء السماء ..

(١) خطبة العقيلة في الكوفة كانت جامعة مانعة شرحت خلالها ما جرى بلهجة تأنيب للجماعة على خذلانهم وقصورهم في نجدة حركة أخيها ، وقد حرصنا على إفراد فصل خاص بهذه الخطبة لأنها والخطبة الأخرى في مجلس يزيد شكلتا حمم البركان اليقيني الذي تفجر بعدهما وعبرتا بأفضل بلاغة وإلهام عن مظلومية أهل البيت ، وظلمة الحسين الشهيد وعترة جده «ص» وبثتا في تربة الضمائر بذرة عودتها من جباب آثامها التي أسقطها فيها حكام استهانوا بالعقيدة وحاولوا اجتثاثها من الصدور .

أفعجبتم أن تمطر السماء دماً ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا يُنصرون ..

فلا يستخفنكم المهل ، فإنه عز وجل لا يحفزه البِدار ، ولا يُخشى عليه فوت الثار كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد[1].

ثم أنشأت تقول «ع» :

مــاذا تقولون إذ قــال النبي لكم — مــاذا صنعتم وأنـتـم آخـر الأمم
بأهل بيتي وأولادي وتكرمتي — منهم أسـارى ومنهم ضُرجـوا بدم
ما كان ذاك جزائي إذ نصحت لكم — أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي
إني لأخشى عليكم أن يحل بكم — مثل العذاب الـذي أودى على إرم

لما وصل ركب السبي إلى دار إمارة الكوفة تداعت إلى ذهن العقيلة ذكريات مضى عليها عشرون عاماً حينما كانت أميرة في هذه الدار مقر الإمام الحاكم أبيها أمير المؤمنين «ع» ترفل ببهاء العز والعظمة وتنعم بالجو الأسري الحميم ، بينما تدخل الآن إلى هذا المكان بعد أن أصبح مسكناً للدعي الزنيم ابن زياد فتحول من دار قدسية إلى دار شيطانية تحاك بها الدسائس وتقاد منها المظالم والانتهاكات .

تعود الذكرى بها إلى تلك الأيام الخوالي حينما كان يجتمع لديها في دار الإمارة نساء الكوفة لتعظهن وتفسر لهن آيات القرآن الكريم وتبين لهن أحكام الدين واليوم تدخل دار عزها الغابر مأسورة مكبَّلة في حال لا تليق بشرفها الرفيع ونسبها التليد وأرومتها المقدسة .

دار غير تلك الدار وقاطنوها غير أولئك الذين اعتز بهم الإسلام ، فكيف إذا كان على رأسهم ظالماً كابن زياد ! وفكرت زينب وهي تعبر مدخل دار عزها الموؤود وتناهى إلى سمعها أصوات أبيها وأمها وأخويها الحسن والحسين «ع» فاهتزت وأثارت التداعيات الذهنية كرجع الصدى وجداً دفيناً بحب دهر مضى وزمن عافى

(١) دخلاً .. الخيانة ـ الشنف .. المبغض ـ الملق .. التذلل ـ الغمر .. الطعن بالشر ـ الدمنة .. ما تدمنه الإبل والأغنام بأبوالها وأبعارها فتنبت بها حشائش ضارة ـ الملحودة .. القبر ـ المدرة .. المدافع عن القوم ـ حفز البدار .. الحث والإعجال .

وآثار دثرت بعد أن حلت الفجيعة بتولية يزيد وأذنابه واعتداء أرباب دولته واستحان أهل بيت جدها بالإرهاب والقتل والإغرام الفادح والأسر المهين.

وعند هذا الحد من الذكرى توقدت لوعتها «ع» وزاد حزنها وتضاعف كمدها وتلفتت حواليها في لحظة من لحظات شجاها وكأن عينيها وقعتا على وجوه من كانوا في هذا الديوان الواسع الذي كانت تدلف إليه لمواجهة ابن زياد بما هي فيه من نبوِّ الدار والخلاء عن موطن العز وتغير الزمان ونكبات السلطان واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد.

لكن العقيلة دلفت إلى مقاصيرها الغابرة مرفوعة الرأس وكأنها لم تغادرها ولم يبرحها عزها وكأن الفتنة لم ترزم وتلقي باعها ليعم الناس ويختص بأهل بيت النبوة النصيب الأكبر والأفدح، فما عرتها رهبة الموقف وراحت في يقظة استغراق واعية مستشفة.

جعلتُ اليأس لي حصناً ودرعاً فلم ألبس ثياب المستضام
وأكثر من جميع الناس عندي يسير صانني دون الأنام
إذا ما صح لي ديني وعِرضي فلست لِما تولى ذا اهتمام
تولى الأمس والغد لست أدري أأدركه ففيها ذا اغتمام

رأيت جميلاً

« **ما رأيت إلا جميلاً** » هذه العبارة التي أجابت بها زينب «ع» على سؤال ابن زياد الشامت حينما أُدخلت السبايا إلى القصر وجيء برأس أخيها «ع» ووضع بين يديه على مرأى من نساء الركب وصبيانه حيث لم يكن ابن زياد يعرفها وهي متَّشحةً بالخمار ، ولما سأل عنها وقيلَ له إنها زينب بنت علي .. أقبل إليها وقال :

- الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم .

قالت :

- إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا .

عقب سائلاً بلهجةٍ شامتة :

- كيف رأيت صنع الله في أخيك وأهل بيته ؟

أجابت والبِشر يطفح فوق جبينها الوضاء :

- ما رأيت إلا جميلاً ، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجَّ وتخاصم فانظر لمن يكون الفلج يومئذٍ ، هبلتك أمك يا بن مرجانة .

حينما سمع اسم أمه ثار غضبه وكأنه همَّ بها ، فقال له عمرو بن حُريث :

- إنها امرأة والمرأة لاتؤاخذ بشيء من منطقها .

قال لها ابن زياد واللؤم يقطر من بين شفتيه :

- لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيته .

ردت بلا توانٍ :

- لعمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن كان هذا شفاؤك فقد اشتفيت .

علق ساخراً :

- هذه سجاعة[1] ولعمري لقد كان أبوك شاعراً سجّاعاً .

ردت :

- يابن زياد ما للمرأة والسجاعة ..؟ وإن لي عن السجاعة لشغلاً ، وإني لأعجب ممن يشتفي بقتل أئمته ويعلم أنهم منتقمون منه في آخرته .

في هذه الإجابة البليغة التي لم تزد على أربع كلمات تتجلى فيها معان عدة أولاها : الفصاحة التي غرفت من البلاغة التي ورثتها عن أبيها أمير المؤمنين «ع» صاحب نهج البلاغة وفيلسوف الإسلام ، وثانيها: الجسارة الأدبية التي تربت عليها في حضن أمها المعصومة فاطمة الزهراء «ع» وثالثها : قوة الحجة التي لاجواب لها والتي ضربت لسان ابن زياد بالعي وأعمت منطقه فحاول مواجهتها لا بحجة ومنطق بل بالغلظة والعنف والهجوم عليها بالسوط لولا منعه من بعض الحضور.

بعد هذا الموقف الصعب الذي واجهته العقيلة برباطة جأش لا تحد .. نظر إليها ابن زياد نظرة ملؤها التشفي فبدا لناظرها كصنم بشري وضيع لا تؤثر فيه الإهانة فقررت أن تجلده بسياط عباراتها البليغة فوجهت له كلامها قائلة :

« **هبلتك أمك يابن مرجانة** »

---

(١) وردت في بعض الروايات « **شجاعة لا سجاعة** » والأصح الثانية بحسب المعنى المراد من العبارة .

إن هذه العبارة تعني ماتعني .. لأن أمه مرجانة كانت من فصيلة النساء المتهتكات ورغم معرفته بمستوى أمه الأخلاقي إلا أنه حاول مجدداً الاقتراب من زينب للاعتداء عليها ، وماكاد يهم لفعلته حتى تصدى له عمرو بن حريث وحال بينه وبين مراده ولما لمس إصراره على أذيتها .. أخذ يدفعه عنها بحدة فامتثل ممتعضاً وهو يردد :

– لقد شفى الله نفسي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك .

يا أيها المتشفي في قتل أئمته — قلبي من الوجد على مثل الحجر
لا بلغتك الليالي ما تؤمله — منها وبل سداك مالح المقر
قوم هم الدين والدنيا فمن — قلاهم فمأواهم إذن سقر
هم نبي الهدى جدٌ وجدُّهم — يوم المعاد بنصر الله ينتصر[1]

نظرت إليه زينب فرأت فيه وغداً خسيساً وأن عليها ترك ملاحاته لأنه راغب في إذلال نساء آل البيت بعد أن قتل رجالهم ، فانطوت على نفسها حزينةً تبكي ما أصابها وتقول :

– لَعَمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثت أصلي ، فإن كان هذا شفاؤك فقد اشتُفيت .

لكن عبارتها المعبرة عن شناعة أفعاله فعلت فعلها مجدداً في خساسة نفسه فلم يترك مكانه حيالها ، ولم يطل غيظه من كلامها حتى تناهى إلى سمعه ماهو أشد بصوت صبي أنهكته العلة يخاطبه أمام الجمع المتحلق بلا أدنى خوف وبكثير من الندية والجسارة :

– يا ابن زياد ، إلى كم تعرِّف عمَّتي لمن لا يعرفها ؟

التفت ابن زياد ناحية الصوت ولما تبين صاحبه مضى إليه مخترقاً تجمع النساء إلى

(١) من قصيدة طويلة للشيخ ابن نما الحلي يصور فيها غفلة ابن زياد عن خطورة ماجرى وتجاهله المتعمد للخطيئة التي ارتكبها بحق سبط نبيه ، وعما ينتظره من عواقب جراء فعلته واستهانته بقدسية أهل البيت «ع» وموجبات احترامهم وتوقيرهم .

أن وقف أمامه وهومكبل محاولاً رؤيته بوضوح من بين الستار الذي ضربته حوله النساء والإماء كيلا يراه .

سأل بغيظ :

- من أنت ؟

قال الصبي :

- أنا علي ابن الحسين

فعاود السؤال :

- أليس الله قد قتل علي ابن الحسين ؟

أجاب :

- قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس .

وبلغ الغيظ بابن مرجانة من مجادلة هذا الصبي المكبل بالسلاسل ، فرد عليه :

- بل الله هو الذي قتله .

فعقب زين العابدين :

- الله يتوفى الأنفس حين موتها .

وهنا لم يعد ابن زياد يطيق صبراًعلى أجوبة الصبي المعلول فنعق كبومة ناعقة :

- وبك جرأة لجوابي ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه[1] .

ما أن وعت العقيلة ما أمر به ابن زياد حتى هبت من مكانها واندفعت مسرعة ناحية ابن أخيها وألقت بنفسها فوقه تحيطه بساعديها ، وحذت النساء حذوها فتحلقن حولها وهي محتضنة زين العابدين ، وأحلن بينهما وبين الحراس الأجلاف في

---

(١) وردت في معالي السبطين

الوقت الذي انطلق فيه صوتها محذراً :

- **يا ابن زياد .. تفجعنا مرةً أخرى ؟ حسبك من دمائنا ، والله لا أفارقه ، فإن رأيت قتله فاقتلني معه .**

كان الموقف صعباً على العقيلة ومرت لحظات قاسية وهي لا ترخي ساعديها من حول ابن أخيها الذي كان يرتجف من علَّة بدنه ، وكان يبدو على ابن زياد التصميم على قتل الصبي لكنه نظر إليه فرآه منهكاً ، فحادث نفسه بأن الصبي موشك على الموت ولا داعٍ لقتله .. بل لتركه يموت بعلته .

وكانت هذه التوترات النفسية خاتمة لتلك المواقف المشحونة بالغضب والتحدي والتي أطلقت شرارتها زينب حينما أجابت ابن زياد رداً على سؤاله الشامت : **مارأيت إلا جميلاً .**

لقد رأت الجمال فيما وقع من مصائب وآلام ، ورأت جميلاً في مشهد ذلك الدم الزكي المراق ، كما رأت جميلاً في مشهد السبي رغم المهانة حينما كانت الرؤوس الشريفة مرفوعة على أسنة الرماح ، ونساء الركب فوق أسنام الجمال بلا وطاء لايسترهن ساتر ، وزين العابدين مكبلاً والاصفرار يكسو وجهه والرجفة تعتري جسده المتهالك .

فكيف رأت العقيلة كل هذا الجمال في هذا الكم الهائل من المصائب والضراوة؟ هذا الجمال الذي لم يره ابن زياد ولا طغمة يزيد الشامتة مما أثار غيظه وحنقه من حيث كان يتوقع أن تطنب زينب وهي منهارة في ندب حظها بينما تتهاطل دموعها وتلطم وجهها وتتذلل له أن يكف عنها أو أن تظل منكسرة صامتة لا تحر جواباً لأن النكبة شلت مراكز الإحساس لديها ، ولكن حفيدة النبي «ص» وابنة علي وفاطمة وشقيقة الحسنين عليهم جميعاً أشرف السلام خيبت أمله وبدا عليها الفخار بما حل بهم وبما احتملوه من ضنك وحزن ومسغبة وعطش وتعب ومهانة .

والجمال الذي رأته العقيلة في مصاب أهل البيت «ع» وفي فقد أخيها وابنيها وعترة جدها «ص» كان ذلك الإشعاع المنبثق من تمام المهمة التي أعدتها لها العناية

الإلهية والتي سيَّرتها لإنفاذها راضية مرضية جنباً إلى جنب مع حبيبها الحسين التي كانت له الأم الرؤوم فاستحقت عن جدارة لقب « **أم أخيها** » .

ولا عجب في هذا المقتضى فقد سبقتها لنيل هذا اللقب أمها المعصومة فاطمة الزهراء التي لقبها أبوها النبي «ص» بـ « **أم أبيها** » لما كانت تتمتع به من حنو وحنان تجاهه حيث قدم بتكريمه لها رسالة إلى ذلك المجتمع الذكوري الذي ولدت فيه والذي كان يكن معزة خاصة للذكور دون الإناث .. فقرَّبها «ص» إليه وكان يهش ويبش في وجهها كلما قدمت إليه ويجلسها إلى جنبه متباهياً معتزاً بها .

إنه الجمال الذي رأته الهاشمية الحوراء في امتثالها الخاضع للمشيئة الإلهية التي رددها أخوها الشهيد قبل خروجه من « **أن الله أراد أن يرى النساء سبايا** » فكان خروجها مع أخيها توطئة لفعل السبي الذي كان به وبما جرى قبله من أحداث حفظ للعقيدة من الإنحراف وضمان لإعادتها إلى صراطها المستقيم الذي وضعها عليه جدها المصطفى «ص» ومثَّل المقتل والسبي ركنا حركة أخيها الباسلة ، لذا فقد رأت بهذا الذي جرى جميلاً .

ولأن الحسين «ع» كان عالماً بمقتله وأهل بيته ، ولأنها «ع» كانت عالمة بما ستؤول إليه الأمور بعد مصرع أخيها والعترة الطاهرة وبما سيحيق بها وبحرم أهل البيت بعدها .. فإن نتيجة ذلك كله لم تكن لترجف أعصابها أو تخرجها عن نهج تربيتها في بيت أبي طالب ، فلم تغلظ في القول والردود والخطب ، بل كانت مثالا وقدوةً لما يجب أن تكون عليه سليلة الرسالة من أخلاق عالية ، لذا فإن ابن زياد لم يتوقع ردها عليه وهي التي لاتزال تعيش تفاصيل المأساة .. وأراد أن يمارس معها مايمارسه عادة الحكام الطغاة من قسوة ممزوجة بوعود الإرهاب النفسي ضد مناوئيهم إذا لم يستكينوا لإيحاءاتهم وتهديداتهم المبدئية ولكن هيهات أن تثمر هذه الوضاعة مع العقيلة ، ولو كان ابن زياد ممن تلفتهم معاني التربية الرسالية ولو كان لحظة انفجار غيظه أمام زينب قد تنبه إلى ماتهدف إليه بنت علي من رغبة في فضحه وأسياده لكان توارى خجلاً إذا لم يكن خوفاً وهو العارف من تكون ربيبة الإمام علي ، ولو كان لديه ذرة من حصافة أو مخيلة تربط النتائج بالأسباب لما تجاسر على طرح سؤاله الشامت أمام

هذه اللبوة ، ولكان جنَّب نفسه سماع العبارة التي صفعته من حيث كان لا ينتظر «**مارأيت إلا جميلاً** » و « **ثكلتك أمك يا ابن مرجانة** » هذه العبارة المهينة ولكن أنَّى له أن يتفهم ويعقل وقد نالها من الحوراء قاسية أطاحت بهيبته الزائفة في أعين من كان شاهداً لهذه المحاججة غير المتكافئة بين غذية بلاغة أبيها علي «ع» وبين ركاكة عقل ولكانة لسان مجسد الغلظة والغباء ابن زياد الذي لم يردعه عن محاولة ضرب منازلته بالحجة إلا تدارك عمرو بن حريث محاولاً إخماد حمم غضبه بعد رؤيته مهزوماً أمام امرأة .. وأي امرأة ..؟ أسيرة لاحول ولا قوة لها حيال بطشه : « **أصلح الله الأمير إنما هي امرأة .. وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها ..؟ إنها لاتؤاخذ بقول ولا تلام على خطل**[1] » .

وبدا أن هذه العبارة وجد فيها الزنيم مخرجاً من مأزقه بعد أن أفصحت زينب وأبلغت وأخذت من الحجة حاجتها .. فقال لها شبه مستسلم : **إن تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً**[2] .

وبهذه اللكانة التي اشتهر بها أراد ابن زياد التخلص من ورطته حينما تأكد له عزم سليلة الإباء حامية حرائر أهل البيت للمضي في تحديه بعظيم جَلدها وفيض كبريائها ومكنون رسالتها الإعلامية التي ضحت لأجلها ، وها هي مهمتها الرسالية تسير في طريقها المرسوم تحملها بين أضلعها كما تحمل قلباً صنواً لقلب أبيها في معمعة صولاته ، وتوأماً لقلب أخيها الحسين الذي قارع سمر الرماح وبيض الصفاح فما استكان على مِرَّة الضيم وخسرمعركة الطف ليربح الإسلام الحرب بقربان جسده المقدس وجسوم أهل البيت الطاهرة ، وهاهي زينب العقيلة العالمة غير المعلَّمة غذية فصاحة بيت القدسية تعلنها مدوية جزلانة وقد عصفت بقلبها نشوة النصر الذي رنت إليه مع أخيها ، وبلغت التضحية من أجل عقيدة الجد مرقاتها ، وهاهي القلوب قد فتحت لموحياتها على مصراعيها ، وبدأ ضباب الضلالة ينقشع عن الأبصار

(١) الطبري : محمد بن جرير .

(٢) الكامل في التاريخ للمبرد .

فتتنادى القلوب وتهتف زافرةً بالحق ، وهي «ع» ماضية براية ثورة أخيها ، رافعةً إياها فوق رؤوس الخلائق بما علق عليها من الدماء الزكية غير عابئة برياح الكروب تعصف من حولها محاولة إيقاعها قبل بلوغها نهاية الطريق .. ولكن هيهات أن يسقط هذا الطود الشامخ الذي مازادته المحن والمهانة إلا ثباتاً ورسوخاً ، وازدادت الراية المتشقة بيد العقيلة خفقاً وعلواً كلما زمجرت الأعاصير مهددة بإسقاطها أو بإضعاف عنفوانها الهادرة به .

وبقولتها الخالدة : « **مارأيت إلا جميلاً** » لخصت العقيلة معطيات ملحمة الطف بما خلفته من جمال لعين رسالية بصيرة ما دامت دروب الآلام كلها تفضي إلى صومعة عقيدة يجب أن تصل متلألئة إلى الأعقاب والذراري بعد أن تصلها أصداء تلك الوثبة الشجاعة من سجون التسلط التي حطم قضبانها أخوها الحسين بمؤازرتها المؤثرة فيلمح من هذه الأصداء تلك الأطياف القدسية تستميت دفاعاً عن الحق الإلهي ويصلها عبق تلك الأطياب المسفوحة على رمال الطف .

طيب الوثبة الشجاعة لسيد الشهداء .. ومسك الدم القدسي المراق فوق رمال مصارع أهل البيت الكرام «ع» وشذى عطر ذاك العرق الصبيب من الأجساد الطاهرة في مجالدتها الظلمة إخوان الشياطين وجلاوزة الأفك ، وحرارة دموع الحوراء على محنة أخيها المطوق بوحوش الضلالة وعذابات الظلم وهو يطلق صرخته التي رددتها الأزمان والأكوان في فضاءات البشرية « **أما من مغيث يغيثنا** » لتهفو إليها القلوب خاشعة من رهبة انبعاثها من فوق تلك الأرض الخلاء باعثة في الأنفس مشاعر لاتوصف لتستسلم في النهاية لهذا الفيض الزاخر من الطيوف المقدسة والطيوب الزكية تخلف بعد مرورها صوراً تخيلية فائقة المذاق والعذوبة ، مؤطرة بقوس قزحي من الهيوليات الروحية للرسالة المظلومة التي تبث النشوة في القلوب والسكينة في الصدور الملتاعة .

«ما رأيت إلا جميلاً »

هذه العبارة التي يحار الفكر البشري في الإحاطة بمعانيها العميقة ، والتي كانت

موضوع محاورة بين مجموعة من العلماء والأكاديميين وكنت مشاركاً فيها على مدى ساعات طويلة .. بحاجة إلى مجلدات لتستوعبها .. إذ تعدت مايمكن لعلم النفس من استيعابه .. ولمنطق البلاغة من اللحاق به وتفسيره[1].

وحقٌ للحوراء أن تفرح وتغرد بجمال ما رأت .. ولِمَ لا إذا كان في ذبح أخيها صون لدين جده .. وكيف لا تبتهج وترى المشهد وردياً كلما نظرت إلى رأس أخيها ورؤوس أهل البيت الكرام على أسنة الرماح وحولها هالات من نور وإشعاع تعلن في مرتفعها فوق الرؤوس أصالة الموقف الرسالي ، وترسل رسالة واضحة لأعداء العقيدة ومن آزرهم في سدرة غيهم .

فرحها السماوي الذي أعلنته بعبارتها الشهيرة كان امتناناً وشكراً لجميل العناية الإلهية التي أهلتها لهذا الدور الجلل في مسيرة دين جدها المصطفى «ص» وأعانتها على إتمامه رغم ضعفها الراهن وهي تعبة وفي حالة يرثى لها من الإرهاق والحزن والألم والثكل ، وقد نسيت كل هذه الآلام التي تبثها هذه المواقف المهينة في أعتى الرجال حينما كان يراودها خاطر ارتداد الضمائر وعودتها من صحراء تيهها إلى حظيرة النبوة وهو ماكان يعول عليه أخوها عندما ثار وانتفض ، وتسمو بمواقفها وخطابها رافعة رأسها الشامخ بالحكمة والرفعة رغم قيدها مع الأسارى ، وترى جميلاً في وقفتها الخالدة التي لم يسجل التاريخ شبيهاً لها لاسيما حينما واجهت يزيد وقرَّعته أمام الجمع وشفت نفسها من أفعاله وسجلت ظلمه لأهل البيت الكرام في حكم بليغة ستتناقلها لاحقاً الأجيال وتصبح دستوراً لمحاكمة ذلك الحاكم الغشوم وكلٍ من شابهه ، إذ حينما تنيخ العماوة الإيمانية على النفس فما أسهل سقوطها لدى أقل هفوة ، وهذا مارتبته المشيئة العليا لزينب من دور في تسلسل الملحمة التي كانت فيها شاهدة عيان وكان لزاماً عليها أن تكمل مابدأته منذ خروجها مع أخيها حتى

(١) تشرفت بالمشاركة في هذه الندوة التي عقدت في دمشق عام ٢٠٠٦ حيث دارت على مدى أربع ساعات حول معنى كلمة العقيلة « **مارأيت إلا جميلاً** » وما احتوته كلماتها الأربع من حس رسالي فريد حوَّل المصائب والأهوال التي تعجز عن حملها الجبال إلى شعور بالجمال والرضى بتبعاته .

اللحظات الأخيرة فوق أرض المصارع ورفعها لجسده الطاهر المحزوز الرأس وهتافها ضارعة لربها :

« **رب تقبل منا هذا القربان** » .

وبنفس راضية مرضية رأت جمالاً[١] لايحد في هذا المشهد الختامي الدامي الذي أنهى المجالدة الميدانية ، واستعدت لما تبقى من دورها الإعلامي العظيم الذي سوف يفضح أعداء الله ورسوله وأعداء أخيها السبط الشهيد والمتربصين بأهل البيت الكرام عند كل عطفة وزاوية .

فرح بما احتوته ملحمة خلود العقيدة من مصائب وإحن ودموع تحولت كلها إلى قوس قزح جماليات أمام عينيها بعد أن هدأت حناياها بنجاحها الساحق في دورها الكبير .. فحق لها أن تفرح وأن ترى الجمال بما جرى لها ولأخيها وتحسبه مكافأة إلهية لإخلاصها النادر لنداء السماء .

ومارآه[٢] ابن زياد وأشباهه ومايراه كل من فرغ قلبه من نور الإيمان في ملحمة الطف من أنها انتقام إلهي وعقاب سماوي لمن قام بها .. كانت زينب ترى عكسه ببصيرتها الرسالية وهي من سماها جدها المصطفى «ص» وتعهد أبوها علي «ع» غرس شمائل أهل البيت في نفسها الغضة وسقاها رؤيتهم الخاصة للمصائب في سبيل العقيدة .. أوليس هو القائل بعد طعنة ابن ملجم المسمومة « **فزت ورب الكعبة** » أفليست هذه رؤى أهل البيت في مصائبهم .. فوز بالموت وجمال في المصارع ، فكيف سيكون غير ماكان من نور بصيرتها ورؤاها للأمور والأحداث بغير مارأت وكيف كان وسيكون لو لم يكن ما كان ؟

إنها حقاً معادلة عسيرة الفهم على عقول من فقدوا بصيرة الإيمان .. كينونة الحياة

---

(١) بمناسبة عاشوراء عام٢٠١٠ تشرفت بتقديم ثلاث حلقات تلفزيونية عن السيدة زينب «ع» صورت في حرمها الشريف في سوريا .. وقد ركزت في إحداها على عبارتها الخالدة « **مارأيت إلا جميلاً** » وقد عرضت الحلقات في تلفزيون المنار في الأيام الأولى بمناسبة عاشوراء من ذلك العام .

(٢) لم تبُن لناظره ، ومثله لايفهمها « **فما يعقلها إلا العالمون** » .

في الموت ، والسطوع في الإنطفاء ، والجميل في القبح ، والسعادة في الثكل ، لكن الأمور بخواتيمها وقد تجزى النهايات خيراً عميماً بخلاف ما أظهرته البدايات من موحيات للعقول باحتمالية شرها .

وهكذا كان وتدخلت العناية الإلهية مجدداً لتكمل المشهد المرتب من قبلها فأعمت بصائر الأمويين ودفعتهم لإتيان هذا العهر العقائدي والأخلاقي بتسيير ركب السبي ونساء أهل البيت الكرام حاسرات الوجوه فوق أسنام الجمال ، ولو أنهم أخفوهم في محامل مغلقة تحجب ما بداخلها سدول كثيفة ثم قادوهم إلى سجون يزيد.. لما كان تسامع أحد بما جرى .

ولكن الأطماع التي حركت تلك الفئة الباغية فضحت[1] أصحابها برفع رؤوس عترة البيت الكرام فوق أسنة الرماح وكشف وجوه النساء المكبلات مع عليل الصبية ، فرأى مسلمو الولايات والدساكر والثغور في ذلك المشهد صور المأساة التي تغني عن الوصف .. فكيف إذا صاحبت هذه المشاهد صرخات ابنة الفصاحة وربيبة بلاغة علي «ع» لتزرع في تربة النفوس بذرة الإستنكار والتمرد تمهيداً لثورة لاحقة لا تبقي ولا تذر ؟.

إنها حقاً تجليات العناية الإلهية التي دفعت بالسيدة زينب لمرافقة أخيها إلى مطارح مصرعه لتعود ببذور الثورة لتزرعها في كل تربة واعدة بالأزهار والقطوف الدانية فكان حق لها الفرح والسعادة وأن ترى في كل ماجرى عناصر جمال يتعلق بالعقيدة التي كانت مرمى حركة أخيها ومحور صرختها الإعلامية المسندة بدعم إلهي .

« ما رأيت إلا جميلاً »

حقاً كان ذلك لأن كل الذي جرى عاد بالوبال والدمار على من تسبب به من بني أمية ، وزاد رسوخ عقيدة جدها «ص» في الصدور ولم يذهب بدم أخيها والدماء

(١) للألماني ماربين قول ذكر فيه : « **بعد وقعة كربلاء انكشفت سرائر الأمويين وظهرت قبائح أعمالهم وانتشر الخلاف على يزيد وبني أمية ، وماكان يجرؤ إنسان قبل كربلاء أن يجهر بتقديس علي والحسين ، وبعدها لم يكن للناس من حديث إلا في فضل العلويين ومحنهم ، حتى في مجلس يزيد كان يذكر الحسين وأباه بالتقدير والتعظيم** » .

الزكية التي فدته هباء منثوراً فوق رمال الطف ، بل أعلت منازلهم ومراتبهم عند الله والمؤمنين ، فكان ما جرى حقاً هو الجمال بعينه متجسداً بقدر ما حمل من سمو المعاني وما احتوى من عظيم الأهداف .

وثواكل في النوح تسعد مثلها — أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا
ناحت فلم تر مثلهن نوائحا — إذ ليس مثل فقيدهن فقيدا
لا العيس تحكيها إذا حنت ولا — الورقاء تحسن عندها ترديداً
أن تنع أعطت كل قلب حسرةً — أو تدع صدعت الجبال الميدا
نادت فقطعت القلوب بشجوها — لكنما انتظم البيان فريدا[1]

* * *

(١) قصيدة للشاعر هاشم الكعبي يصور فيها سعادة العقيلة بالمشاعر التي خلفتها الملحمة .

الفصل الرابع

صرخة أكملت مسيرة

المواجهة التاريخية

اصطف الجند في بلاط الغاشم يزيد استعداداً لقدوم من يملك سلطنة البلاد وصفت قناني الخمور على الطاولات ، ووراءها جلس الجلاوزة والحرس شاهرين رماحهم وسيوفهم في استعراض لأبهة الملوكية وتضخيم لهيبة السلطان ، وتجمع خلف هؤلاء رعاع القصر وصحبهم من مشردي المدينة والسوقة والنخاسين وكان الجميع بشوق لمشاهدة منظر يبعث التشفي في نفوسهم بعد أن تناهت الأخبار بوصول رؤوس العترة المطهرة بحراسة زهير الجعفي ، وكذلك ركب السبي للعائلة النبوية بعهدة ثعلبة من عائدة قريش ، والكلب الأبرص شمر بن ذي الجوشن ذابح السبط الشهيد ومحتز رأسه الشريف من القفا .

وكان الجمع يتناقل الروايات بهمس عن الركب الموثق بالحبال فوق أقتاب الجمال والذي وصل إلى الشام أمس بعد احتجازه لأيام على مشارفها ريثما تتم مظاهر الزينة والفرح في الأسواق ودوائر الحكومة .

ويتداول الحاضرون إخبار بعضهم البعض عن هذه المظاهر فيصفها أحدهم لرفاقه بأنها فاخرة مزوقة بالحلي والحرير والديباج والدمسق والذهب وأنواع الجواهر من الفيروز والعقيق والأستبرق على شكل لم تره عين من قبل ولا من بعد ، وقد خرج الأصاغر والأكابر الشيب والشبان والأمراء والوزراء واليهود والمجوس والنساطرة وكل الملل في الشام إلى التفرج على هذا الموكب الغريب واستقباله بالصنوج والطبول

والدفوف والمزامير والطنابير وحلل الطبخ النحاسية يضرب عليها بملاعق ضخمة فتحدث صدى يطرب له المتفرجون في كرنفال لم تشهد له الشام مثيلاً من قبل فالجميع عليهم الفرح[1] في هذا اليوم الأغر الذي طال انتظاره ابتهاجاً بإبادة الطغمة الخارجة على إمام زمانها كما وقر في أذهانهم جراء الدعاية المضللة المسمومة التي صورتهم للعامة على هذا النحو .

كان الجميع بانتظار يزيد الأحمق الجاهل الذي طيرته فرحاً رؤية طابور سبايا أهل البيت المطل على جيرون ، ورؤوس العترة الطاهرة فوق أسنة الرماح ، بينما تداول الناس شِعره الشامت لحظتها :

لما بدت تلك الحمول وأشرقت ... تلك الرؤوس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت : قل أولا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

وأخيراً وبعد أن شبع القوم من سرد الحكايا والتلذذ في تضخيمها وروايتها بما يبعث على سرورهم .. إذ بالزنيم الشمر برفقة صنوه في النذالة محفر بن ثعلبة العائدي يقدمان للفاجر يزيد الهدية التي انتظرها طويلاً .. وانتظراها هما طمعاً في الجائزة وكان البلاط الأموي ساعتها قد ضاق بالجموع التي تقاطرت على القصر بعد أن سمح لها بالدخول لمشاركة الخليفة يزيد فرحته بالنصر المؤزر .. فما كان من الشمر إلا أن وضع رأس سبط نبيه في طست أمام معلمه الذي استرخى فوق متكأ جبروته وأمسك بمخصرة وأخذ ينكت[2] ثنايا أبي عبد الله ويردد :

لقد لقيت بغيك ياحسين .

كان سيل الشماتة منهمراً وكان يزيد يسأل جلاسه ضاحكاً : أتعرفون من هو صاحب هذا الرأس ؟ ثم يتمادى أكثر حينما ينقل نظره من فوق الرأس الشريف

(١) روى سهل بن سعد الساعدي مارآه من استبشار الناس بقتل الحسين ، بقوله : خرجت إلى بيت مقدس حتى توسطت الشام ، فإذا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار ، وقد علّقت عليها الحجب والديباج ، والناس فرحون مستبشرون وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول ، فقلت في نفسي : إن لأهل الشام عيداً لانعرفه ، فرأيت قوماً يتحدثون فقلت لهم: ألكم بالشام عيد لانعرفه ؟

(٢) حياة الإمام الحسين «ع» ٣ : ٣٩٦

ناحية جلاوزته ويتساءل بدهشة ممزوجة بالسخرية: ماكنت أظن أبا عبد الله قد بلغ هذا السن وإذا لحيته ورأسه قد نصلا من الخضاب الأسود .

ويعاود التفرس في وجه الحسين ثم يهز رأسه عجباً وهو يقول : « **ما رأيت مثل هذا الوجه حسناً قط** » .

وبعد استغراقه في فرحة التشفي .. أخذ يوسع ثغر الحسين «ع» بالضرب وهو يقول : إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام :

أبى قومنا إن ينصفونا فانصفت قواضب في إيماننا تقطر الدما
نُفلِّقن هاماً من رجال أعزَّة علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

هذا المشهد أثار حمية أبو برزة الأسلمي فسأل يزيد بحدة : أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين .. أما أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله «ص» يرشفه أما أنك يايزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك .. ويجيء هذا _ وأشار إلى رأس الحسين _ ومحمد شفيعه[1] ؟ .

الحفل الشائق الذي أعده الطاغية لايزال مستمراً والكل في انتظار أجمل فقراته وها قد حان الوقت ليكافأوا على انتظارهم الشغوف .. وها هي طلائع السبايا قد برزت من باب الساحة الواسع.. نساء وصبية موثقون كالأنعام الواحد إلى الآخر فكان الوثاق المشدود إلى عنق الإمام زين العابدين موصولاً إلى عنق زينب ثم يمتد إلى بقية أعناق بنات رسول الله «ص» وكان الموثقون يتعثرون في المشي فتنهال السياط على رؤوسهم وظهورهم بينما الجمع يهلل ويصفر فرحاً بما يعرض أمامه من مشاهد المهانة والتشفي في آن واحد ببقية العترة المقدسة ، ولما أوقف طابور المخدرات أمام متكأ يزيد .. التفت زين العابدين وسأله بجسارة : « **ما ظنك برسول الله لو رآنا على هذه الحال ؟** ».

تظاهر يزيد بالتأثر[2] بينما بكى جميع من كان في المجلس ، وبعد قليل أجاب :

---

(١) تاريخ ابن الأثير

(٢) معالي السبطين ص ١٥٥ _ الاحتجاج للطبرسي ٢٤_٢٥

- قبح الله ابن مرجانة ، لو كان بينكم وبينه قرابة لما فعل بكم هذا .

ثم أردف موجهاً كلامه للإمام بتشفٍ قاسٍ : إيه علي بن الحسين .. أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به مارأيت .

لقد ظن الطاغية أنه قد امتلك حجة المحاججة التي لاتبارى ولكن أنّى له ذلك وهو خدين الجهل والتفاهة وربيب القرادين والفهادين والنساطرة ، وما نصيبه من الغلبة في البلاغة حيال ربيب الفصاحة والطلاقة والذي أجابه بهدوء وروية : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور .

أغضب هذا الرد طاغية الشام فتململ في مجلسه وقال للإمام محتداً : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

لكنه ماكاد يعي قوله حتى صفعه الإمام برد مفحم أخرسه : هذا في حق من ظَلَم لا في حق من ظُلم .. ثُم أزور عنه ولم يكلمه ازدراءً به .

بعد حواره مع الإمام زين العابدين بدا جزلاً فرحاً وهو يعيش لحظات التشفي والنصر .. ومالبث أن أظهر أمانيه في أن يشاركه قتلى أهل بيته مهرجان الأخذ بالثأر من النبي في إهانة ذريته .. ثم طفق يترنم بأبيات[1] بصوت جهوري تعمد أن يصل لآذان جميع الحاضرين :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا : يايزيد لاتشل
قد قتلنا القوم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

---

(١) من قصيدة لابن الزبعري كان يزيد يرددها دوماً في مجالسه لإظهار شماتته بأهل البيت «ع» وإنكار نزول الوحي ، وقد ذكر بعض المؤرخين القدامى كالخوارزمي وابن أبي الحديد في شرح النهج ص ٣٨٣ وابن هشام في واقعة أحد ، أن عدد الأبيات ستة عشر بيتاً وليس فيها ماذكره ابن طاووس إلا الأول والثالث ، وكان عجز الثالث في روايتهم « **وعدلنا ميل بدر فاعتدل** » وفي روايات أبي علي القالي في الأمالي ص١٤٢ والبكري في شرحه ص٣٨٧ : « **وأقمنا ميل بدر فاعتدل** ».

ما أن طرقت هذه الهلوسات أذن العقيلة زينب حتى هبت منتصبةً أمامه مسفهة أحلامه مبرزة لجهالته وضحالة تفكيره مصورة له مآله الشنيع في مقبل أيامه ، فلم يسمع مثلها خطيباً ولم تشابه فصاحتها فصاحة ورباطة جأشها رباطة جأش في وجه هذه المخاطر المحيطة بها إحاطة السوار بالمعصم ، واحتمالات الفتك بها وبما تبقى من أبطال الملحمة بإشارة من إصبع الطاغية .

لكن سليلة الإباء والجسارة الطالبية لم يهتز لها جفن ولم يرتج لها لسان وهي تقف أمام طاغية أمية المرعب لتعيده إلى حجمه ولتبدو حياله عملاقة بصلابتها وإيمانها حيث يراها الجميع ويعجب من جرأتها وهي المرأة المكلومة المرهقة التي أجملت موقفها ونظرتها ليزيد بعبارة : « **وإني لأستصغر قدرك** » أغنت عن كل شرح وإطالة حينما قذفتها في وجهه الصنمي .

قد أسروا من خصها بآية التطهير رب العرش في كتابه
أن ألبست في الأسر ثوب ذلة تجملت للعز في أثوابه
ما خطبت إلا رأوا لسانها أمضى من الصمصام في خطابه
وجلبت في أسرها آسرها عاراً رأى الصغار في جلبابه
والفصحاء شاهدوا كلامها مقال خير الرسل في صوابه[1]

فهل سجل التاريخ موقفاً كهذا .. امرأةٌ ضعيفة نُكبت بأخيها وولديها وأهلها وامتطت جملاً لمسافات لاتُحصى ، وطُوقت بالحرس والسيوف .. تصيح في وجه الحاكم بهذه العبارة المهينة وتصفه بحزب الشيطان وابن الطلقاء ؟

إلا أن العقيلة فعلتها وهزت مجلس يزيد بما جاء في خطبتها التاريخية التي نجد لزاماً عرضها بكامل سطورها نظراً لأهميتها التاريخية والعقائدية كي يطلع عليها وعلى معاني بعض كلماتها البليغة التي قد تستغلق على العامة ، وأيضاً تحليلنا المتواضع لها برؤية موضوعية لمن يتيسر له الإطلاع على كتابنا هذا .

---

(١) أبيات من نظم الشاعر مهدي بن داوود الحلي تعبر عن رباطة جأش زينب «ع» في أشد المواقف صعوبةً ، وهي الأسيرة المغلوبة على أمرها حيال سلطان دموي .

ومما قالته عقيلة بني هاشم سليلة الأصل الشريف ليزيد خسيس الأصل والأرومة والتربية مصغرةً قدره أمام الحضور :

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على جدّي سيد المرسلين . صدق الله سبحانه كذلك يقول : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوئى أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون » ..

أظننت يايزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض ، وضيقت علينا آفاق السماء فأصبحنا لك في إسار نساق إليك سوقاً في قطار ، وأنت علينا ذو اقتدار إن بنا من الله هواناً ، وعليك منه كرامةً وامتناناً ، وأن ذلك لعظم خطرك وجلالة قدرك فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك ، تضرب أصدريك فرحاً ، وتنفض مذرويك مرحاً ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور لديك متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وخلص لك سلطاننا ، فمهلاً مهلاً ، لاتطش جهلاً ، أنسيت قول الله عز وجل :

« ولايحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادو إثماً ولهم عذابٌ مهين » .

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، وصحلت أصواتهن ، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهن أهل المناقل ، ويتبرزن لأهل المناهل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والشريف والوضيع ، والدنيء والرفيع ، ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حمي ، عتواً منك على الله ، وجحوداً لرسول الله ودفعاً لما جاء به من عند الله ..

ولاغرو منك ولاعجب من فعلك ، وأنّى ترتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء ونبت لحمه بدماء السعداء ، ونصب الحرب لسيد الأنبياء ، وجمع الأحزاب وشهر الحراب وهز السيوف في وجه الرسول «ص» أشد العرب لله جحوداً وأنكرهم له رسولاً وأظهرهم له عدواناً وأعتاهم على الرب كفراً وطغياناً ؟..

إلا أنها نتيجة خلال الكفر ، وضب يجرجر في الصدر لقتلى يوم بدر ، فلا يستبطئ

في بغضنا أهل البيت من كان نظره إلينا شنفاً وإحناً وأضغاناً ، يظهر كفره برسول الله ويفصح ذلك بلسانه وهو يقول فرحاً بقتل ولده وسبي ذريته ، غير متحوِّب ولا مستعظم ، يهتف بأشياخه :

لأهـلـوا واسـتـهـلـوا فرحاً ولـقـالـوا يـايـزيـد لاتشل

منحنياً على ثنايا أبي عبد الله وكانت مقبَّل رسول الله الصلاة عليه وآله وسلم ينكتها بمخصرته وقد التمع السرور بوجهه ..

لعمري لقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دم سيد شباب أهل الجنة وابن يعسوب الدين ، وشمس آل عبد المطلب ، وهتفت بأشياخك وتقربت بدمه إلى الكَفَرة من أسلافك ، ثم صرخت بندائك ، ولعمري لقد ناديتهم لوشهدوك ووشيكاً تشهدهم ولن يشهدوك ، ولتود يمينك ـ كما زعمت ـ شُلَّت بك عن مرفقها وجذَّت ، وأحببت أمك لم تحملك وإياك لم تلد ، حين تصير إلى سخط الله ومخاصمك رسول الله «ص» ..

اللهم خذ بحقنا وانتقم من ظالمينا واحلل غضبك على من سفك دماءنا ونقض ذمارنا وقتل حماتنا وهتك عنا سدولنا ..

وفعلت فعلتك التي فعلت ، وما فريت إلا جلدك ، وماجزرت إلا لحمك وسترد على رسول الله بما تحملت من دم ذريته وانتهكت من حرمته ، وسفكت من دماء عترته ولحمته ، حيث يجمع به شملهم ويلم به شعثهم وينتقم من ظالمهم ويأخذ لهم بحقهم من أعدائهم ، فلا يستفزنك الفرح بقتلهم « **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله** » ..

وحسبك بالله ولياً وحكماً ، وبرسول الله خصماً ، وبجبرائيل ظهيرا ..

وسيعلم من بوأك ومكنك من رقاب المسلمين أن «**بئس للظالمين بدلاً** » وأيكم شرٌ مكاناً وأضل سبيلاً ..

وما استصغاري قدرك ، ولا استعظامي تقريعك توهماً لانتجاع الخطاب فيك

بعد أن تركت عيون المسلمين به عبرى وصدورهم عند ذكره حرَّى ، فتلك قلوبٌ قاسية ونفوسٌ طاغية وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول ، قد عشش فيها الشيطان وفرَّخ ، ومن هناك مثلك ما درج ..

فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء وأسباط الأنبياء وسليل الأوصياء بإيدي الطلقاء الخبيثة ونسل العَهَرة الفَجَرة ، تنطف أكفهم من دمائنا ، وتتحلب أفواههم من لحومنا ، تلك الجثث الزاكية على الجبوب الضاحية ، تنتابها العواسل ، وتعفرها أمهات الفراعل ، فلئن اتخذتنا مغنماً لتجدننا وشيكاً مغرما ، حين لاتجد إلا ماقدمت يداك ، ومالله بظلام للعبيد . فإلى الله المشتكى والمعول ، وإليه الملجأ والمؤمل ..

ثم كد كيدك واجهد جهدك فوالله الذي شرفنا بالوحي والكتاب والنبوة والإنتخاب ، لا تدرك أمدنا ولا تبلغ غايتنا ، ولا تمحو ذكرنا ، ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد ؟ يوم ينادي المنادي : ألا لعن الله الظالم العادي ، والحمد لله الذي حكم لأوليائه بالسعادة ، وختم لأصفيائه بالشهادة ببلوغ الإرادة ونقلهم إلى الرحمة والرأفة والرضوان والمغفرة ..

ولم يشقَ بهم غيرك ولا ابتلي بهم سواك ، ونسأله أن يكمل لهم الأجر ويجزل لهم الثواب والذخر ، ونسأله حسن الخلافة وجميل الإنابة ، إنه رحيم ودود وهو حسبنا ونعم الوكيل[1]» .

لقد شكل خطاب العقيلة زينب «ع» منعطفاً جذرياً حاداً لثورة أخيها ، وشكلت بلاغته الفائقة صفعة خزي وعار ليزيد ، وقد حرصنا على إفراد هذا الفصل الخاص

---

(١) شمخت بأنفك .. رفعته تكبراً ، نظرت في عطفك .. جانب البدن ، تضرب أصدريك فرحاً .. حركت رأسك إعجاباً وتنفض مذرَوَيك مرحاً .. جئت مهدداً ، ابن الطلقاء .. ابن قريش أفرج عنهم النبي «ص» ، المناقل .. دروب الجبل المناهل مكان ورود الماء ، جمع الأحزاب .. جيش أبي سفيان لغزوة الخندق ، ضب يجرجر .. حقد خفي ، الشنف والشنآن شدة الحقد ، نكأت القرحة .. قشرتها بعد برئها ، الشأفة .. إزالة الأصل ، يعسوب .. ملكة النحل ، انتجاع الخطاب .. احتمال التأثير ، تنطف ، تسيل ، تتحلب .. تسيل بقوة ، الجيوب .. وجه التراب ، العواسل .. الذئاب ، الفراعل .. جرو الضبع يرحض .. يغسل ، جمعك بدد .. تفرق ، الإنابة .. الرجوع إلى الله ، سوَّل لك .. زيَّن عملك .

به لأنه من أبلغ خطبها بعد الملحمة ، ويعتبر خاتمة لخطبها المؤثرة مذ ترك ركب السبي أرض الطف متجهاً إلى دمشق ومروره بالولايات والدساكر وتصديها «ع» لمهمة استنهاض الضمائر التي ركنت إلى المسايرة والخنوع ، ولم تحركها مفاسد الحكم ومظالمه ، ولا فعلته الشنيعة بقتل أهل بيت النبوة لاستئصالهم من جديد الأرض .

ولقد كانت مواجهة زينب ليزيد وقفة تاريخية وعقائدية سجلت بأحرف من نور وضاء في صفحات الدهور ، كما كانت بمثابة الترياق الشافي من تسمم الأنفس والضمائر بأضاليل أمية وصبيهم الأرعن يزيد .

والباحث المتمعن في الكلمات القدسية التي حاججت فيها العقيلة «ع» يزيد يشعر بمعاناة هذه الصديقة معاناة مكتومة حفرت في قلبها أخاديد وأثلاماً من الحزن والأسى ، فقد قتل الظلمة رجال النبوة .. فما تبريرهم لأخذ الحرم سبايا كما يؤخذ حرم الكفار والمشركين ؟

وإذا كانوا يعلمون طهارة هذه النسوة فلماذا يعرضوهن في المدن الإسلامية ويسار بهن الصحارى الجافة والمعابر الوعرة وهن مقيدات فوق ظهور الجمال العارية من السروج ، حاسرات الرؤوس كاشفات الوجوه ؟

لكنها وهي العابدة التقية كانت ترى في كل هذه الأحداث الأليمة نعمة من نعم الله خص بها أهل بيت النبوة دون سواهم .. ولولا هذه المصائب لما كانت لهم هذه المنازل بين البشر ، وأنهم لو كانوا طلبوا من الله سبحانه دفع الظلم عنهم لاستجاب لهم ، ولكنهم تقدموا للجهاد والهلاك والشهادة لتكون لهم اليد العليا في السمو وليشكلوا قدوة للمتخاذلين الأذلاء في كيفية رفضهم للضيم ..

« **هيهات منا السِّلة والذلَّة** » .

وهذا الاستشهاد الفريد كان ترجمة لقول الحسين « **رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين** » .

وهكذا بدأ البيت النبوي بعد المصارع وإعلام زينب المؤلب لصدور المسلمين ضد طغاتهم في نيل أجور الصابرين عزاً وقدسية وآثاراً لا تندرس ، تحولت من

أرض سبخة داستها أقدامهم الطاهرة إلى عتبات مقدسة يقصدها الملايين تقديساً وتعظيماً .

تفكر زينب العالمة غير المعلَّمة فيما حل بساحتها من مصائب فتغمض عينيها مستعيدة صور تلك الخطوب التي نزلت عليها كالصواعق الحارقة ، فتنهمر دموعها مدراراً وتردد في صدرها مناجية أخيها الذبيح ممزوجةً بتنهدات حسرةٍ مكتومة وحزن دفين لا يرحم ..

ثم تحني هامتها رضا مما قدر لها ولأخيها .



المجلس الرهيب

كفكفت العقيلة دموعها بعد أن أفرغت مافي صدرها من أحزان بخطبتها المؤثرة في مجلس يزيد وهفت روحها محلقة في لجة من المشاعر الفياضة إلى أرض خلاء حيث فارقت جسد أخيها الطاهر المدمى ، وللحظات كالحلم تخيلت شخصه أمامها برأس يعلو جسده وما لبثت أن أفاقت من تخيلاتها على صوت يردد بسخرية : « **ياصيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح** ».

وتنتفض الحوراء وكأنما انتزعت من حلم كانت تود لو تجسد حقيقة ، لكنها تجلدت وسمَّرت عينيها في وجه أخيها الذي كان يفيض نوراً سماوياً ، وودت وهي مكسورة القلب لو انفض هذا المجلس على هذا القدر من المهانة والمجادلة .. لكن هيهات أن تتحقق لها هذه الأمنية .. فقد كان ينتظرها من حيث لاتتوقع موقف آخر ستبذل له من أعصابها المتماسكة وتسخِّر لرده فصاحتها وجسارتها الإيمانية ، وقد بدأ هذا الموقف للتو حينما تقدم رجل من أهل الشام مصطبغ الوجه بالاحمرار[1] إلى يزيد قائلاً له وهو يتفرس بوجه فاطمة بنت الحسين «ع» :

- هب لي هذه الجارية الوضيئة .

وما أن سمعت فاطمة هذا ورأت إشارة الرجل إليها حتى أصابتها رعدة الخوف

(١) ذكر ابن منظور في كتابه لسان العرب أن وصف رجل بالأحمر كان يعني ابيضاض وجهه ، ولم يكونوا يصفون الأبيض بالبياض لأن البياض مرتبط بالطهر والنقاء والخلو من العيوب .

وظنت أن ذلك جائز لهم فأخذت بثياب عمتها زينب «ع» وهتفت بها :

« **ياعمتاه : أُوتمتُ وأُستخدم**[1] ؟! »

فانتفضت زينب لسؤال ابنة أخيها وطمأنتها قائلة :

- لا .. ولا كرامة لهذا الفاسق .

ثم التفتت إلى الشامي أحمر الوجه وأجابته بصوت قوي غير هيابة من كونه حاضراً في مجلس يزيد :

- كذبت والله ولؤمت ، والله ماذلك لك ولا له[2] .

تطلع يزيد إليها وشرارات غضب تتراقص في عينيه ، وعقب بلا تردد :

- كذبتِ والله ، إن ذلك لي .. لو شئت أن أفعل لفعلت .

ردت زينب :

- كلا والله ، ماجعل الله ذلك لك إلا أن تخرج عن ملتنا وتدين بغير ديننا ..

وكان رد زينب على يزيد إيذاناً بتصاعد غضبه .. وقال مؤكداً سطوته :

- إياي تستقبلين بهذا ؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك !

كانت فاطمة ماتزال مختبئة في حجر عمتها التي كانت تضمها إلى صدرها وهي تحاجج يزيد بهذا الحوار المؤلم الذي أحوجها إليه طلب ذلك الشامي الذي كان يستمع إلى هذا الحوار غير المتكافئ .. وقد علا تأنيب زينب مجدداً وهي ترد على ماتفوه به المتسلط يزيد بقولها :

- بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدك وأبوك .. إن كنت مسلماً !

بعد هذا الرد فاض غضب يزيد واندلق كجلمودٍ حطَّه السيل من علٍ ، فأرتج

(١) ومعناها .. صرت يتيمة وأصير خادمة أيضاً ؟

(٢) والمقصود هنا يزيد .

عليه القول ولم يعد قادراً على محاجة زينب .. وزأر بصوت أجش وهو يكمل محاولاً إسكات غريمته :

- كذبتِ يا عدوة الله !

ردت زينب :

- أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك .

أطرق يزيد برأسه إلى الأرض بعد سماع هذا القول وكأنه استحيى من تصرفه وفي لحظات التفكر هذه عاود الشامي طلبه فما كان من يزيد الساهم إلا أن حدد في وجهه نظرات تقدح شرراً وصاح في وجهه مفرغاً شحنة غضب مكتوم تجمع في صدره من كلمات العقيلة المؤنبة والتي ستظهره لأهل الشام كاذباً حينما يطلع صباح اليوم التالي ويعم خبر تسفيهها له ورواية ماجرى في مجلسه :

- أُعزُبْ .. وهبَ الله لك حتفاً قاضياً !

علت الدهشة وجه الشامي لما يرى ويسمع .. ودار في خلده سؤال محير .. إذ لم يكن يتصور أن يحاور سلطانٌ مثل يزيد المتجبر .. أسيرة تعبة يائسة بكل هذه الحدة بينما تقرعه هي بهذا الكم من الندية الجسورة ، ويسكت عنها .. فخطا ناحية الحرائر وجلاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم زوى ما بين حاجبيه وتساءل بينما ينظر إلى فاطمة بتعجب يخفي وراءه حدساً ما :

- من هذه الجارية ؟!

رد يزيد :

- هذه فاطمة بنت الحسين

وأدار وجهه ناحية عمتها وأكمل :

- وتلك زينب بنت علي بن أبي طالب .

علت دهشة بالغة وجه الشامي فازداد إحمراراً ومالبث أن ضربته صفرة واتسعت

عيناه .. وكأن لسانه عقل ، ومضت ثوان مكهربة قبل أن يعقب على كلام الطاغية المأفون المبتلي بخطيئة قتل عترة رسوله الكريم «ص» :

- الحسين بن فاطمة .. وعلي بن أبي طالب ؟!

هز يزيد رأسه بشماتة لاحظها الجميع وهو يجيبه بلا مبالاة :

- نعم .. وعلامَ دهشتك أيها الأحمر ؟

قال الشامي وقد اهتز وجدانه :

- لعنك الله يايزيد .. أتقتل عترة نبيك وتسبي ذريته ويدهشك إن تعجبت ؟! والله ما توهمت إلا أنهم سبي الروم أو الترك .. فبما اعتذر غداً لرسول الله ؟

قال يزيد والحنق آخذ منه كل مأخذ :

- والله لألحقنَّك بهم .

ثم أمر بضرب عنقه[1].

بعد أن تخلص من الشامي عكف يزيد على شناعته مضيفاً إليها أفعالاً عرف بها لتهوره .. فقد ورث هذا التهور من تربيته الساقطة .. وزيادة في تشفيه ورغبة منه في تسديد الإهانة للحسين «ع» ولإغاظة أخته الثكلى .. أمر بقضيب خيزران وما أن تسلمه بيده الزنيمة حتى صوبه إلى ثنايا أبي عبد الله ينكتها وهو يقهقه ويتغنى بأبيات الشماتة « **ليت أشياخي ...** » التي تدل على ختله ولؤم محتده :

وكان حاضراً المجلس أبو برزة الأسلمي الذي عنَّفه كما ورد في بعض المصادر فغضب يزيد منه وأمر بإخراجه فتقاطر إليه عشرة جنود وجروه جراً من قدميه إلى الخارج .

كان ذلك يتم على مرأى من رسول قيصر الروم جوناثان إلى يزيد ، وكان الموفد قد بلغه أن العرب بعد أن يقطعون رؤوس أعدائهم يعرضوها في الساحات أو

(١) رواها المازندراني في معالي السبطين .. وفي رواية أخرى أن يزيد أمر بإخراج الشامي من المجلس دون قتله .

يعلقوها على أبواب دورهم إظهاراً لغلهم وحقدهم على من قتلوهم .

لكن ماكان يقع عليه بصره كان مختلفاً .. فلم يكن أمام يزيد سوى رأس واحد وكان مهتماً به إلى درجة كبيرة .. وتساءل في سره عن لغز هذا الرأس الموضوع في طست أمامه ينكت شفتيه بمخصرته .. وماعلَّة هذه المساجلات بينه وبين هذه المرأة السبية ..! ولما استفسر عن الأمر .. هاله مايجري وتقدم من يزيد يسأله :

- ياملك العرب أفدني .. هذا رأس من ؟

رد يزيد بلا مبالاة ممزوجة ببوادر غيظ كسا وجهه :

- مالك ولهذا الرأس أيها المبعوث ؟

أجاب :

- من واجبي متى عدت إلى ملكنا جوناثان وسألني عما رأيت وواجهت .. أن أخبره بقصة هذا الرأس وصاحبه ..

سأل يزيد بتبرم واضح :

- وبرأيك .. هل يهمه هذا الأمر الخاص بنا كما يهمنا ؟

رد الرومي :

- قد لا يهمه .. ولكن إذا أطلعتني على قصة هذا الرأس فقد يسره ذلك ويشاركك الفرح والسرور اللذين لمستهما في نفسك !

قال يزيد :

- هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب .

وباستدراك :

- أهذا يريحك ؟

- عاود المبعوث الاستفسار بإلحاح :

- ومن أمه ؟

رد بهزء :

- فاطمة بنت محمد .

محمد رسولكم ..أليس هو نبيكم ؟

هز يزيد رأسه وغرَّب عينيه ضجراً وهو يجيب باستخفاف .

- إن صحت الروايات .. ولكنها عندي لن تصح ..

عقب الرومي :

- تباً لك ولهذا الدين .. لي دين أحسن من دينك .. إن أبي من حوافد داود «ع» وبيني وبينه آباء كثر .. والنصارى يعظموني ويأخذون من تراب قدمي تبركاً بأبي المتصل بداود ، وأنتم تقتلون ابن بنت رسولكم وما بينكم وبينه إلا أم واحدة .. فأي دين دينكم ..؟

استمع يزيد إلى وصف الرومي وعيناه تقدحان شرراً .. لقد ساءه سؤال رسول القيصر وإبداء رأيه في مجلسه فيما يتوجب عليه كمبعوث لملك ألا يستفسر عن شيء ويكتفي بالذي يراه دون تعليق .. ولكنه تمادى كما يرى .

عقب على كلام المبعوث بهزة رأس خبيثة تخفي شراً مستطيراً وعاود نكت ثنايا أبي عبد الله .. وهنا ارتفع صوت الرومي مجدداً يسأله :

- هل سمعت قبلاً بقصة كنيسة الحافر ؟

أجاب مفتعلاً دهشة :

- وهل للحافر كنيسة .. في عقيدتكم ؟

رد الرومي :

- أجل .

- رغم وصفك لدينك بأنه الأفضل من ديننا !

- هل سمعت القصة أولاً ؟

- تحدث حتى أسمع .

- بين عمان والصين بحر مسيرة سنة ليس فيه عمران إلا بلدة واحدة في وسط الماء ، طولها ثمانون فرسخاً في ثمانين عرضاً ، ماعلى وجه الأرض بلدة أكبر منها ومنها يحمل الكافور والياقوت والزمرد ، وأشجارها العود والعنبر ، وهي في أيدي النصارى لا ملك لأحد من الملوك فيها سواهم ، وفي تلك البلدة كنائس كثيرة أعظمها كنيسة الحافر التي أحدثك عنها ، وهي بناء ضخم تضم في محرابها حقَّة ذهب معلقة وبداخلها حافر يقولون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى ، وقد زينوا حول الحقة بالذهب والديباج ، يقصدها في كل عام عالم من النصارى بلا عدد ، ويطوفون حولها ويقبلونها ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى .. هذا دأبهم بحافرحمار نبيهم كما يعتقدون ، بينما تقتلون أنتم ابن بنت نبيكم وتفصلون رأسه بهذه الشناعة ..؟ فلا بارك الله فيكم ولا في دينكم ..

ما ان انتهى مبعوث جوناثان من وصفه حتى استشاط يزيد غضباً وقال له بحدةٍ بالغة :

- سترى بعد قليل كيف تكون عاقبة إساءة الأدب من المبعوث وإهانته لديننا !

رد الرومي :

- لا أراك فاعلاً مالا يجوز لك مع سفراء الملوك لحصانتهم .

صرخ يزيد محتداً :

- من حشا رأسك الأجوف بهذه الترهة .. سأريك الآن أني فاعل ما تظن عدم فعله مع أمثالك الكفرة .

وملتفتاً بنزقٍ إلى رئيس حرسه :

- اقتلوا هذا النصراني لئلا يفضحني أمام ملوك الفرنجة !

ومالبث أن تقاطر الحرس إلى مكان وقوف رسول القيصر ، ولما هموا بالإمساك به أسرع إلى رأس الحسين وضمه إلى صدره وجعل يقبله ويبكي إلى أن صرعته[1] سيوف جلاوزة الطاغية .

وفي موقف آخر مماثل وكان بعد أن سمح يزيد لزين العابدين «ع» بإلقاء كلمة في مجلسه رغم ممانعته في البداية ورضوخه بعدها بناء على إلحاح الحاضرين ، ليسمعهم قولاً يرد به على خطيب انتدبه يزيد ليصعد المنبر ويغلو في ذم أمير المؤمنين والحسين الشهيد ، ويطنب في مدحه وأبيه معاوية .. وبعد أن انتهى زين العابدين من خطبته المؤنبة وتجادل مع يزيد لقتله عترة نبيه .. تقدم أحد الحاضرين وهو حبر من أحبار اليهود أثاره ماكان يدور من حوار بين السلطان المتكبر وهذا الفتى الضئيل الذي تبدو العلة على محياه وحركته وسأل صاحب المتكأ العابث :

- من هذا الغلام أيها الأمير ؟

أجاب يزيد بلا تردد :

- إنه علي بن الحسين .. وهو ضيفنا .

سأل الحبر :

- ومن هو الحسين ؟

- ابن علي بن أبي طالب .

- ومن أمه ؟

- فاطمة بنت محمد .

---

(١) كل المواثيق الدولية تحرم حجز أو سجن أو قتل رسل الملوك والسلاطين ، بل يكتفى بطردهم .. ولا يزال هذا القانون سارياً حتى يومنا هذا في عالم الدبلوماسية والسفارات .. لكن يزيد لم يكن مبالياً بأي ميثاق وعهد وأقدم على قتل رسول قيصر روما إليه بدل إكرام وفادته .. كل ذلك بسبب إبداء رأيه بالشناعة التي كانت ترتكب أمامه ، والتي يأنفها الضمير الحي والخلق السوي لكل البشر مهما تباينت عقائدهم .

تنبه الحبر إلى الأسماء وزوى ما بين حاجبيه محاولاً تذكر أمر يتعلق بدلالاتها ومالبث بعد ثوان أن تطلع في وجه يزيد وقال :

- ياسبحان الله .. فهذا ابن بنت نبيكم قتلتموه بهذه السرعة ؟ بئسما خلفتموه في ذريته ، والله لو ترك فينا موسى بن عمران سبطاً من صلبه لظننا أنَّا كنا نعبده من دون ربنا !

أسند يزيد ذقنه بأصابع كفه وبدا واجماً يفكر غير مكترث بمن حوله .. وقد لاحظ الجالسون بقربه سرحانه في أفكاره .. « ترى هل يكون أبو برزة الأسلمي وحبر اليهود ورسول القيصر على خطأ وأنا على صواب .. فكيف سأبدو للناس وأدافع عما جرى بمنطق يقنعهم لأتخلص من هذه الورطة وألقيها على ظهر ابن مرجانة أو أي واحد من الأوباش المرتزقة الذين كلفتهم بهذا الأمر .. وهل أخطأت بقتل الحسين وأهله فجلبت لهم هذا التعاطف الجياش الذي بدأت بوادره هنا في مجلسي والذي قد ينتقل اليوم أو غداً إلى خارجه .. أما كان أجدر لو تركته في الكوفة ولم ألح في طلب بيعته ، وهل كان القتل هو الحل الأمثل .. وبماذا أرد على السائلين وأهل الفضول إذا سئلت عن أسباب قتله وأنا خليفة المسلمين واسمع تكبير الله أكبر و أشهد أن محمداً رسول الله .. هل أمنع الأذان كي لا يذكرني بفعلتي .. وكي لايتذكر الناس ماجرى وهل سأكون بمفازة من عذاب الآخرة إذا أصررت على كذبتي التي لن يصدقها أحد من البشر .. حتى تجوز على الله تعالى ..؟ فهل أخطأت فيما قررت ولماذا جرى كل الذي جرى .. هل هو غضب من الله ورسوله على جنوحي ؟! ».

الجميع صامت بانتظار عودة يزيد من متاهة أفكاره ، ولما رفع رأسه أخيراً وتطلع إلى المتحلقين حوله والجالسين خلفهم وأنظارهم مشدودة إليه ، وأفكارهم مشدوهة من صمته المفاجئ الطويل .. كان كمن يحدق في فلاة ملأى بالسراب الخادع .. ولما حط عينيه على وجه الحسين وكانت المخصرة لاتزال في كفه ، أرخى أصابعه المرتجفة عنها ثم تطلع بنظرة متفحصة إلى زينب ونساء أهل البيت الباكيات ، وركز بصره لدقائق في وجه زين العابدين ، وبدا للحظات وكأنه يود طلب العفو والصفح من هؤلاء على غلطته .. ولكن رجعة ضميره لم تدم طويلاً بل عاوده طبعه الشيطاني

وتنكره لرسالة جد هؤلاء الأسرى ، وعاودته نظراته المشعة بالغطرسة واللؤم ، فلم ينبث ببنت شفة بل أشار بيده إشارة لانفضاض المجلس أعقبها بنهوض متثاقل وبينما يهم بالخروج توقف للحظات وحدج رأس الحسين «ع» ثم حول نظره إلى السيدة زينب «ع» وأعاده مرة أخرى إلى الرأس الشريف وماعتم أن لف عباءته حول يده ومضى مسرعاً .

وفي ختام هذا المجلس الدامي الرهيب تولى الحراس قيادة الأسرى سريعاً إلى خرابةٍ بلا سقف لا تقيهم من حر ولا من برد فكانت الشمس تصهرهم والهواء الحبيس يخنق أنفاسهم ، فتقشرت وجوههم .. والنساء لم تشبع بطونهن ولم تكس رؤوسهن ، وظلوا هناك ينوحون على أبي عبد الله أناء الليل وأطراف النهار لحين يبت يزيد في مصيرهم[1] .

وقد وصف ابن نما حالتهم فقال :

أنزلوهم في خربة ليس فيها ... غير مهد الثرى وسقف الماء
لا تقيمهم حر الهجير بظلٍ ... وهو يصلى ولا لهيب ذكاء[2]

(١) أورد ابن طاووس في كتابه « **اللهوف** » ص ٢١٩ أن يزيد نزل على طلب السيدة زينب بأن يسمح للسبايا بالمكوث في مكان كي يتسنى لهن النوح على الحسين ، فأجابها إلى ذلك في مكان لايليق بمكانتهن الرفيعة وكان خرابة بلا سقف وجدرانها مهدمة .

(٢) عدة الخطيب .. وقد تنسب للشيخ عبد المنعم الفرطوسي .

نذر العاصفة

هل وضعت الفاجعة أوزارها بعد ذبح رجال أهل البيت وحمل رؤوسهم إلى الشام وسبي حرمهم وأطفالهم واقتيادهم مكبلين بمهانة ما بعدها مهانة .. وهل شفى مشهدهم هذا صدر يزيد الموتور على النبي «ص» وذريته فاكتفى بما سمع ورأى رؤيا العين .. وهل شبع هذا المريض نفسياً وروحياً من ممارسة ساديته المشهورة عنه بنكت ثنايا أبي عبد الله «ع» بمخصرته وهزئه به وشماتته بأشعاره التي تقطر لؤماً وحقارة .

وهل انتهى هذا الزنيم المحسوب على الإسلام من مسلسل الإساءة للعقيدة التي يتبوأ عرش جبروته باسمها كخليفة للمسلمين .. وكيف لم يرعو أو يستحي من أفعاله بحق سبط نبيه وبحق نساء بيته ، ولقد جهر بهذه الغلظة والوقاحة أمام الملأ وافتخر بأنه منجزها عن جدارة .. ألم يدر في خلده للحظات بأن أمره سينكشف ؟ وأنَّى له هذه النباهة وهو الذي تربى على السطحية والتهور ومارس حتى الآن كل ألوان الموبقات من معاقرة خمر إلى مقامرة إلى ألعاب إضاعة الوقت وتربية القرود والفهود والحمير التي كان يجد في صحبتها نفسه لتشابهها معه في نقاط كثيرة ، إلى مخادنة النساء من مختلف البلدان والألوان ، ومن أين تأتيه الخشية من أفعاله .. وضد من ؟ ضد أهل بيت نبيه الذي أوصاه في خطابه الرسالي بالحسنى والفطنة والرحمة والتواصل الإنساني .. ألم يكن متحجراً متخشباً من هذه الزاوية .. وهل أنبأت تربيته وسلوكياته بأي نذر من السجايا الإسلامية التي يدعي أنه خليفتها ومحققها على

الأرض وبين الناس .. وماذا كان يعتقد بتحقيقه من وراء ما فعل .. هل سيزداد مهابة وكبراً في أعين المسلمين .. أم سيطفئ نور النبوة بإطفاء شموعها التي خبت فوق أرض الطف .. أم سيقر له الجميع ويستحسنوا ما فعله ؟

شيء من هذا ما كان ليحدث .. بل حدث نقيضه إذ عاب عليه خاصته أولاً أولئك اللصيقين به ، ثم لحقهم بالمعابة أهل بيته ونساؤه ، وعاتبه الكثيرون لإقدامه على قتل ذرية الرسول «ص» فكان بثعلبيته المعهودة يتنصل من تبعات الحدث ويلقيه على عاتق ابن زياد ويحاول بقدر المستطاع معالجة آثار الجريمة بإظهار أسفه تارة وبعرض الأموال على السبايا لتعويضِهن عما فقدن من متاع ومجوهرات ، ولكن رد زينب المفحم عليه حينما قالت له :

« **يا يزيد ما أقسى قلبك .. تقتل أخي وتعطيني المال ؟ والله لا كان ذلك أبداً** »

هذا الرد كان بمثابة صفعة في وجه الطاغية الذي ملأ قلبه سخط الله ولعنه الرسول وعشش في صدره الشيطان وفرَّخ .

لكن هذا اللامبالي الذي كان له دور كبير في إفساد الولايات الإسلامية بخطله أنهى المسألة ببيت من الشعر وفي ظنه أنه طواها وختمها :

« **يا صيحةً تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح** »

هذا ما تفتقت عنه قريحته القاصرة عن ربط الأسباب بالنتائج ، والنتائج بالمحصلة النهائية وبتداعياتها وارتداداتها كما ترتد موجات الزلازل بعد اهتزازها ، واكتفى من إرهاصات هذا الحدث الخطير في تاريخ الإسلام كعقيدة .. بوصفه لدموع النوائح .

وإن برع هذا الممثل الهزلي في دور الساذج الغافل عن غد الأمور بعد أن تتفاعل وتنذر بالنذر القاسية لتضعه أمام حقائقها المؤلمة فقد تجاهل عن عمد ما بدأ من شرارات هذه النذر حيث لم تسعفه بديهيته لكي يتساءل بينه وبين نفسه كيف استطاعت زينب المرأة الوحيدة التي دخلت الشام مسبية ليس معها جيش جرار بل مجموعة من النساء والأطفال العليلين واستطاعت بفصاحتها الطالبية أن تبعث قشعريرة أولى في الحنايا تمهيداً لرجفةٍ عظمى قادمة تمهد لاهتزاز يعقبه ترنح فسقوط .

ولقد ظن وفي كل ظنه إثم لا في بعضه .. أنه خرج منتصراً من معركة حربية ولم يكن في حسابه أبداً معركة الضمائر والقلوب والحنايا والتي ليس لها ميدان تعترك به إلا في داخل الإنسان نفسه حيث العقيدة[1] في كمون وثبات لا تهزها أي عواصف من صنع هراطقة العروش أمثاله .

أي عاطفة من العواطف القدسية أو أي إدراك من الإدراكات الإنسانية فإن لواقطها في داخل القلب في مكان طاهر يتوق على الدوام إلى التحصن في مكمنه كيلا تذهب نفس صاحبه هباء ، بل يظل هذا السر المكنون في حالة تأجج مستمر وتوق دائم إلى إبقاء صاحبه في حالة وعي ضميري حتى وإن تناساه أو تجاهله لفترة من الزمن تطول أو تقصر ، أو أحاطته حالة لبس للمعاني النفسية التي تجعل من الوضع المتحصل ما يشبه النطق الصامت بدل أن يكون الصمت الناطق .

وفي الحالة التي وجد يزيد بها نفسه كان واقعاً بين حقلي جاذبية : أولهما مجاذبة النفس وثانيهما موادعتها والاستيلاء على محضها بما يورد عليها من تداعيات ما اقترف .

ولأن تركيبته النفسية يعوزها العمق ولأن مبدأه السطحية والتصرف المتهور فقد خارت عقيدته وذبلت حتى لكأنه لم يكن يحس بوجودها ، وهذا معناه أن سيف المبدأ لديه مُصَلَت على سيف العقيدة في أعماقه المفتقرة إلى العمق ، فلم تكن تصرفاته بعد قتله الحسين وسبي حرم بيت النبوة إلا تصرفات من فقد توازنه وضاعت بوصلته النفسية وتحجرت عواطفه فغدت بركاناً لحمم الأهواء العليلة فأقدم على مسرحية مصطنعة لافتعال القوة بالإيعاز لابن زياد كي يعلن بأسلوب صارخ عن دخول موكب السبي إلى الشام وإلى قصره غير آبه بما سيقال عنه بعد ذلك .. أقله التساؤل الذي سيثور بين العامة قبل الخاصة وهو : كيف رضي على نفسه كسلطان أن يُذِلَّ

(١) يصف الفيلسوف النمساوي « **أوليفر هارتمان** » مثوى العقيدة في النفوس .. أنه يشبه ساعة وضعت في مهب ريح صرصر فمهما اشتد الإعصار حولها فإنها تحافظ على دقة حركتها وتوازنها فلا تسبِّق أو تؤخِّر بثانية واحدة .. وهكذا يرى أن العقيدة جوهر السماء مكنونة في حرز حريز داخل نفس الإنسان لا تتأثر بأي عوامل هرطقة خارجية مهما عظمت .

حرم أهل بيت نبيه وأطفالهن بهذه الصورة .. فإذا كان قد قتل رجالهم وحماتهم فلماذا هذا الحقد المتملي ضراوة على نساء وأطفال لا حول ولا قوة لهم .. أفما كان من الأفضل لو كان جَلَبهم سراً وجنَّبهم وعثاء السفر الطويل من كربلاء إلى الشام دون أن يحيطهم بهذا المظهر الإنتقامي الذي أحاطهم به ؟

ويستمر التساؤل قائماً من هنا وهناك :

إذا كان قد انتصر في الحرب ضد الحسين وصحبه .. فعلامَ طالب بحمل رؤوسهم إليه في مقر ظلامته .. ألا ينتمي إلى دين الإسلام الذي جعل الرحمة دعامته الرئيسية « **وسعت رحمتي كل شيء** » و « **كتب ربكم على نفسه الرحمة** » و « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » و « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » .. فأين هذه الرحمة من مشهد ذلك الركب المنهك المربوط إلى بعضه وكأنهم كفرة جيء بهم بعد معركة تغلب بها الحق على الباطل وكأن من سُيِّر وقِيد في الركب من سبي الترك والديلم وكابل وليسوا أحفاد النبي «ص» وذريته المباركة ؟

فهل يصح إذن إطلاق تعريف المسلم على يزيد بعد الذي فعله .. وهل خفق قلبه لرحمة الإسلام التي أدخلها على نظام الحياة وبثها في قانونه وأناظيمه لتهدئ من غلواء المجتمع الصاخب الضاري ، وتكسر شره الأنانيات من مد الأهواء النهمة لسفاسف الأمور ، وتنأى بالروح عن الامتلاء بالكراهيات والطفح بالأحقاد وتأريث البغضاء الخفية والمعلنة ؟

بهذه الصورة المشوشة بدا موقف يزيد لعامة الشعب موقف عَنَت وتجنٍ لم يظهر في جاهلية العرب الأولى قبل الإسلام ولا في الثانية من بعده ، حين استفحل أمر المسلمين واستحرَّ الجدال بينهم ولعبت الفئة الضالة بسنن العقيدة الصافية فخضبتها ولونتها بحسب أهوائها ، فغدوا فرقاً وقفوا لبعضهم متلددين وقد حاروا في أي جهة يأخذون بعد أن تشتتت ضمائرهم ونامت نومة أهل الكهف .

وكان يزيد في ذلك المربع الأسود الذي حجز نفسه فيه قد أسقط في يده وظهر كذبه على الله ورسوله ، وها هو وقد بدأ مواجهة تساؤلات الناس عما جرى ولماذا

ولم يكن يملك إجابات شافية يرد بها بل كان ينحى باللائمة على ابن زياد ويحاول التنصل من خطيئته اللصيقة به .

ولما لم يعد في قوسه منزع وغدا كذبه فارغاً ولم تعد هناك جدوى من إبقاء نسوة أهل البيت في الشام ، بل يكاد الحيف أن ينقلب عليه .. جاء من يهمس بمسمعه بضرورة إخراج الأسارى من الشام درءاً لتفاقم النقمة عليه .. وحتى يظهر الموقف طبيعياً وأن لا أضغان ضده .. أمر بنقل نساء الركب إلى بيته الخاص إرضاء لطلبات نساء آل أبي سفيان اللواتي أحسسن بعظم جرمه .

ولما دلفت نساء أهل البيت إلى داره[1] استقبلتهن نساؤه وتهافتن يقبلن أيديهن وأرجلهن وينحن على الحسين بعد أن نزعن حليهن وزينتهن وأقمن المأتم والعزاء ثلاثة أيام .

وفي الرواية التاريخية أن هند بنت عبد الله بن عامر وكانت تخدم في دار أمير المؤمنين «ع» بعد مقتل أبيها ، وكانت من جميلات عصرها ، ولما قتل الإمام علي انتقلت إلى دار الإمام الحسن «ع» وقد سمع عنها معاوية فزوَّجها لابنه يزيد ، ولما قُتل الإمام الحسين «ع» لم تعلم بالخبر ، ولما وصل ركب السبي إلى الشام قالت لها امرأة : لقد أقبلوا بسبايا ولا أعلم من أين هن فلعلك تمضين إليهن وتتفرجين عليهن ! فلم تتردد هند ولبست أفخر ثيابها وتخمَّرت بخمارها وارتدت إزارها ومضت بمرافقة إحدى الخادمات حاملة لها كرسي لتجلس عليها .

ولما أقبلت زينب وراءها همست في إذن أختها أم كلثوم تسألها : « **أخيَّة تطلعي بهذه الفتاة أتعرفينها ؟** » فنفت أم كلثوم معرفتها ، فقالت لها زينب : هذه خادمتنا هند بنت عبد الله .. فلم تجب أم كلثوم ونكست رأسها وكذلك فعلت زينب .

---

(١) روت المصادر أن يزيد حينما جاءت نساء أهل البيت إلى داره أن أمر بأنطاع من الأبريسم فرشت في مجلسه وكان قد جهز حللاً ضخمة ملأى بالمال والحلي دلقت فوق الفرش كتقدمة منه للأسارى ديةً لقتلاهن وعوضاً عن أموالهن التي فقدنها في كربلاء .. لكن المخدرات أصابتهن لوعة من هذا التصرف المهين الذي يدل على خطل يزيد واستهتاره ، فانبرت إليه زينب مؤنبة بعبارات شرسة : « **ما أقل حياءك وأصلف وجهك يا يزيد ، تقتل أخي وأهل بيتي وتعطيني عوضهم ؟** »

جلست هند بجانب زينب وسألتها على اعتبار أنها زعيمة الأسيرات :

- أخيَّة أراك طأطأت رأسك ؟!

لم تجب زينب واستمرت على صمتها ، لكن هند عاودت سؤالها عن البلاد التي أسرن منها .. ولما أجابتها بأنهن من بلاد المدينة .. نزلت هند عن كرسيها احتراماً ورددت :

« **على ساكنيها السلام** » ثم التفتت إلى زينب وقالت :

- أخيَّة أريد أن أسألك عن بيت في المدينة ..

ردت زينب :

- أسألي عما بدا لك .

قالت :

- أسألك عن دار علي بن أبي طالب .

أجابت زينب بتساؤل مردود :

- ومن أين لك المعرفة بدار علي ؟

بكت هند تأثراً من هذا السؤال لكنها تمالكت نفسها وأجابت :

- لقد كنت خادمة عندهم .

وعاودت زينب السؤال :

- وعن أيما تسألين منهم ؟

قالت :

- أسألك عن الحسين وإخوته وأولاده وعن بقية أولاد علي ، وأسألك عن سيدتي زينب وأختها أم كلثوم وعن بقية مخدرات فاطمة الزهراء ؟

عند ذلك بكت زينب بكاءً شديداً ، وقالت لها :

يا هند أما إن سألت عن دار علي فقد خلفناها تنعى أهلها ، وأما إن سألت عن الحسين فهذا رأسه بين يدي يزيد ، وأما إن سألت عن العباس وعن بقية أولاد علي فقد خلفناهم على الأرض مجزرين كالأضاحي بلا رؤوس ! وإن سألت عن زين العابدين فها هو عليل لا يطيق النهوض من كثرة المرض والإسقام ، وإن سألت عن زينب فأنا زينب بنت علي وهذه أم كلثوم - وأشارت بيدها ناحية النساء - وهؤلاء بقية مخدرات فاطمة الزهراء .

فلما سمعت هند كلام السيدة زينب رقَّت وبكت ونادت :

وإماماه .. واسيداه واحسيناه .. ليتني كنت قبل هذا اليوم عمياء ولا أنظر بنات فاطمة الزهراء على هذه الحالة ، ثم تناولت حجراً وضربت به رأسها فسال الدم على وجهها ومَقْنَعتها وغُشي عليها ، ولما أفاقت من غَشْيَتها أتت إليها السيدة زينب وقالت لها : يا هند قومي واذهبي إلى دارك لأني أخشى عليك من بعلك يزيد .

فقالت هند :

- والله لا أذهب حتى أنوح على سيدي ومولاي أبي عبد الله ، وحتى أدخلك وسائر النساء الهاشميات معي إلى داري .

وأعقبت هندُ كلامها بالخروج حافية إلى مجلس يزيد حاسرة الرأس ، ولما واجهته صرخت بصوتٍ سمعه كل من كان في المجلس :

- يا يزيد أنت أمرت رأس الحسين يُشال على الرمح عند باب الدار .. أرأس ابن فاطمة بنت رسول الله مصلوب على فناء داري ؟!

كان يزيد لحظة انفجار غضب زوجته غارقاً في طنفسةٍ ضخمة من الحرير والديباج والدمسق ، وفوق رأسه تاج مرصع بالماس والياقوت والزبرجد ، فلما رأى هند على هذه الحالة من السفور أمام حضور مجلسه وثب من مقعده ناحيتها وتشبث بخمارها وغطاها وهو يقول :

- نعم فاعولي يا هند وحدِّي على ابن بنت رسول الله وصريخة قريش فقد عجَّل

عليه ابن زياد لعنه الله ، فقتله[1] .. قتله الله !

ارتدت هند إلى الوراء حينما غطاها يزيد مستنكرة فعلته وعقبت وقد تضاعف غضبها:

-يا يزيد أخذتك الحمية عليَّ .. فلمَ لم تأخذك على بنات فاطمة الزهراء ؟! هتكت ستورهن وأبديت وجوههن وأنزلتهن في دار خربة .. والله لا أدخل حرمك حتى أدخلهن معي ..

ولكن هذه الأحداث انتهت باستعداد لرحيل السبايا من الشام درءاً لفتنة قد تقع لا محالة نظراً لموجة الاستنكار التي عمت المجتمع بعد علم الناس بالحقيقة .



(١) الغريب أن يزيد كان يناقض نفسه موقفاً إثر آخر .. فهو يدعي أن ابن مرجانة هو قاتل الحسين دون معرفته ويتجاهل عن عمد كتابه إليه في الميدان وطلبه أخذ البيعة منه بالقوة وإلا فالقتل هو المآل .. كما تناسى أشعار الشماتة التي ارتجزها لدى وصول ركب السبي ، إضافة إلى أنه لم يفعل شيئاً ليعاقب ابن زياد على فعلته الشنيعة كما يصفها أمام الناس إذ من الطبيعي أن من يخرج على أوامر رئيسه يعاقب ويسجن ويجلد ويجرد من كافة مناصبه .. لا يكافأ ويقرب أكثر كما فعل يزيد بابن زياد وهذه إحدى معايب سياسته الثعلبية التي لاتقوم لها قائمة إلا بالكيد والمخاتلة وسوء الذريعة والخبث الإنساني .

الفصل الخامس

قديسة الإسلام

العودة المظفرة

شتان بين رحلتي الذهاب والإياب .. في الأولى كانت الأوامر العليا تقضي بإلحاق أكبر قدر من المهانة على أفراد الركب دون تفريق بين امرأة وطفل وعليل .. السلاسل في الأعناق والوجوه مكشوفة والملابس مهلهلة وممزقة ، والجو المحيط مهيأ للشماتة وتوجيه الإهانات وتحويل مشهد دخول ركب السبي إلى الكوفة والشام إلى مهرجان للسخرية والتشفي والخروج إلى المباهاة بالصنيع العظيم ، واستشعار القوة المتنمرة التي تمددت إلى أهواء الناس ونفذت إلى محل القلوب الغافية .

وبعد أن تواجهت الرسالية القدسية التي مثلتها زينب «ع» وجهاً لوجه مع الشيطانية التي مثلها يزيد .. كان لابد أن تتغير أمور كثيرة في فضاء إنسانية المجتمع لتولي معها الإنسانية المزيفة المتهرئة متساقطة متواردة إلى أوكارها ، وتتفجر معان جديدة تحمل بذور التحدي وانتظار الرجع « **أنا** » وهي شامخة بمعناها لا تعرف الونى ولا تتصل بفتور واستخذاء ، وقد تزامن كل ذلك مع قناعة يزيد بنصيحة مروان بالتعجيل بإخراج أهل البيت من الشام ، فما كان منه إلا أن استدعى النعمان بن بشير وقال له :

- جهز حرساً ومرافقين وموكباً كبيراً لمرافقة الأسارى إلى المدينة المنورة .

سأل النعمان :

- ومتى يرغب سيدي في مغادرتهم ومن أي طريق ؟

رد يزيد بنبرة ارتياح :

- بعد أن تجهز كل شيء ليكن مسيرك بهم مبكراً .

قال النعمان :

- سنبدأ تجهيز الموكب حالاً .. وكل ما تريده سينفذ .. فهل تأمرنا بما يتوجب فعله ؟

رد يزيد متفاخراً بتمنن :

- لا أريد من فريقك سوى حسن الصحبة وتلبية طلبات الجميع ، فنساء أهل البيت أمانة في أعناقنا ويجب صونها !

سأل النعمان غير مصدق ما طرق سمعه :

- حسناً .. ومتى يرغب مولانا بتسييرهم ؟

قال :

- في منتصف الليل .. والناس هجوعاً كيلا تقع فتنة .

وها هو الركب يقفل عائداً ورجال ابن بشير خلفهم بمسافة تكفي لرؤيتهم وكانوا إذا نزلوا يتنحون عنهم ناحية كيلا يسببون لهم إحراجاً إذا أرادوا الحركة .

هكذا كان مشهد رحلة الإياب .. وتحولت المهانة إلى احترام والإذلال إلى تقدير والجوع إلى شبع والعطش إلى ري ، وكانت العقيلة مرفوعة الرأس شامخة الأنف بما حققته حتى الآن وقد ضفرت رأسها بإكليل من فخار مرصع بجواهر التضحية والصبر والمعاناة ، فقد بذرت في تربة الأنفس بذرة التمرد على الظلم وبثت خميرة الإباء في عجين المجتمع الإسلامي ، وها هي الخمائر بدأت تخمِّر هذا العجين تمهيداً ليصبح خبزاً برائحة زكية تفتح شهية الإنسان المسلم لتذوقه والشبع منه .

ولم تكن مخدرات بيت النبوة بأقل من زعيمتهم زينب «ع» إحساساً بهذا الفخروالاعتزاز ، فقد شهدن أيضاً المأساة وعانين مما عانت ، لكن معاناة العقيلة

فاقت أية معاناة [1] لامرأة في هذا الكون الشاسع إذا ما قارناها بالتضحيات الإنسانية مجتمعة .

كانت تضحية وأية تضحية .. وصبر وأي صبر ؟ لقد رفعت راية الطف عالياً وسارت بها في الولايات والنجوع الإسلامية ، وقارعت بمجريات المذبحة قوى الظلم مثل ابن زياد ويزيد والشمر وغيرهم من الأبالسة الذين حاولوا جاهدين طمس حقيقة إبادتهم لذرية نبيهم «ص» من جديد الأرض ، لكن العقيلة كانت لهم بالمرصاد وكان خروجها ومخدرات أهل البيت لا يقل أهمية عن دور أخيها حيث تممه وأعطاه معناه الروحي ، فكان لملحمة الطف وجهان متلازمان : « **حسيني وزينبي** »

يابنة المرتضى أبي القمم الشُّم — تقدستِ رفعةً واعتلاءَ
قمتِ والسبط في جهادٍ تهاوى — دونه الفكر رجفة وعياء
ذاك بالنفس قد فدى الحق أما — أنت بالصبر قد رفعت النداء
لكِ في كربلاء أي مقام — رفع الحق باسمه كربلاء
إن يكُ السبط بالشهادة قد عاش — فقد عشت بالأسار بقاء
ذاك أدى شطراً وأديت شطراً — من نشيد هز القرون غناء
لم يكن قتله بأكثرَ من سبيكِ — في نظرة الخلود جزاء[2]

ولما وصلوا إلى مفترق الطرق إلى المدينة طلبت السبايا من رجال الحراسة التعريج بهن إلى كربلاء وكانت مناسبة الأربعين[3] لمقتل الحسين .. فلبى النعمان وبشر بن حذلم طلبهن وسهَّلا للركب العروج إلى مطارح المصرع .

---

(١) هناك باحثة إيطالية تدعى لاورا قدمت رسالة دكتوراه حول السيدة زينب «ع» وقد وصفتها بهذه العبارة « **ماعرفت الأرض امرأة مثل هذه السيدة المقدسة** » وأعطتها العلامة التامة في إيطاليا وهي ١١٠

(٢) من قصيدة للسيد محمد جمال الهاشمي

(٣) لقد تضاربت الروايات حول تحديد هذا اليوم لأن موكب السبي قطع مسافة طويلة من كربلاء إلى الكوفة ثم الشام وقابلتها مدة العودة ، إذ ليس من الممكن قطع تلك المسافات خلال أربعين يوماً بوسائل ذلك العصر ، وهناك بعض من يرى أن العودة قد حصلت في العام الذي تلا عام المقتل حيث أوردت مصادر تاريخية أخرى مكوث السبايا فترة في الشام تعدت مناسبة الأربعين .. والله أعلم .

حينما وطئت أرجل المخدرات والأطفال تراب ساحة المصرع استقبلن قبر[1] الإمام أبي عبد الله بالصراخ والعويل ، ولم تتمكن العقيلة «ع» التي ذاقت الأهوال المهولة خلال ما مضى من أيام منذ الخروج إلى المقتل والسبي والتشهير .. من تمالك نفسها والأحزان قد أمضَّتها .. من إلقاء نفسها فوق قبر أخيها الشهيد وهي تهتف من قلب مفطور :

« واأخاه .. واأخاه .. واأخاه ».

لقد شعرت أم المصائب حينما شاهدت القبر بآلام معاناتها ، وتذكرت آلام ومعاناة حبيبها الحسين «ع» واستعادت شريط ذلك اليوم الرهيب العاشر من محرم فارتجفت أعطافها وهي سيدة الحنان اللامتناهي الذي لا تحده حدود ولا تصل أعماقه واصلة لقد عصفت بقلبها عصفات[2] الواحدة تلو الأخرى ، فكانت في كل

---

(١) ذكر ابن شهراشوب .. وكذلك في تاريخ «**حبيب السير**» أن يزيد سلم رؤوس الشهداء إلى علي بن الحسين فألحقها بالأبدان الطاهرة يوم العشرين من صفر ، أما السبط في تذكرته فقد ذكر أربعة أقوال : دفنه بكربلاء ، وفي المدينة عند قبر أمه وفي الشام ، وفي القاهرة ، وهناك تفصيل كامل لما ورد من احتمالات دفن رأس الحسين «ع» نظراً لتعدد الرواة آنذاك .. وقد يسجل أحدهم أن الدفن تم في أحد هذه البلدان أو يكون الرأس الشريف قد جيء به مروراً إلى مدينة أخرى رغم ترجيح كتاب الإتحاف وشرح الهمزية لابن حجر لرواية دفن الرأس مع الجثمان الطاهر في زيارة الأربعين ، وأن علي بن الحسين حمله معه حينما غادر الشام ، بينما ذكر ابن نما أن عمر بن سعد دفنه بالمدينة ، وأورد منصور بن جمهور أنه ظل في خزانة يزيد إلى أن وجده غلامه سليم ملفوفاً بجونة حمراء وقد قال له يزيد : احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز بني أمية ولما فتحها إذ فيها الرأس الشريف مخضب بالسواد ، فقال يزيد لغلامه : آتني بثوب .. فأتاه به حيث لف الرأس ودفنه بدمشق في باب الفراديس ، ولكن تظل رمزية تعدد مدافن الحسين في عدة بقاع إلى عظم الشهيد «ع» وعلو مكانته الدينية .. وهذا ما تكرر أيضاً في تعدد مقامات شريكته السيدة زينب «ع» وتظل هذه الرمزية سر من الأسرار الإلهية التي علينا جميعاً إجلالها ، ولعل أفضل وصف لها ما قاله أحد الشعراء في بيتين ولا أجمل :

لا تطلبـــوا رأس الحســـين — بشـــرق أرض أو بــغـــرب
ودعوا الجميــع وعرِّجــوا — نحــوي فمشهــده بقلبــي

(٢) لله در العقيلة ما أعظمها وأروعها وما أقدس دموعها الطاهرة .. هذه الدموع التي ما برحت عينيها منذ خطت خطواتها الأولى في درب حياتها وختمتها بدمع المصاب الجلل بذبح أخيها بين يديها وضنكها الذي لا تحتمله الجبال خلال ترؤسها لركب السبي في الذهاب والإياب .. ولا عجب في ذلك المقتضى فالسيدة زينب أهلت لهذا الدور في بيت النبوة وتعهدتها أياد رسالية .

خاطرة وذكرى تمر في خيالها تنفعل لها انفعال الصب المستهام وهي محفوفة بالصور الملذذة لذلك اليوم الكئيب وما شهدته فيه من فادحات الفوادح ، مجددة لأحزان مضت وزمن عافٍ كانت فيه مرزئة مصابة في ثوانيه ، فزاد شجاها وتوقدت لوعتها واستجلب الوجدُ الدفين لأخيها المذبوح ظلماً ، الميت عطشاناً على شط نهر أجَّاج ما كان كامناً في صدرها ، فلباه مجيباً وجرى على لسانها مناجاة وفي عيونها دمع زاده هطلاً هذا الرجوع الفاقد ونبو الديار والخلاء عن موطن أحباب رحلوا جراء كيد السلطان وخذل الإخوان ، وارتعاشات العودة إلى موضع الأهل ومصارع شركاء الدم والمنبت وسلالة الرسالة وبيت النبوة .

لكنها وبقدر الألم الذي صهر قلبها في هذه اللحظات .. كانت قوة روحية تتأجج في صدرها فتبعث رضى عما جرى ، مأتاها في الطباع ومساغها في النفوس وإشعاعها بسنن الفطرة الدينية بما ستؤصله في الضمائر ومثاوي العقيدة وبما ستحركه من عواصف الوحي حول الإنسان التي ستخلف نبضاً كنبض البرق في رحلته ما بين أقطار السموات ، فإذا به أَجْمَلَ إيماء وأبدعَ إشارة وأَبْيَنَ عبارة .

في هذا الجو السرمدي المهيب وجدت العقيلة زينب والمخدرات من وافاهن إلى أرض الشهادة ، فالتقت هناك الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري برفقة عطية[١] العوفي وجماعة من بني هاشم وقد جاءوا لزيارة قبر أبي عبد الله «ع» كما تزامن وصولهم وصول جماعة من أهل السواد[٢] في ضواحي كربلاء ، فانعقد اجتماع كبير من شتى الطبقات وكلهم حضروا للسلام على سيد شباب أهل الجنة تعلو وجوههم كآبة لما يعتصر قلوبهم من حزن على ريحانة رسول الله شهيد المظلومية وكانت الدموع متجمدة في مآقيهم تنتظر شرارة البرق وقصف الرعد فوق هذه الأجواء المأساوية وشكَّل وصول قافلة أهل البيت هذه الشرارة فانهمرت الدموع كشآبيب المطر وعلا النوح والعويل على سيد كربلاء ، وقد شاركت بالمأتم المقرِّح للأكباد نساء أرض

(١) وكان يعرف باسم « **عطاء** » وهو من التابعين الذين لم يروا رسول الله «ص» ولكنهم عاصروا صحابته .

(٢) هذه الأرض تكنى بالسواد لكثافة أشجارها فيها بحيث تبدو للناظر إليها من بعيد كتلة سوداء ، وقد شاع هذا الإسم حتى تسمى ساكنوها بـ « **أهل السواد** » .

السواد ، وقد أمضت السبايا ثلاثة أيام بجوار الحسين يندبنه بأرق الكلمات حتى بحت أصواتهن .

زر قبر سبط الهاشمي الهادي ... ولديه حزناً واحسينا ناد
زر قبره في الأربعين وثق بها ... يوم القيامة فهي خير الزاد
واذري ما امِعَ مقلتيك بعندم ... مستعبرا متجلببا بسواد
حتى كأنك جابراً لما أتىً ... مستقبلاً للعابد السجاد
وافى من الشام الشمومة أهلها ... أسرته ظلماً أمة الإلحاد
وافى بأضغان الفواطم زائراً ... لضرائح الشهداء والأمجاد
واذكر مصيبة زينب إذ أبصرت ... قبر الحسين هوت عليه تنادي[1]

بعد هذه الأيام الحزينة قيل لعلي بن الحسين «ع» دع النساء تتزود من أهلها توديعاً فأجابهم «ع» :

« يا قوم إنكم ترون ما أرى ؟ »

سألوا : « ما الخبر ؟ »

قال : إني أخشى على عمتي زينب أن تموت لأنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر .

لم يجد السجاد بداً من الرحيل ، ولما عزم عليه قال لعمته :

- عمة قومي

- قالت : إلى أين يا بن أخي يا خير خلف لخير سلف ؟

- أجاب : إلى المدينة

وتحرك الركب من جديد ووجهته إلى يثرب ، ولما اقترب من مشارف المدينة وبدت ربوع الطهارة تظهر للعيان .. أطلت زينب برأسها لخارج المحمل ونادت في النساء والأطفال قائلة :

---

(١) عدة الخطيب الظاهر ينسبها لنفس المهموم .

« انزلوا من الهوادج فإني أرى الروضة المنورة لجدي رسول الله «ص» .

وما أن بدأ أفراد الركب بالنزول ورأتهم على هذه الهيئة الحزينة حتى ناحت وبكت بكاءً مراً أشفق الجميع عليها ، فقد كانت تشرق بعبراتها وتنشج وتلطم وجهها وقد شاركها الجمع المتوافد من كل ناحية .. الندب ولطم الخدود والتحسر على السبط الشهيد والترحم عليه والندم على خذلانه.

تشكو عداها وتنعي قومها فلها حال من الشجو لف الصبر مدرجه
فنعيها بشجى الشكوى تؤلفه ودمعها بدم الأحشاء تمزجه
ويدخل الشجو في الصخر الأصم لها تزفر من شظايا القلب تخرجه[1]

ومن قلب مفطور بالأسى وعيون والهة من الشوق لرؤية الوجه الحبيب الذي غاب .. أمالت أم أخيها عينيها صوب كربلاء وطفقت تناجي ابنها الحبيب وأخاها الحسين بعبارات خفقت لها القلوب وأدرَّت الدموع فوق إدرارها وخلَّفت في الصدور غصة أمرَّ من العلقم .. ومما أنشدته باكية :

« أخي حسين .. هؤلاء جدك وأمك وأخوك وأهل بيتك ينتظرون قدومك ، يا نور عيني قتلت وأورثتنا الأحزان الطويلة ، فيا ليتني مت[2] قبل هذا وكنت نسياً منسياً » .

وصل الركب إلى المدينة وضرب الإمام علي بن الحسين فسطاطه وأنزل نساءه ثم طلب من بشير بن حذلم أن يقول شعراً في المدينة ينعي به أبا عبد الله .. ولما فعل تقاطر الناس حول الفسطاط وضجت المدينة بالبكاء .

---

(١) من قصيدة لحجة الإسلام محمد حسين كاشف الغطاء

(٢) الأم الحنونة والأخت الرؤوم تمنت الموت وأن تكون نسياً منسياً قبل رؤيتها لقتل أخيها .. ولنلاحظ كيف أن العقيلة منذ الواقعة حتى هذه اللحظة لم تذكر ولديها محمد وعون ولا مرة ، كما أنها لم تناجيهما ، ولننظر بدهشة وإعجاب كيف أنصب حبها ومناجاتها على أخيها الحسين فقط ، فهل سجل تاريخ البشرية مثل هذا الحب الخالد بين أخ وأخته لدرجة أنستها التحسر على فلذتي كبدها مؤثرة أخاها بخصاصة حزنها ولم يتعداه لأحد على بعد الشُقة وتنائي الديار وقربها وشَحَط المزار ؟ وقد رعت لراحلها ذمة الشراكة في الهدف والكفاح وصانت له محبة الصبا وذكرى اليفاعة .

وأرّخت المصادر أن المدينة انقلبت بأهلها وحل فيها الرجف والزلزال لكثرة النوح والعويل من المهاجرين والأنصار ، ولقد كان ذلك اليوم أشد من يوم مات فيه رسول الله «ص» وكان الوليد بن عتبة والي المدينة على المنبر فسمع الصياح وسأل : ما الخبر ؟ فقيل له : هذا صياح الهاشميات ، فبكى وجرت دموعه على خديه ونزل عن المنبر ودخل منزله ودخلوا المدينة بالنوح والبكاء والصياح والصراخ[1]».

ما أن وصلت فخر المخدرات إلى المدينة حتى توجهت إلى قبر جدها المصطفى «ص» وأخذت بعضادتي باب المسجد وصرخت منتحبة :« **يا جداه إني ناعية إليك أخي الحسين** » وبادرت بلا توان إلى إقامة العزاء على أخيها «ع» ووسعت إعلامها الهادف بأن أخذت تنتبز المنابر وتخطب في الجماعات ، تساعدها في ذلك الهاشميات اللاتي حضرن المعمعة القاسية وكن شاهدات عيان على المجازر الهمجية التي تأباها وحوش الغاب وارتضاها أحفاد الشيطان من بني أمية .

لقد نجحت العقيلة في تصوير كافة مراحل الملحمة بكلمات قليلة فقالت مخبرة زوجها عبد الله بن جعفر الذي كان ضريراً أعمى حينما التقاها بعد وصولها المدينة وهي تسلم عليه حيث عرفها من نبرات صوتها وسأل : أزينب هذه ؟ فردت العقيلة: « **أنا زينب** » فقال قُصي عليَّ ما جرى عليكم ، فأوجزت بقولها :

« **يا بن العم نزلنا كربلاء منعونا القوم شرب الماء وقتلوا أنصار أخي وإخوته وأبناءه وأطفاله ، يا بن العم قتلوا أخي الحسين هجموا علينا نهبوا ما في خيامنا ضربونا أسرونا** » ثم سكتت ، قال : أكملي ، فقالت : أخشى عليك من الموت ، فألح عليها ، فقالت :

- دخلنا مجلس يزيد فرأينا رأس أخي الحسين بين يديه يضربه بالخيزرانة وشتمنا ووضعونا بخرابة لا ظل فيها .

فأخذ عبد الله يلطم على رأسه وينادي وآحسيناه وآسيداه وابن عماه .. ثم أخذ

---

(١) كتاب معالي السبطين .

ينادي عبده مبارك : يا مبارك إذهب واغلق باب ديواني فلا أتصدره بعد وحَرَمُنا تسير من مجلس إلى مجلس .

ولم تلبث مدينة رسول الله أن اشتعلت شعلة واحدة تصل نهارها بليلها بفعل مجالس العزاء التي أقيمت في أرجائها ، وكان أشدها تأثيراً مجالس الإمام زين العابدين والعقيلة زينب والرباب زوجة الحسين وأم البنين أم العباس بن علي ، وقد فعلت هذه المجالس فعلها في النفوس بإثارتها ثائرة الغضب على أفعال أمية ، وتهييجها للخواطر والمشاعر على قتل سبط الرسول «ص» وتأليبها على عصابات الشر وحزب الشيطان وإيغارها الصدور وملئها بالحقد على ممارسات بني أمية .

أما العقيلة «ع» فلم تتقاعس عن القيام بدورها الفعال وتكثيف وتيرة كشفها عن الحقائق التي كانت معرضة للطمس واستجاب لسحر بلاغتها وقوة حجتها كثيرون ممن ضللت بوصلتهم الإيمانية أباطيل فرق الإعلام الممولة مما كانت تدفعه شعوب الولايات الإسلامية من ضرائب ورسوم لخدمة أغراض الدعاية المضللة ، والتي خدع بها العديد من الرواة المعاصرين لها حتى ظنوها كمالاً بلاغياً حدَّث عن مآثر زمنهم وصرفته عمن كان قبلهم وجاء بعدهم .

واحد فقط من سكان المدينة كان قلبه ينخبط هلعاً مما كان يتداوله الناس من خطب زينب .. وبدا يستشعر خطر بقائها في مدينته التي كان مكلفاً بالولاية عليها من قبل يزيد ، لذا فقد كتب لسيده يخبره بما تفعله العقيلة في مجتمع المدينة من تأليب على السلطة ، وما كان يزيد بحاجة ماسة لمن يخبره بذلك بعد أن خبر معدن زينب وقوة حجتها حينما قارعته الكلمات الحادة في مجلسه وأمام ضيوفه من أكابر القوم والقادة وسفراء الملوك وأخرسته .. فما كان منه إلا أن رد على واليه عمرو بن سعيد الأشدق بأن أخرج زينب من المدينة إلى حيث تشاء من أرض الله الواسعة غير الحرمين الشريفين .

لكن شقيقة روح القائل : « **إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرَماً** » رفضت الرضوخ لهذا الأمر وعظُم عليها الرحيل من مدينة جدها مهبط الوحي وحاضنة كفاح الآل المشرَّفين ، لذا فقد عَقَبت بعد ورود خبر الترحيل إليها

بالقول : « **لقد علم الله ما صار إليه أمرنا ، قُتل خيرنا وانسقنا كما تساق الأنعام وحُملنا على الأقتاب ، فوالله لأخرجنا وإن أهريقت دماؤنا[1]** » .

وكأن العلويات الهاشميات قد استشعرن الخطر من بقائهن مع زينب في المدينة فقالت لها زينب بنت عقيل : « يابنت عماه ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء ، فطيبي نفساً وقرّي عيناً وسيجزي الله الظالمين ، أتريدين بعد ذلك هواناً ؟ ارحلي إلى أي بلد آمن » .

وكان لموقفها الصلب هذا رد فعل من قبل الوالي الأشدق فتشدد في طلبه ، لكن نساء بني هاشم اجتمعن عليها وتلطفن معها في الملاسنة وواسينها بالإشارة إلى كِبَر قدرها وبأن خروجها من المدينة لا يُنقِصه ، وبأن الأمويين الخائفين على عروشهم من وجودها بينهم سوف لن تهدأ لهم خاطرة حتى يجلونها عن مدينتهم وقد لايتورعون عن ارتكاب جريمة إذا لم تستجب لأمر الترحيل .

وكان لابد للعقيلة من الرضوخ لإجماع رأي الهاشميات والاستعداد للسفر حيث وقع اختيارها على مصر داراً لإقامتها لما سمعته عن محبة شعبها لأهل البيت وعظيم عطفهم وولائهم لذوي القربى ، لأن أفراداً[2] من الخط الموالي لأمير المؤمنين علي «ع» كانوا قد حكموا مصر في تلك السنوات .

لقد تزامنت رحلة زينب إلى أرض الكنانة مع تصاعد النقمة على حكام بني أمية كنتيجة حتمية لوصول الحقيقة إليهم بفضل جهدها في غسل العقول وتبصير العيون الغافلة ، لذا فإن قرارها بالرحيل كان قد سرى في المدينة وانقلب أهلها إلى مصدق وغير مصدق أن أخت الحسنين سوف تهجر مدينة جدها منفية بأمر يزيد وتحريض الأشدق ، وقد حز هذا الطارئ على نفوسهم وضربها بالمشقة لذا فقد كان مشهد رحيلها مؤلماً حيث تجمهر الناس حول موكبها على عتبة مسجد الرسول قبل أن تودع جدها بدموع الفراق .

---

(١) أخبار الزينبيات ليحيى العبيدلي المدني المكتوب سنة ٦٧٦هـ .

(٢) هم : قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، ومحمد بن أبي بكر ، ومالك الأشتر النخعي .

وها هي بطلة كربلاء العنيدة التي لاتلين لها قناة ماضية في مسيرة إيقاظ الضمائر وفي كل خطبة وانعطافة حركة لها كانت استفاقة الناس تتجدد على مشهد البطولة الجريحة[1] المتعالية فوق جراحها والتي رغم ذلك فإنها تخطو في ذاتية واعتداد .

تحلَّق أولئك المودعون لزينب وللهاشميات يبكون من فرحة عودة ضمائرهم إلى حظيرة الإيمان .. وفي الوقت ذاته يهنئ بعضهم بعضاً بأنهم وإن فاتهم نصرة الشهيد لسدرتهم في دروب التضليل إلا أنهم ربحوا المبادئ وتأكدوا من سلامة عقيدتهم وبأنها لم تنكسر أو تتشوه نتيجة لغيابهم الطويل عنها ، وثباتها على العاصفة التي عبرت ومزقت أشرعة غيهم وتهاونهم في أعز جواهر صدورهم فصاروا ينظرون إلى ما مضى نظرة تقزز واستعلاء .

بهذه القلوب المطمئنة والضمائر المرتدة بعد ضلال كان مودعو العقيلة يبرهنون على رفضهم لتلك المداميك الشريرة التي حاول يزيد وطغمته البناء عليها ، وها هم ينظرون إلى الركب الذي بدأ يتحرك نظرات مفارق لا لقاء بعده وقد أحسوا بمرارة غياب زينب المزمع بعد قليل بعد أن بثت في نفوسهم قوة الإنبعاث الروحي وجددت في دواخلهم لمعان العقيدة الثاوية في أعماقها معلنة نجاح من فعَّلتها ، نافية بمرارة دوائها الشافي ألم الداء المصمت الجهيد .

لوحت الأيادي للركب الذي بدا وكأن هالة مشعة من جلال النبوة تحيط به ويكلله جمال الطهر البريء ويعطر شذاه أجواء المكان برافد نمير وثمدٍ فوار في صلب التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصافية .

ومضت القافلة في طريقها بين باكٍ ونائح ، وفي مرورها على الدساكر والقرى كانت الجموع تهرع لاستقبال المشرَّفة زينب وتستمع إلى روايتها للحدث وتتقبل منها ما تزرعه في أعماقها من بذور الثورة التي لن تطول حتى تدور على أهدافها المتنطعين

---

(١) للعلامة عبد الله العلايلي وصف لهذه الجراح ولا أجمل يقول فيه : وجراح البطولة لا تقذف في النفوس ضعف الألم بل كبرياءه ، ولا تلفها بذِلَّة التجربة ولكن بتجديدها في عزيمة تضاعفَت حقيقتها وتمددت في كل أشياء الحس ، فإن الألم مع الإيمان ظهور لذاتية الوجود بقوتها ، كما يكون الألم مع الجحود ظهوراً لذاتية العدم بتلاشيها .

فوق العروش دور الرحى وتقلق بهم قلق المحور فلا يلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس كما صوَّر لهم الشهيد «ع» نهاياتهم المحتومة .

تسامعت أمة أرض الكنانة بوصول عقيلات بيت النبوة وعلى رأسهم زينب ابنة علي بن أبي طالب والمعصومة فاطمة «ع» فهبت الجموع لملاقاتهن مستبشرين بالبركة التي ستحل على مصر من وطء أقدامهن الطاهرة ترابها ، وكان والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري قد توجه برفقة جماعة من أصحابه ورهط كبير من أعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها إلى قرية[1] على طريق مصر الشام ، ولما وصلت قافلة العقيلة تقدم إليها الوالي مسلمة يحيط به عبدالله بن الحرث وأبو عميرة المزنى فعزاها وبكى ، فبكت زينب وشاركها الحاضرون البكاء والعويل ، ولما رأت شدة تأثرهم قالت : « **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** » .

ولإظهار أقصى التكريم للعقيلة فقد أنزلها الوالي ومن معها في داره بالحمراء أملاً في استرداد صحتها بعد الوهن الذي أصابها جراء السفر والمحن التي مرت بها وسرعان ما تحولت الدار المضافة للمخدرات إلى محجةٍ لأهل مصر يغدون إليها ملتمسين بركة العقيلة ودعواتها ومنصتين إلى أحاديثها النبوية الشريفة محلقين مع بلاغتها[2] وأدبها الرفيع ومنطقها الساحر للعقول المدغدغ لإحساسهم الفطري والباعث لتوثبهم الإيماني .

وهناك في أرض الكنانة أمضت السيدة الجليلة أيامها عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تالية لآيات القرآن الكريم أناء الليل وأطراف النهار إلى أن بدأت صحتها بالاعتلال وأحنى ظهرها ثقل المصائب التي ابتليت بها .

---

(١) تدعى قرية العباسية نسبة إلى العباسية ابنة أحمد بن طولون وهي تقع شرقي مدينة بلبيس بمحافظة الشرقية .

(٢) يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز : «**وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** » سورة النساء الآية ١١

غروب الأضحيانة

« **ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** » هذا ما تمنته أم المصائب حينما مرت بيثرب في طريقها إلى المدينة عائدة من الشام وهي تندب أخاها الذبيح وذكرى تلك اللحظات تقطع نياط قلبها المنفطر ألماً المحترق بنار البلايا والرزايا ، كما دعت في ليلة عاشوراء قائلة : « **ليت الموت أعدمني الحياة** » حينما سمعت أخاها يردد : « **يا دهر أف لك من خليل** » ، ويبدو أن السماء استجابت لدعائها بعد كل تلك الأرزاء التي تحملتها حتى أصابها الكلال والوهن وفتَّ في أعصابها القلق الدائم على عترة أهل البيت الذين حملتهم كأمانة بعد رحيل كل أهلها ورجال بيتها الذين كان من المفروض توليهم مهمة حماية الأسرة والاهتمام بشؤونها .

وفي تمني العقيلة للموت ودعائها من ربها أن يعدمها الحياة .. ليس هروباً من قضاء القدر ومتوالية الأعمار وتدبير الله تعالى في خلقه .. بل لاطمئنانها إلى تمام دورها فيما كلفتها به العناية الإلهية ، وتنفيذها للرسالة التي تقاسمتها مع شريك كفاحها الحسين الشهيد الراحل «ع» لذا فقد خلدت بعد هذه الرحلة المضنية مع الإحن إلى البكاء والحزن والنحيب الدائم ، وكيف لا .. والذكريات ما فتئت ترجرج في ذاكرتها فتوقظ معها الأشجان وفي كل شجن شرقات غصص بالدمع الهطيل من شآبيب غيوم حزنها المتلبدة ؟ وهاهي في أرض الكنانة تضرب رحالها ، ويا لكثرة ما ضربتها فوق البقاع ومن صقع إلى آخر وكأنها مرصودة لكل الأمكنة والأمصار لتزرع فيها جزءاً من ثورة الإباء ولتدفن في تربتها بعضاً من ضنك ذلك الكفاح الممض الذي

لا يفتأ متربصاً بها تربص الواعية في مأتم البواكي والنوادب ، وهل في الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال والقرحة لا تنكى والوجع لايفنى والغم يتجدد على قدر ذكرى من اغتمده الثرى وغيَّب مع روحه روح من كان لحياته معنى ؟

نزف شرايينها ما زال حاراً جارياً كما يجري النيل الأزلي رغم تباعد أحداث المحنة يوماً بعد آخر .. ولكن هيهات أن تتباعد بعد أن استوطنت قلبها وعششت في حناياها ، ولاحظت الهاشميات ما اعتور سيدتهم من الإجهاد الذي صار واضحاً للعيان وبدت لهن في صورة أخرى غير تلك التي عهدنها فيها ، وصارت تصبح وتمسي وهي واجمة شاردة الذهن تتهجد طويلاً وتبكي مراراً ويطل الصبر(١) الواجم من عينيها متنافساً مع لوعة تكاد تفلل ما تبقى في أعصابها من قدرة احتمال ، وقد غدت تصل الليل بالنهار وهي مصلية ساجدة وتنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق فتؤدي الشكر لله ملتمسة يوم تصبُّر آخر .

إنها مؤمنة بسخاء الحياة رغم أنها غدت بالنسبة لها خاوية من المقاصد الكبيرة خلا مقصدها الذي وصلته ، وهي تشعر الآن في وجودها بأرض الكنانة أن خزائنها الروحية والنفسية ملأى بالكنوز والجواهر ، وأنها سوف يطرِّز لها التاريخ المقبل ألف عقدة وقطبة ، لكنها فيما تلا من أيام على المجزرة تحالفت أحزانها مع وهن لازمها فبدت منهدَّة الركن ناحلة البدن ، ساهمة الفكر ، شاردة الروح .

بكت(٢) كثيراً كما لم تبكِ امرأة من قبل ، تجرعت آلاماً لم يتجرع مثلها أحد ، عانت مصائب لو عاشها ألف رجل لانهد حيلهم وسقطوا صرعى بلا وناء ، وإذا كان الموت وذكر الغياب مخيفاً لدى البشر إلا أن زينب كانت تنتظره بلهفة وتتمناه بشوق في يومها قبل غدها .

---

(١) والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ـ الآية ١٧٧ من سورة البقرة

(٢) لقد بكت هاجر قليلاً فتفجَّر قلب الصحراء مشاركة ، وكان زمزم إلى اليوم يسقي الناس ، وكذلك بكت زينب ليتفجر زمزم المعرفة وزمزم الوعي « **ذِكرُ رحمة ربك عبدَه زكريا** » زمزم الذين يخرون مع آيات الله سجَّداً وبكيًّا ، لذلك فإن زينب بنت إبراهيم ، وبنت هاجر ، وأخت إسماعيل ، وبالعودة إلى قراءات السيدة زينب لسورة مريم يتبين كيف زمزمت الآيات وجعلت من وعيها زمزماً حياً جارياً ومعرفة دائمة ـ د.أسعد علي .

فلِمَ كل هذا الشوق ؟

لقد أولهها الشوق إلى أهلها في جنات الخلد ، كانت تتوق إلى لقيا أحبابها الذين رحلوا .. جدها المصطفى«ص» أبوها وأمها وأخواها وولداها ينادونها إلى لقياهم وقد اشتاقوا بدورهم لها ، رمز التضحية والصدق والشفافية الإيمانية ، لا سيما شوق أخيها الحسين الذي شهد معاناتها الصادقة وحدبها عليه ، وحمل معه إلى جنة الخلد جميل مساندتها لحركته وكبير تضحياتها من أجله في سبيل إيصال صرخته إلى من يجب أن تصلهم .. فكانت صرختها في الميدان وخلال السبي وأثناء مواجهتها لابن زياد ويزيد صرخة مشتركة مع صرخته في فضاء الكون ، صرخة متممة حملت أصداءها وبثتها في أركان الدنيا الأربع .

وهاهي تذوي في دارة الأنصاري وتزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، ويتضاعف شوقها للقيا من يهفو قلبها للقياهم بعد طول غياب وبعد أن أمضَّ الفراق قلبها وجفف مآقيها فصار بكاؤها نوحاً وحزنها كمداً معصوراً بين الضلوع .

لقد عصف الحنين بها إلى وجوه أحبتها ، وكما اشتاق أخوها إلى هذا الملتقى قبل خروجه من مكة فقال : « **ما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف** » كذلك أولهت هي إلى أسلافها إلى أن أوصلها هذا الوله إلى حافة الهلاك وهي الصابرة على بلاء ربها ليوفها أجور الصابرين ، وكغصن من قروم شجرة النبوة فلن تشذ عن لحمة جدها المصطفى بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده لذا كان انتظارها للموت توقاً للعبور إلى جنة الله المعدة لأهل البيت ، وستبلغ قمة سعادتها لحظة عروج روحها إلى الملكوت الأعلى .

وتعيش أيامها الأخيرة في مصر في الوقت الذي كانت المجتمعات الإسلامية التي شهدت أحداث كربلاء والسبي والعودة تتفاعل مع تحريضها على الأخذ بالثأر والذبِّ عن ثوابت العقيدة ، وتستعد لاستعادة وعيها الإيماني بعد أن ألقت زينب خواطرها كالصواعق بينها فأحدثت فيها رجة مرتجعة خلَّفت ارتدادات كارتدادات الزلازل بعد وقوعها .

وغداً أو بعد غد ليس في حساب الزمن ستشهد مجتمعات الظلم وعروش الظلام نتائج تلك الخواطر القدسية بتفجرات روحية واجتماعية كان للعقيلة فضل غرس بذورها الدانية القابلة للتفجر .

وأخيراً أزفت ساعة رحيل كنز الصالحات واستعدت البرايا بأسرها ومحافل الملائكة لاستقبال روحها الطاهرة في الخامس عشر[1] من رجب عام ٦٢هـ ، وكما استعدت الطاهرة لهذه اللحظات بالدعاء في قلبها بعد أن عجز لسانها عن الكلام وفتحت السماء أبوابها لاستقبال هذه الروح العظيمة ، وفرحت عترة النبي بقرب وصول محبوبتهم الأثيرة إلى جنانهم الخالدة .. كانت روح الحسين ترف إلى جانب جسد أخته الحبيبة التي رعته كابن لها وحافظت على ذريته وأعلت سنن ملحمته ورفعت رايتها خفاقة ، وألهبت القلوب بمعانيها ومراميها ، وقد غلا اشتياقه لملاقاتها في جنة الرضوان بعد رضاه عن دورها الكبير المؤثر .

القامة العالية من التقوى والورع رفعت رأسها بجلال فوق العالم حينما غمرت مياه السوء أرض السواد والبياض ، واتبعت الأجيال عبودية الذل أمام الطغاة يتوارثونها عن آبائهم فتنيخ نفوسهم أمام أشكالها الصماء العمياء وتنزلهم من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء فيتظاهرون بما لا يضمرون ، وقد جاهدت ابنة المطيبين لرفعهم إلى حيث يليق بمقامهم كبشر أحرار كما أرادهم الإسلام ، وقد نجحت في هذا الهدف أيما نجاح ، وأعدتهم كثوار واعدين لرفض الضيم وعشق المبادئ .

هذه الخواطر كانت تنتابها في لحظات نزعها الأخير مختلطة مع شريط الخروج والمذبحة والسبي وصولاً إلى آخر المحطات في أرض الكنانة ، فتشع لهذه الصور روحها وتهفو لختمتها بنور القرآن وسطوع العقيدة التي أفنت ذاتها لصونها والإبقاء على نصاعتها وتلألئها .. وفي هذه اللحظات التي وجمت بها الهاشميات بصمت حول فراش نزعها الأخير .. كانت زهرة النبوة في قمة افتنانها وسموها روحاً شامخة .

---

(١) تضاربت الروايات في تاريخ وفاتها .. فمنها ما ذكر أنها توفت في ١٤ رجب عام ٦٢هـ وذهب آخرون إلى أن وفاتها كانت في عام ٦٥هـ .

زهرة نبتت في حقل البشرية الشائك الموجع مسحها النبي «ص» بين يديه فتلألأت وهي رضيعة ، وهدهدها أمير المتقين علي ففاحت شذىً رسالياً ، وأرضعتها المظلومة فاطمة من ثدي العصمة فملأت الأرض نواراً وعبيراً وزهراً ، ولما شاركت أخاها الشهيد وسيد الشهداء في إبعاد عقيدة جدهما «ص» عن مهاوي الردى .. شكلت معه شعلة فكر لا يُتناهى مداه .

سنديانة[1] ضربت جذورها في حديقة النبوة وكانت صَناعَهَا والنبوة مصنعها وصرخة رسالية أحالت الباطل إلى رماد وذرته في مهب أعصارها الذي لم يبقِ ولم يذر حيث وصل ، موجة اتسعت واتسعت حاملة في اتساعها كلمة الله الخالدة مخترقة العواصف المتناوحة المستهدفة جوهر العقيدة ، فكانت أم أخيها مركز جاذبية البلاغة وهي وإن رمت بالزبد فلن يكون إلا حَبَاب المُثُل المتراكب لأنها هبة النبوة ورافعة رايتها الخفاقة .

زهرة النبوة التي حولت وحشة طريق الحق لقلة السالكين فيه إلى درب يغص بمحبي الحق ، وأبقت فضاءه خلياً من ضباب التوجس والشك فلا تمر به حَلْكة قاتمة ولا تجثم في منجاته ظلامية أو دُجنة ، وقد صرفت لهذه المهمة سوية أعصابها وصحة بدنها وعنفوان شبابها .

رأت المخدرات الهاشميات نوراً يرتسم على محيا عقيلتهم فتأكد لهن أنها في نزعها الأخير ، وأطياف أسرتها تتراءى لها من العلياء تستعجل خطوها إليهم ، ولاحظ الجميع كيف ارتسمت على ثغرها ابتسامة رضا بهذا المآل وهذه اللحظات التي طالما تمنتها رغم نشيج من تحلقن حولها وعويلهن الذي لم يكن يهدأ إلا ليتجدد .

لقد شعر كل من تبقى من أهل البيت بفداحة رحيل زعيمتهم التي ألهمتهم

---

(١) يصف العالم بستالوزي تربية الطفولة وتعهدها بالقول : تتمثل التربية بشجرة مثمرة بجانب جدول مياه جار ، وما أصلها إلا حبة صغيرة أودع الخالق فيها شكل هذه الشجرة وخواصها وأثمارها ، فلما غرست وتعهدها الزارع بما يساعد الطبيعة على عملها .. ظهرت تلك الحبة في شكل نبات ثم نمت وترعرعت حتى كبرت وأينعت وأثمرت ، وما هي إلا الحبة الصغيرة مكبرة نامية .

الصبر والشجاعة وكانت قدوة لهم في المصائب والشدائد ، أخرجتهم من التيه المضيِّع واليأس الممض ، وعلمتهم كيف ينفضون عن أنفسهم غبار بيداء المحن ويعلون على سراب الأوهام ويرتوون بينبوع النبوة وشعاعتها الخالدة والتي خصهم بها الله تعالى وشرَّفهم بحملها ، فمثلت بالنسبة للعترة المتبقية عبق الحقيقة المطلقة الذي ينفح ولا ينقطع ، ويفيض ولا يغيض ، وتسري فوقه الأهوية الهادرة فلا تفلح بتغيير شيء فيه وإنما يغير فيها ما استطاع .

وكان لابد وأن تحل اللحظة الأليمة ، وتتطلع العيون إلى المضجعة بهدوء وعلى وجهها سَمْت ملائكي وحول رأسها هالة من نور وضاء فتبدو للناظرين كأضحيانة[1] لا أبهى .

وهجعت بقية إرث السماء على الأرض

وهدأت جفونها عن الرفرفة

وفجأة وبعد لحظات صمت قصيرة علا نحيب الهاشميات الموجع .

بَقيتْ ببحر الحزن تسبح والأسى — بعد الحسين وللمنية تطلبُ
حتى انتهت منها الحياة وقلبها — سفر كبير بالشجون ومكتب
ماتت وما ماتت عقيلة هاشم — فلها الوجود من المهيمن موهب
فهي التي إن غُيِّبت في لحدها — فلها مواقف شمسها لا تغرب
دعها تُنعَّمُ في الجنان لعلَّه — يرتاح منها اليوم قلب متعب[2]

(١) الأضحيانة هو ما ينعكس من شعاع القمر في الليالي القمرية الصافية التي يشابه ضوؤها ضوء الشمس في ضحى النهار .

(٢) من قصيدة طويلة للشاعر محمد سعيد المنصوري نظمها بمناسبة وفاة العقيلة زينب «ع» .

رمزية تعدد مراقدها

باتجاه أية جهة يممنا وجوهنا تطالعنا مراقد السيدة الجليلة زينب «ع» ونحو أية بقعة ركزنا أسماعنا نسمع اللهج باسمها والإشادة بشمائلها النبوية .. لا يشاركها في هذه المشتركات والتبجيل سوى توأم روحها الشهيد الحسين «ع» .

ترى ما السر في ذلك لو أننا فكرنا في هذه الأمثولة الإلهية وتساءلنا : كيف يكون لشخص واحد أكثر من مرقد في أكثر من أرض بين الواحد والآخر ألوف الأميال وكيف يجمع المؤمنون على تبجيل هذه المراقد المتباعدة وتتنافس البقاع والأمصار على الافتخار بمثواها المتقدس بجثمانها الشريف وباسمها المشرِّف لأي مكان ذكر فيه ؟

في شرحنا لحكمة رمزية تعدد مراقد العقيلة لن نعيد سرد ما دونه التاريخ وحفظته الكتب من تفصيل لهذا التعدد ، لأن هذا الإيراد الموسع مكانه الكتب التاريخية التي أوفت حكاية المراقد حقها .. ولكننا هنا سنتطرق إلى هذه الرمزية المجهولة لنا كبشر حيث علمها عند رب العباد ، والتي يتقبلها ملايين المؤمنين المحبين للعقيلة العظيمة من المسلمين ومن اتباع كافة الديانات والمشارب العقائدية الأخرى الذين اطلعوا على سيرة هذه البطلة النادرة بين نساء البشرية ، وأعجبوا بتضحياتها الفائقة في سبيل المبدأ وصون العقيدة ، وثمنوا بتقدير كبير ما عانته من محن ومصائب في إيصال معطيات نهضة أخيها للناس وكيف استطاعت أن تصور لهم ببلاغتها ما حملته هذه النهضة من مثل وأخلاقيات ومناقب كانوا يفتقرون لها في حياتهم جراء ما أغرقتهم

فيه ضلالات ولاة الأمر وأصحاب السلطان والجاه ، وكيف قلبت قناعاتهم إلى النقيض .. من الشك إلى الإيمان .. من تبعية المفسدين الضالين إلى اللحاق بركب أهل البيت وركوب سفينتهم التي لا تغرق ؟!

ولعل اختلاف الروايات التاريخية قد تعددت وشملت سنة وفاتها وعمرها حينما رحلت ، وبقعة وفاتها ومكان مدفنها .. وهذا الاختلاف أولته الحكمة الإلهية عنايتها لتكون رمزية مراقدها تذكرة للناس في أكثر من مكان ليمجدوا مناقب صاحبة هذه المراقد ويظهروا عظمتها ويقتدوا بتضحيتها الفريدة من نوعها في تاريخ البشرية ويتعلموا من هذه القدوة المقدسة كيف يكون الدفاع عن الحق الإلهي بإيثار لا متناه يسترخص الروح ويستنهض القوة ويُفعِّل الجسارة الإيمانية ليقف صاحبها كالطود الصلب في وجه هادمي مداميك العقيدة حجراً بعد آخر .

قيل أنها دفنت بالمدينة المنورة ، ومسند هذا الرأي أنها عادت إليها بعد المذبحة ولم تخرج منها ، مع أن بعض الرواة أفادوا بخروجها ، وقيل أيضاً أنها توفيت في مصر ودفنت[١] فيها بالقرب من دار مضيفها الأنصاري وهو المزار الحالي الذي يؤمه الملايين كل سنة في يوم الأحد[٢] المصادف ليوم وفاتها.

وفي إيراد ثالث أن العقيلة توفيت في الشام ودفنت في قرية راوية[٣] بغوطة دمشق

---

(١) أيد هذا الرأي ابن عساكر وابن طولون والشعراني ومحمد الصبان وحسن العدوي .

(٢) وهو اليوم المبجل لدى المسلمين وغيرهم من اتباع الديانات الأخرى لأنه يجدد ذكرى وفاة فخر البرايا الحوراء زينب «ع» وتزدحم الأقوام في رحاب مرقدها الشريف ، وقد ذكرت في إسعاف الراغبين ولواقح الأنوار والشمراني والأتحاف بحب الأشراف ومشارق الأنوار أن كبار القوم مثل كافور الأخشيدي وأحمد بن طولون والظافر بنصر الله الفاطمي الذي كان يأتي حاسراً رأسه ومترجلاً دون مركوب ، كانوا يزورون قبر العقيلة في مصر ومنهم كثيرون يبقون بجواره إلى منتصف رجب يرددون الأدعية ويتلون القرآن الكريم .

(٣) هي قرية صغيرة في الجهة الشرقية الجنوبية من دمشق وتبعد عنها مسافة سبعة كيلومترات ، ومزار السيدة زينب يطلق عليه «**قبر الست**» وهو مبنى مهيب يقصده محبو العقيلة من كل حدب وصوب يرددون الدعاء ويطلبون الشفاء في رحابه وفي مرقدها الشريف مهوى الأفئدة ونجعة القاصدين ، وقد ذكره الحافظ الذهبي في كتابه تجريد أسماء الصحابة ، وابن بطوطة في كتابه رحلة ابن بطوطة ، وأبو البقاء البدري في كتابه نزهة الأنام ومحاسن الشام ، والشيخ حسن اليزدي في كتابه أنوار الشهادة ، والميرزا حسن خان المراغي في كتابه الخيرات الحسان ، والسيد جعفر بحر العلوم وآخرون .

ويعزو البعض سبب سفرها إلى الشام بحدوث مجاعة في يثرب فهجرها عبدالله بن جعفر مصطحباً العقيلة والعائلة إلى أرزاقه في الشام وقد توفيت هناك ودفنت فيما عرف بـ « **الست زينب** »[1].

وأياً كان مثوى جثمانها المقدس فإن هذا التعدد في مراقدها الشريفة له مغزى سماوي .. فهو هدية من الله تعالى للقديسة زينب عوَّضتها فيها عن عذاباتها المهولة الصادقة التي تجرعتها من أجل حفظ الرسالة المُنزلة من لدنه تعالى للبشر ، ولتدل الإنسان على أهمية ما قدمته من تضحيات استحقت عليها هدية من السماء وتكريماً وإجلالاً غير مسبوق وغير ملحوق .

وإنها لحكمة علوية أن يقابل هذا الإجلال للعقيلة ولأخيها الحسين «ع» إندراس قبور من أساء بعظيم السوءات ، أولئك الذين اضطهدوا أهل بيت النبي «ص» وشردوهم وأخرجوهم من ديارهم واعتدوا عليهم كما اعتدت اليهود على السبت أولم تقل وهي مسبية مستقرئة المستقبل الآت : « **المستقبل لذكرنا والعظمة لرجالنا والحياة لآثارنا ، والعلو لأعتابنا ، والولاء لنا وحدنا** » ؟ فهل تمردت القرون على هذا الاستقراء بنقض ونقيض .. وهل وافقت الدهور عليه كتعبير أم زادت عليه واقعاً ولا أسطع ؟

فلنتأمل حكمة الله كيف أنه بعد ١٤ قرناً كان المستقبل الذي غدا الحاضر لذكر أهل البيت مرهوناً والعظمة لرموزه وقفاً عليهم .

وكيف غدت آثارهم تضج بالحياة ، وكيف تحولت كل ذرة تراب وطئتها أقدامهم

---

(١) تشرفت بزيارة مقام السيدة زينب «ع» عام ٧٧ قبل سنوات من صيانته الموسعة ، وزرته ثانية عام ٢٠٠٨ بدعوة من قناة أهل البيت حيث صورنا في رحابه برنامجاً عن حياة العقيلة وكفاحها بعنوان « **سر الخلود** » وفي عام ٢٠٠٩ كانت زيارتي الثالثة حيث شاركت مع إخوة كرام في برنامج خاص لتلفزيون المنار بعنوان « **أميرة الشام** » شارك فيه كل من الشيخ حسين أحمد شحادة ود. انتصار راضي من البحرين وخولة القزويني من الكويت ، وقدمته حياة الرهاوي في بث مباشر على مدى ساعة ونصف الساعة ، وافتتح بمشاهد تمثيلية رائعة عن ولادة العقيلة «ع» وتسميتها ، وكان برنامجاً حافلاً بفضائل صاحبة المقام المشرَّف ، ثم كانت زيارتي الرابعة عام ٢٠١٠ بدعوة من تلفزيون المنار تشرفت خلالها بتقديم ثلاث حلقات عن العقيلة وتضحيتها الفائقة في باحة حرم مرقدها الشريف وعُرضت تباعاً في مناسبة عاشوراء في نفس العام .

الطاهرة إلى عتبات[1] مقدسة تحج إليها الملايين[2] من كل فج عميق يستذكرون كربلاء رمز الكرامة والإباء ويذوبون في هذه الذكرى بشوق هيولي لا مزيد عليه .. شوق ينقلهم من واقعهم الدنيوي المليء بالتخاذل والأطماع والمخاوف[3] من الجهر ضد الظالم إلى ذرى عالية تعلو الغيوم علواً وشفافية وسمواً قدسياً يتجردون معه من كل ما يشدهم إلى درك خنوعهم ومهاوي أرواحهم فيجددون ولاءهم للقدوة الخالدة المتمثلة بأهل البيت «ع» ويعاهدون قديستهم زينب خاتمة كفاح تلك الصفوة القدسية التي خصها الله تعالى بحمل رسالته والحفاظ على أمانتها والاستشهاد دون اهتزازها فكان كفاحها خاتمة لتلك المسيرة النبوية الخالدة التي بدأها جدها المصطفى «ص» وتحملت عترته من بعده شرف حمل عبئها الثقيل الذي زاده ثقلاً جحود المرجفين وعداوة الكافرين بنعمة الله على عباده بإنزال رسالة الإسلام لهم لتشفي نفوسهم وتنتشلها من وهدات السقوط في مستنقعات الضلالة التي أعدها لهم سلاطين الظلم والجور .

فلاعجب إذن أن تقدس الملايين مراقد السيدة زينب وتتشرف برمزيتها في كل مكان ، كما تقدس رمزية مراقد أخيها الحسين «ع» فهي المنارات الباقية على مر الدهور لتخبر عما كان من الوحي الإلهي الذي استنطق لسان العقيلة عليها السلام فرأت ما سيكون قبل كينونته التي تحققت بالصورة التي استقرأتها ، فكان الخلود لأهل البيت وفي المقابل فإن ما وعدت به يزيد حينما حاججته قائلة :

---

(١) العتبة في القاموس هي أسكفَّة الباب والمرقاة إلى المكان وجمعها عَتَب وعَتَبات وفي هذا المضمون اللغوي جاءت تسمية العتبات المقدسة من كل مكان وطئته أقدام أهل البيت «ع» .

(٢) لم تشهد عتبات ومراقد وأماكن الحج لكافة الديانات مثل تلك الأعداد الفائقة التي تشهدها مزارات زينب والحسين وفي هذا أمثولة إلهية نشكر الله عليها نحن البشر لأنها تحمل مغزى اصطفاء الرب لهذين الشهيدين الخالدين اللذين تصديا لتحريف العقيدة تمهيداً للقضاء عليها وجعلها نسياً منسياً .. فسبحان الله في تدابيره التي تفوق إدراكنا البشري .

(٣) لذ في الشدائد بابنة الزهراء — واقصد حماها توق كل عناء
هي زينب ذات المقامات العلا — وكريمة الأجداد والآباء
مقامكم في مصر كعبة أهلها — يأتونه زمراً من الأنحاء
فإليك بعد الله أشكو علتي — فالداء أعضلني وعز دوائي

« فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند ، وأيامك إلا عدد ، وجمعك إلا بدد يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين» قد تحقق بحذافيره .

ولنجل عيوننا إذا كنا غير مصدقين بحثاً عن قبر يزيد لنجده في أحد أزقة الشام بل في خرابة بلا سقف ملأى بالقاذورات وبقايا الأخشاب اليابسة وقطع التنك الصدئة التي ملأتها مثانات القطط الضالة نجاستها ، ولدى مرور الناس على هذه المزبلة التاريخية يرمونها بالحجارة ويبصقون على تلك العظام النجسة التي تضمها تبرؤاً من يزيد وظلمه المنكر بحق أهل بيت نبيه وقتله لسبطه الحسين وإهانة أخته زينب وبقية حرائر أهل البيت عليهم جميعاً السلام ، في حين يؤم الملايين إلى مكان رأس الحسين في الجامع الأموي الذي يفصله عن خرابة قبر يزيد أزقة قليلة في حي النوفرة ذي البناء القديم ، ويتقاطرون إلى داخل المزار زرافاتٍ ووحداناً يتبركون بلمس قضبانه ويقبلون جدرانه وعتباته ويلقون بالنذور والتبرعات .. فأين هذا التكريم للحسين من تلك المهانة والاحتقار ليزيد في عقر داره ؟!

وهــذه زيـنـب بـالأمـس تحسبها ... في غوطة الشام من أسرى فلسطين
فـأيـن قـبرُ يـزيـد هـو في كنفٍ ... أو زقٍ صهباء في الحانات مكنون[1]

ولله في خلقه شؤون .. فتلك الأسيرة المكلومة بذبح أخيها وولديها وعترة بيت جدها المصطفى «ص» والتي دخلت الشام بمهانة ليس بعدها مهانة وبحزن لا يماثله حزن وهي مغلولة تسير في موكب السبي خلف رأس أعز مخلوق على قلبها أخيها الشهيد الخالد أبي عبد الله تطوف وراءه البلدان والدساكر وهو على سن رمح كيف عادت إلى الشام[2] وطلعت شمسها الباهرة هناك وفردت سناها بتجلةَ ليس بعدها تجلة ، فمن كان يظن ساعة دخولها باب الساعات متقدمة ركب المهانةً بأن تكون لها

(١) من قصيدة للشيخ عبد المنعم الفرطوسي .

(٢) يقول الشاعر مخاطباً يزيد وأباه :

أبـا يـزيـد ويـا يزيـد سليـلـه ... قوما انظـرا والطـرف باكٍ أرمدُ
حرم العقيلة زينب في أرضكم ... عظة لكل حكيـم قـوم يرشـدُ

في هذه البقعة تلك المكانة التي لم تبلغها مكانة في سفر الأديان وفي تاريخ الإسلام بالذات .. وأين ؟ في أرض مضطهديها ومحقريها ورماة سهام حقدهم على ما تمثله من شرف وكرامة شجرة النبوة بحيث كانت هدية السماء لها اندراس آثار أولئك الحاقدين وعلو مرقدها الشريف في عاصمة أعداء الإسلام الذين حسبوا أنهم أطفأوا شعلته بفعلتهم الشنيعة في كربلاء وقبلها وبعدها ، فكان أن أوقدها الله وأشعَّها بنوره فكانت للناظرين إليها نشوة روحية مفعمة بكل ما هو قدسي ، ومناراً يهدي من أعماه الحَلَك وأضلَّته الخطى العمياء .

فاضرب بطرفك أين باني مجدها	**ثاو بأية حفرةٍ أو زاوية**
وانظر إلى القبر المَشِيدِ ضريحه	**ساميَ الضُّراحِ علا بمثوى الزاكيه**
ذيَّاك حكم الله يأبى عدله	**إلا الإحاطةَ بالعروش الخاوية**
وتكون عُقبى الدار تبقى دائماً	**للمتقين وللعتاة الهاوية**
فأسيرة الماضي تحطم هيكلاً	**ذَرَّ الرمادَ فما له من باقية**
وتقيم قِمَّتَها برغم أنوفهم	**في أرضهم حيث القطوف الدانية[1]**

ولعل في هذا المقتضى الإلهي الذي خص به الله تعالى أصفياء أهل البيت «ع» تكريماً لهم عما بذلوه من الدماء والآلام وما تحملوه من عذابات وضنك ومهانة في سبيل ترسيخ الإيمان في نفوس الخلائق ، وهذا ما جرى على لسان المصطفى «ص» حينما خاطب علياً وكأنه يقرأ في لوح محفوظ : « **يا أبا الحسن إن الله تعالى جعل قبرك وقبور وُلْدِك بقاعاً من بقاع الجنة وعَرَصة من عرصاتها ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوةٍ من عباده تحِن إليكم وتحتمل الأذى والمذلة فيعمرون قبوركم ويكثرون في زيارتها تقرباً منهم إلى الله ومودة منهم لرسوله ، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي الواردون حوضي وهم زواري غداً في الجنة ، يا علي من عمَّر قبوركم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داوود على بناء بيت المقدس ومن زار قبوركم عَدَل ذلك ثواب سبعين حَجةً بعد حجة الإسلام** » .

(١) قصيدة للعلامة السيد محمد مهدي الخرسان .

وهكذا مقتضى جمع في معانيه قابليات لا حدود لها وإشراقات علوية وتمم فكرة السماء في الأرض وبين البشر ، فيوم زينب والحسين وعد كرست فيه النبوة نبوءاتها فلا عجب مما نرى من تعدد مراقد أحباب النبي «ص» ولا غرابة في ذلك الورود البشري بملايينه نحو نبعات ذلك النهر النمير ذي الماء العذب الفرات الذي يشفي الصدور العطشى ، فما كل ذلك إلا إثبات لخلود معنى النبوة في روحية الإنسان وطبع لمبدئها في وجدانه .

يـازائـراً قـبر العقيلة قـف وقل — مني الـسـلام عـلى عقيلة هاشم
هـذا ضريحـك في دمشق الشام قد — عطفت عليه قلوب أهـل العالَم
هــذا هـو الحـق الــذي يعلو ولا — يُـعـلى عليه بـرغـم كـل مخاصم
سَـلْ عن «يزيد» وأيـن أصبح قبره — وعليه هـل مـن نائح أو لاطـم ؟
أخـــزاه سـلـطـان الهــوى وأذلَّه — ومشى عليه الدهر مشية راغم[1]

* * *

(١) قصيدة للشيخ محمد باقر الإيرواني .

الفصل السادس

ملحمة الظفر

مرحلة الندم

الشرارة البسيطة التي قدحها سيد الشهداء «ع» في أرض خلاء كان يخطط لها الحاقدون ألَّا تراها عين ولا يسمع بخبرها سامع ، لاسيما أنها قُدحت في صحراء شاسعة تضيع في فيافيها أضخم الشُعلات الوقادة ، ولا تصل مساحاتها الشاسعة أي نأمَةٍ خافتة من أعلى الصيحات ، في وقت كانت تملأ فيه السماء شُعلات وهاجة يعمي وهجها الأبصار ، أضرمها في العقول قبل الأبصار مالئو الدنيا ضلالاً وتحريفاً ، أولئك الذين وجهوا جهدهم إلى التفاصح وتشقيق الكلام وتمييع المعاني وقد بلغوا بها منزعاً بصرف أذهان العامة عن المقاصد الصحيحة للأمور .

ولقد جهد الطبالون والنافخون في أبواق الولاة جهدهم طمعاً في أعطياتهم وخوفاً من بطشهم لذا فقد تفانوا وتفننوا في قلب الحقائق وإحلال الأباطيل محلها ولي عنق الوقائع حسب مشتهى من يدفع لهم وينافح عن مصالحهم الذاتية ، وكانت دوافعهم شخصية بحتة يتحيف جوانبها المقصد النفعي الآني فلا تعرف خلقاً أو اتساقاً بل كان قصارى آمالها التشويش والبلبلة .

لكن حكمة الله أقوى من تدابيرهم الباطلة إذ ما أن غادرت زينب الشام قاصدة المدينة حتى بدأت تفاعلات الندم في قَرْص الحشايا والصدور ، فاستجابت لها أفئدة المسلمين في الشام وفي كل الدساكر التي مر بها السبي في الذِهاب والإياب وهزت أركان البيت الأموي ، وكانت البوادر من يحيى شقيق مروان بن الحكم وقد أعلنها

بلا خوف ولا مواربة أمام يزيد في مجلسه ، ولم يتورع عن شتم ابن زياد أمامه حيث أنشد بعدها بلوعة وصوت حزين :

لهــامٌ بجنب الـطـف أدنــى قرابة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغلِ
سمية أمسى نسلها عـدد الحصى ... وليست لآل المصطفى اليوم من نسل

ولم يكن موقف يحيى تزلفاً أو نفاقاً بل كان إرهاصات نفس عطفت على مظلومية نبيه وأهله فاستنكرها لسانُه في موقف كان يمكن أن يؤدي به إلى مهاوي الردى وهذا التفاعل الوجداني حرك أعماق عاتكة ابنة يزيد فحزنت أشد الحزن وهي ترمق رأس الحسين من بين دموعها وتقدمت غير آبهة بنظرات أبيها المتقدة لتحتضن الرأس بحنان بينما يزيد ينظر إليها متحرقاً وما لبث أن حرك يده ناحية الرأس طالباً منها الابتعاد .. لكنها فعلت العكس وهرعت مسرعة إلى قوارير طيبها وأحضرتها ثم طيبت رأس الإمام بكل الطيوب ففاحت في الجو رائحة زادت الموقف حناناً ، فما كان من يزيد إلا أن هب واقفاً وهو يردد : « **كفى كفى يا عاتكة .. اتركي الرأس وشأنه** » وما أن هم بالمغادرة حتى احتضنت الرأس مجدداً والدموع تترقرق في مآقيها وقالت نادبة محضونها بقولها : رأس عمي[1] .

لقد أثارت يزيد مواساة أهل بيته في الحسين وحزنهم على مقتله واستنكارهم لفعلة أبيهم بالإمام وببقية بيت النبوة من الحرائر والأطفال ، وما أثار حنقه التام موقف زوجته هند[2] التي لم تستطع كتمان ألمها بعد معرفتها أن رأس الحسين موضوعاً بين يديه فتقنعت بثوبها وخرجت صائحة هائجة النفس مستفظعة فعلته الشنيعة .

وكان هذا القاتل المخاتل يحاول إبعاد تهمة قتل سبط رسوله بتنصله من وزر جريمته وحريصاً على عدم لفت الأنظار إلى كتبه التي أرسلها إلى واليه الوليد بن عتبة بأخذ الحسين أخذاً لا رخصة فيه طالباً منه إن أبى البيعة ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه .

---

(١) ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي ـ الكامل في التاريخ ص ٨٥

(٢) هي هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز .

وإمعاناً في أفكه وتمثيله الذي لم يقنع أحداً بعد أن لمس استياء الناس واستنكارهم لفعلته الشنيعة .. صار يستغل كل مناسبة أو موقف ليعلن ندمه على قتل أبي عبد الله ولكن أنَّى له ذلك وقد عاين أهل الولايات والدساكر موكب السبي المهين تتقدمه الرؤوس بمشهد تقشعر لمرآه الأبدان ، ورغم تسامع الناس وتبينهم حقيقة ما جرى بعد خطب العقيلة زينب «ع» إلا أن يزيد بدا وكأنه استمرأ لعبة الإنكار وتحميل أوزار المجزرة لعبيد الله بن زياد وقد حرص على مخاطبة رأس الحسين على مسمع ممن حوله قائلاً :

« والله يا حسين لو كنت أنا صاحبك ما قتلتك »

كانت هذه الأقاويل تتكرر حتى كاد يزيد أن يصدقها[1] وصار يبدي ندمه في كل سانحة على قتل الحسين ومما قاله في إحدى جلساته :

« وما عليَّ لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين في داري وحكَّمته فيما يريد ، وإن كان عليَّ في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله «ص» ورعاية لحقه وقرابته ؟ لعن الله ابن مرجانة فإنه اضطره وقد سأله أن يضع يده في يدي أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله .. فلم يجبه إلى ذلك .. فقتله ، فبغَّضني بقتله إلى المسلمين وزرع في قلوبهم العداوة لي فأبغضني البرُّ والفاجر بما استعظموه من قتلي الحسين ، مالي ولابن مرجانة؟ لعنه الله وغضب عليه » .

كما سُمع ذات يوم يقول :

« إن سلطنة الحسين كانت أهون عليَّ من هذا المقام العالي الذي فاز به آل علي وبنو هاشم » .

إلا أن ندم بني أمية لم يقتصر على من عاصر منهم زمن الواقعة بل امتد إلى ذراريهم وأعقابهم ، فها هو معاوية الثاني ابن يزيد يرفض الجلوس على عرش أبيه

---

(١) من أصعب المواقف طراً تلك التي يواجه بها الإنسان نفسه .. ويقول العالم الإيطالي ألبرتو بونتي إن الخاطئ بحق غيره والفاعل خلاف الضمير يحاول خلق الأعذار لتبرير خطئه ويتخذ من أي فصل من فصول غلطته مَشجباً يعلق عليه النتائج المخزية ، وفي حالة يزيد فإنه وجد هذا المشجب المشترك في ابن سمية وابن مرجانة !

متبرئاً أمام حشود كبيرة من ممارسات جده معاوية وأبيه يزيد ، وأعلنها صريحة بأنه يرفض التربع على عرش[1] ملوث بدماء سبط النبي وأهل بيته الكرام ، ومؤكداً في الوقت ذاته حبه للحسين وحمل شعلة ثورته والعمل بمبادئه حيث قال :

« أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله «ص» وهو علي بن أبي طالب » .

وتتفاعل مشاعر الندم حتى في أسرة ابن زياد حيث سجل التاريخ أن أمه مرجانة بعد علمها بما جرى سخطت عليه وأنزلت غضبها فوق رأسه موبخة إياه على فعلته الشنيعة قائلة : « **يا خبيث قتلت ابن رسول الله ..؟ لا رأيت وجه الله أبداً** » .

ولم يشذ أخوه عثمان عن موبخيه وفاتحه بصريح العبارة وبأعنفها :

« والله لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن الحسين لم يُقتل[2]».

ويستمر مرجل الحيف والندم في الغليان وتتأجج حمم الضمائر تأسياً على ما جرى لأهل البيت ، وصار كل مسلم يعتبر نفسه شاهداً متخاذلاً حقٌ عليه التحسر والملامة وبعد صرخة[3] زينب المجلجلة في أودية النفوس الغافية .. استفاقت الضمائر من سباتها المكلكل وخدرها العميق ، وكان من ضمن المستيقظين عبد الملك الذي كتب للحجاج : « **لا تعرض لمحمد بن الحنفية ولا لأحد من أصحابه ، جنبني دماء آل أبي**

---

(١) لقد أجمع سيجموند فرويد ومحللون نفسيون من دارسي الطبائع البشرية في الجامعات الغربية كما أن ابن خلدون لم تفته الظاهرة التي سنوردها بعد هذه العبارة..من ان الضمير البشري حاكم صارم وعادل ، وفي استيقاظه يستنهض معه كل الأفعال الخارجة عن ناموس الطبع البشري ، مثل القتل والاضطهاد والتعذيب والتهجير والمهانة ، ويرى خبراء الاجتماع هؤلاء أن أي فعل من هذا القبيل تقابله ردات فعل مساوية له في العنف والشدة حتى لو جاءت بعد حين من ارتكاب الفعل ، وهذا ما أسموه في علم النفس بـ « الارتداد الشعوري » المضاد لمبدأ الخطيئة والخطأ .

(٢) الطبري محمد بن جرير تاريخ الأمم والملوك .

(٣) لقد حمل الحسين «ع» ثقله إلى أرض المصارع ليكونوا شهوداً على الأحداث .. وكانت زينب وحرائر أهل البيت خير شهود واستطاعت العقيلة برقتها وإحساسها الأخوي الفائق أن تختزن المأساة وتختزل الحزن وتبثه دموعاً واهتزازات مشاعر تفاعلت معها الصدور ودمعت لها العيون تيمناً بقول الرسول «ص» : **ولدي أنت قتيل العبرة.**

طالب فليس منها شفاء من الحرب» .

وتوالت الاستجابات ليقظة الضمائر .. وها هو هشام بن عبد الملك بعد علمه بمقتل زيد بن علي وولده يحيى أن أظهر الحزن عليهما وصار يردد : « **وددت لو أني كنت أفتديتهما** » .

ولم يكتفِ الوليد بن عبد الملك بموقف الندم بل أقدم على تصرف يظهر ندمه للعيان إذ اقتطع قرية الحميمة في إقليم البلقاء بالأردن لعلي بن عبد الله بن عباس جد أبي العباس وأبي جعفر وأنزله فيها معززاً مكرماً مستجاب الطلب .

وتظل جرثومة الندم تتفاعل في نفوس بني أمية وتفرِّخ في حنايا صدورهم إلى أن يأتي مروان آخر خلفائهم قبل اندثارهم في العدم ليمتنع عن شتم ولعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ولم تكن إرهاصات الحقيقة الدامغة التي حوَّلها بني أمية إلى باطل يعلن عن نفسه يوماً بعد آخر كلما تفاعلت عوامل الندم والكراهية للطغمة الحاكمة التي خط إثمُ العاشر من محرم خطَّ نهايتها الحتمي ، لتقف عند حدود تلك الطغمة .. بل سرت عدواها إلى المسلمين[١] كافة في طول الولايات الإسلامية وعرضها التي وصلتها جلجلة الصرخة الزينبية واستجابت لها بعدة مراحل :

أولاها : مرحلة الحزن والتأسي على مصاب الحسين وأهل البيت .

ثانيها : مرحلة الندم والتحسر عن التخاذل وعدم النصرة .

ثالثها : مرحلة الغضب والحقد[٢] على طغمة أمية الذين استهانوا بأهل البيت

---

(١) يرى الدكتور حسين التكمه جي أن ثمة عدة مداخل للولوج إلى الرحبة الواسعة في محاضن علاقة الفرد بالطف الحسيني للتأثيرات الوافرة التي أفرزتها الملحمة على الصعد الدينية والاجتماعية والتاريخية ، ووفرت بتفاصيلها انزياحاً عن المآسي الحقيقية ووروداً نحو المأساة .

(٢) يرجع العالم الإيطالي « الدوميلي » في كتابه الموسوم بـ « حضارة العرب الأولى » إلى أن قصة كربلاء عملت على شق الصف لدى مسلمي ولايات الشام الإسلامية ، إذ رأى فريق بأن قتل الحسين « ع » لم يكن إلا عداوة سبعية لا مبرر لها ، وأن أخذ البيعة ليزيد بهذه الكيفية قد أحدث شرخاً في الجسد الإسلامي عجز الحكام آنذاك عن تبريره وتسويغه للعامة .

واستسهلوا قتل سبط نبيهم ورفع رأسه على سن رمح ووضعه بمهانة أمام متكأ يزيد الفاسق .

هذه المراحل أدت في نهايتها إلى التمرد على الدولة وإظهار مثالب ذلك الحكم المعادي للعقيدة ، فضعفت هيبة السلطة وتخلخلت أساساتها المزيفة التي تدعي الخلافة والتقوى بينما تعمل على تقويضها قولاً وفعلاً .

وحينما ضرب زلزال الضمائر خفق القلوب واهتزاز المشاعر .. لم يعد ثمة أثر لتبريرات المؤولين برد سقوط أمية إلى تعصبها للعرب الذي أفضى إلى تنمية الحقد في نفوس الموالي - المسلمون غير العرب - ولا الوقوف عند القول أن هناك فئة اتخذت من مقتل الحسين ذريعة لإحداث بلبلة وإخلالٍ بالأمن ، لكن إرهاصات حادثة الطف كانت قد بدأت تسري في الأمصار فلم تقفٍ أمام سريانها تلفيقات مفتعلة تُهوِّن من نتائج مأساة عاشوراء .. مثل القول أن سقوط أمية كان نتيجة للتفاخر بين قيس واليمن ، أو مرده إلى مصرع الوليد بن يزيد ، وفي منحى آخر إلى ربطه بدعوة الخوارج وإلى جهل عمر بن عبد العزيز بثوابت السياسة ودوائرها .. بل أن حلقة النفاق المحيطة بأحوال الأمويين كانت قد تمزقت ، وأبانت باطلهم المستور وفصلت بإدراك لا يحد بين ملف الإسلام وبين ملفهم ، كما ظهروا للناس كمختلسين سرقوا الخلافة ، وكقتلة لعترة النبي التي اختار لها قائدها الحسين «ع» مبدأ الشهادة في سبيل ذَبِّ الأذى عن العقيدة ، ورفع المظالم المبثوثة من العروش العفنة عن كاهل الأمة والنأي بروحية السُّنة عن موارد العبث .

فكيف لا تؤول الأمور إلى ما آلت إليه بعد مرورها بالمراحل المؤدية إلى هكذا نتيجة .. وهل تنفصل مُسَلمات اتصال البداية مروراً بالمسار وانتهاءً بالخواتيم ؟

بداية ومسار وخاتمة تطابقت كما أرادها بادؤها ومُختتمها «ع» أليس هو القائل لمناجزيه يوم عاشوراء : « **إنني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم** » وهل بعد هذا التوكيد الثابت قول بأن سقوط أمية لم يكن نتيجة خالصة للعنةِ كربلاء عليهم وعلى ذراريهم وأفاعيلهم النكراء ؟

ولعل لسان حال المسلمين بعد الواقعة كانت قد عبَّرت عنه قريحة الشاعر تصف حالة القناعة الجديدة التي تولدت في القلوب والرؤية المغايرة لصورة أمية في العيون التي انعكست مبرزة مثالبهم وتجنيهم على العقيدة وعلى أهل بيت من أنزلت عليه في هذه الأبيات :

يبيت النشاوي من أمية نوَّماً ... وبالطف قتلى لا ينام حميمها
وما ضيع الإسلام إلا قبيلة ... تأمر نوكاها ودام نعيمها
وأضحت قناة الدين في كف ظالم ... إذا أعوجَّ منها جانب لا يقيمها
فأقسمت لا تنفك نفسي حزينة ... وعيني تبكي لا يجف سجومها
حياتي أو تلقى أمية خزيةً ... يُذل لها حتى الممات قرومُها[1]

لقد تمزقت أواصر حكم بني أمية وتخلخلت عروشهم النخرة من تحت أقدامهم وبدا أن التآكل المؤدي إلى السقوط قد بات وشيكاً ، وهذا ما عبرت عنه كلمات العباس بن الوليد لأخيه بشر حينما حرضه على خلع الوليد ومبايعة يزيد ، إذ رد عليه في عبارة توكيدية :

« **يا بني مروان إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم** »

وأرفق عبارته بأبيات شعر حذر فيها من مغبة سياسة بني جلدته الأمويين قائلاً :

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفعُ
إن البريَّةَ قد ملَّت سياستكمٌ ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تبقرنَّ بأيديكم بطونكم ... فثمَّ لا حسرة تغني ولا جزع

فإذا اعتمدنا مبدأ التحليل المنطقي لمجريات الأحداث وتفاعلاتها الميثولوجية كما في الملاحم التاريخية الكبرى .. لوقعنا على كربلاء أُم الملاحم واعظمها أثراً في تاريخ البشرية ، فكيف إذا دعمت دعائمها بالاستقراء المغيَّب الذي لايظهره الخالق إلا على من ارتضاه من أصفياء خلقه ؟

---

(١) قصيدة لعبيد الله بن الحر الجعفي استقرأ فيها نهايات أمية .

ألم يخاطب الحسين «ع» قاتليه عارضاً أمام أبصارهم المدماة نهاياتهم الوشيكة حينما قال :

« **أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور**[1] »

فهل لبثوا حقاً لأكثر من وقت ركوب الفرس قبل أن تدور بهم دور الرحى وتقلق بهم قلق المحور؟

ولقد فعلت قدسية الهدف الذي وضعه الحسين نصب عينيه ومضى لتنفيذه فعْلها في النفوس فاستجابت لها بعصفٍ روحي شفاف لا ينضب معينه ، فكان هذا العصف الذي سرى في عطفات بنيٍ أمية مقدمةً لعصفٍ متتالٍ تردد صداه في كل أرجاء الولايات الإسلامية فتألبت بفعله نفوس المسلمين وارتدت ضمائرهم إلى النبع الصافي ذي الماء النمير لترتوي بعد عطش روحي ، ولتهتدي بعد ضلالة مضيِّعة نبراسهم إلى الاهتداء إليه وتبيان موقعه صرخة زينب العظيمة التي طبقت الآفاق وسدت على الآذان ولولات الضلالة فلم تعد تصلها إلا مخنوقة مشوشة إلى أن استقامت الأسماع واستكانت لصوت الحق الذي جلجل من بين شفاه العقيلة «ع» وانداحت كما تنداح غيوم الصيف من سماء العقيدة فبانت زرقتها الصافية بعد أن عمت خُطَّتها ، وخصَّت بليَّتَها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ من عمي عنها[2]، فكان ما كان إلى أن قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وضاقت الأنفس بضلالها بعد استعذابها جماليات الحق الإلهي الذي تناسته مرغمة أو طائعة ، فاعترى الضلال الضمور شيئاً فشيئاً في دواخلها إلى أن لفظته خارجها[3] ، كما تُشتت أوراق الخريف الهشة موجات ريح صرصر.

وهكذا فإن أي رأي يبعد سقوط عرش أمية عن جريرة كربلاء فيه إغماط

---

(١) يقول الله تعالى في كتابه العزيز : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** » سورة الجن .

(٢) نهج البلاغة ص ٤

(٣) **لولا صوارُمُهم وقطع نبالهم ... لـم تسمـع الآذان صـوت مـكـبِّر**

للملحمة الخالدة ، وتقليل من عنفوان فعاليتها في الصدور ، وعدم فهم لموحياتها وضعف شكيمة وتبصر على ربط النتائج بالأسباب ، ففي حلكة الظلام وحينما يدلهم ديجوره فإن رعشة نور تفتح العيون على الأشياء ، وكلما ازدادت الحلكة كان للرعشة مضاء أقوى ، فكيف إذا كانت هذه الرعشة شعلة نور وضاء سطع في الأفق المظلم وفرد سناه ليهدي عمي البصائر إلى دروب الحق الموحشة ليشجعهم على السير فيها باطمئنان وجسارة بعد تخبط فوق منعرجات تحف بها الأشواك وترتع بين إبرها السامة الأفاعي وتتلطّى في منعطفاتها الوحوش والضواري لتحيل مِجَنَّهم رَهنَ رواكض الخطوب ؟

لقد هزت ثورة الطف كيان المسلمين هزاً عنيفاً ظل يتكرر لدى كل حركة وصرخة لزينب «ع» بعد المجزرة .. إلى أن خلخل قيد الأعناق فتحررت من أساره واستكان لها محض ضمائرهم فخشعوا لسَمْته وأصاخوا لندائه فكانت الاستجابة لا غرَّة ذاهلة ولا نهزةً سانحة بل تحولاً لا التواء فيه أعادهم إلى خط مستقيم يستوثق إرادتهم ويقبل نصرتهم بعد تقطع وشائج قلوبهم مع العقيدة وبعدما مسَّهم من طائف الشيطان وما نزعهم من أمره ، فغدوا أهل عمل بالإحساس المنزه لا بالخطل الطامع في المغريات .

وإنه لمن معجزات الثورة المقدسة إخراجها لأولئك العابدين لمنازلهم الاجتماعية وأهوائهم الدنيوية ، المستقرون على عرف سرى بهم دهراً .. إلى طلعة سامقة أشرفوا من عليائها على دركهم الأسفل الذي كانوا أسيري أغلاله .

ومن العجب العجاب سحر بيان الحوراء زينب الفائز في إدارة مفتاح التوبة في أقفال نفوس أكلها الصدأ فأعادتها إلى وتيرتها الفطرية الأولى مصقولةً لماعة وكأنها دارت معهاً في الأصلاب دهراً ، وردَّت عليها من السجايا الروحية ما لا يتهيأ إلا في جيل بعد جيل لا في مجايلي أبطال المحنة وحسب بعد كل تلك التلال من الممارسات المرذولة ، والطباع الممزوجة والتي يستلزم لإزاحة واحدة منها آماد طويلة ، ولولا سحر بيان العقيلة وشهد لسانها الرسالي ما كان استبد ما استبد بإرادتهم وغَلَب على أهوائهم ونوازعهم وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلاف حتى انعقدت قلوبهم

عليه فكأنهم بعده على آدابه نشأوا ، بل كأنهم سلالة أجيال تطبعت بطبائع كربلاء في أوليَتِهِمُ المتقادمة لا يربطهم رابط بأولئك المسفهين لسبط النبي والمعرضين عن نهضته الإصلاحية الفريدة .

وهذه الثورات التي تلت والتي تأججت من ثورة كربلاء الأم شكّل وقودها ذلك الدم الزكي الذي أهرق في عاشوراء ، ورغم أنها كانت معركة خاسرة في التو والآن إلا أنها كانت رابحة في الغد والآت وكانت إحدى ثمراتها إنهيار عرش أمية بعدها بعمر رجل واحد فكانت بضعفها الخصم الأقوى الرابح بينما كانت القوة الغاشمة التي نازعتها الحق الخصم الأضعف رغم عوامل قوتها ساعة احتدام الصراع .

وهكذا خسر الحسين المعركة وكسب الإسلام الحرب وكانت السيدة العظيمة زينب هي مفجرة عنفوانها بعد أن فجر الشهيد «ع» بركان احتباسها حيث تولت بإلهامها القدسي وحدسِها الرسالي وقوة شكيمتها الإيمانية وبوحي من منبتها وتربيتها في بيت الرسالة تحويل حممِهِ المصهورة إلى مصب أحرق الأخضر واليابس من علّيْق الضلالة والفجور الديني ، وجاءت صرختها المدوية لتكمل مسيرة التحول الجذري الكبير للعقيدة التي كادت تندثر بعوامل من صنع الهراطقة.

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره قبل أن يستفحل الغي ويتحول الدين إلى مذاهب فيغدو أدياناً وتثور نفوس وتنحلُّ أخرى .

تثور نفوس الذين أُشْرِبَت صدورهم روح الدين إنكاراً وتأثُّماً ، وتنحلُّ نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً ولم تخالط بشاشته قلوبهم والذين تجرفهم مطامع الدنيا فيرون الانحدار مع التيار أمراً مقبولاً[1] .

ومن نعم الخالق الرؤوف الرحوم بخلقه أن ابتعث لهذا الدين الخاتم بعد رحيل

---

(١) يرى سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام أن كل ما وقع من اختلالات في تناول أمر العقيدة والسكوت عن أخطاء ممارساتها كان في أواخر عهد عثمان ، لقد استمرت المتوالية إلى أن وصلت إلى عهدي معاوية ويزيد ما دفع الحسين إلى الإعلان عن دستور خروجه الذي ضمَّنه علَّة ما كان سائداً .

من نزلت عليه الرسالة ، وغياب من تولى تأويلها سبط رسولها ، فأزال عنها الكابوس الضاغط والجاثوم المروع الذي رزحت تحتهما ، وقيَّض للأمة هذه من يبعث في نسغها الذي جف دورة حياة جديدة أدارت الزمن إلى بداءة الدين ليصحح فكرة الممارسة الروحية فتتوقى الأنفس الردة والانتكاس عن سبل الحق فلا تقع في دائرة فساد تالية وتعاودها حمى الأستار الصفيقة التي عصفت بها ، وتشعر الأرواح المضنوكة بتراكمات الظلم وانتهاك العقيدة بذاتيتها العليا في الفطرة والأخلاق .

ولما وضعت معركة الحسين «ع» ضد الباطل أوزارها باستشهاده المجيد وبثمن دمه الزكي .. كان ذلك الخضمُّ المهول الذي خاضه درساً للمتخاذلين يوحي لهم بأن تصحيح الميل عن محددات السنة لا يعدله سوى التضحية الفائقة بالنفس والولد والأهل .

كما أبانت نتائج المعركة أن أي كفاح تتلبسه غضارة رخية لا يترك أثراً في النفوس وما خلَّفته تضحية عاشوراء دفعت بالإنسانية البالية المتهرئة إلى التساقط المتوارد في أوكارها ، وفجرت في خلايا من وصلتهم أصداؤها بفعل صرخة العقيلة «ع» ينابيع ماء نمير محيي لمناطق الإيمان في أعماق صدورهم تتجدد في حركة انبعاث وامضة كيف ما دار مدارها ، حينما يشيع الإيمان بمعناه الآسر في الناس فتشع معه أنوار تبدد عتمة دواخلهم ، وتنبثق معالم البطولة والإيثار والحمية الحاضنة لمستقبل العقيدة كما أرادها الحسين وأخته زينب «ع».

فقيمة أي فكرة يحددها مقدار الكفاح لأجلها ، فإذا لم يتوازنا في نسق مركَّز ملتحم لا يعدو الكفاح عن كونه فورة خامدة ووثبة منتكسة لا أرضية صلبة تستقبلها وهذا لا يتأتَّى إلا إذا انبثق ظَفرُه من عقيدة صليبة لا تهون ولا تنقص أمام المصاعب كي لا يعثرها الانحلال وبرودة الموت ، لذا فقد انطق الحق لسان زينب فقالت بحتمية مؤكدة :

« **المستقبل لذكرنا مرهوناً** »

إن هذه الخلاصة المنطقية الملهمة جاءت لتعلن صوابية حركة الحسين «ع»

ومضاء صرخة العقيلة «ع» التي أوقدت عزماً في الجموع وصنعت شكيماً في الأرواح المضنوكة في رنوها إلى العلا والسمو وطلب الحق ورفض الظلم .

لذا وكنتيجة لهذ المعطيات عالية السمو بلغت الثورة مرْقاتها ونال دستور الخروج ما استحقه من رفعة وتعظيم جدير بهما حيال ما قدمه لعقيدة الإسلام من ديمومة وتلألؤ واستقطاب للمهج والحنايا ، وما حققه بزمن قياسي من تحطيم لعروش الطغاة ودرس لآثارهم البغيضة .

وظلت العقيدة التي تكالبوا على طمسها شعلة متقدة يعلو سناها جيلاً بعد جيل على مدى الدهور .

وإنها لحكمة الله في خلقه .



أميرة الشام

وخفقت راية كربلاء في العلا
وارتفعت بذراع من اؤتمنت عليها
زينب .. أم المصائب .. وشاهدة ملحمة الإيمان
غيرة أخيها على دين جده .. سحرتها
ورثت بلاغة أبيها
ربيبة بيت النبوة
ابنة علي الكرار وفاطمة المعصومة
أخت الحسنين .. سيدا شباب أهل الجنة
النبتة الخضراء في حديقة الرسالة
العناية الإلهية أعدتها لأمر جلل
منذ نعومة أظفارها وعت تميزها
نهلت من ينبوع جدها نمير العقيدة
نمت أعصابها على لبان الرسالة

أوحت إليها السماء بأن لها شراكة
في ملحمة الدهور مع أخيها
فلم تتخاذل ولا التوت على المرة
أُفعمت نفسها بأمر خفي مجهول
فاستسلمت لعمل فعاليته الصامتة
والحسين وجد قلباً مفعماً بالعطاء
فالتقيا للسير على طريق واحد
وذابت نظرتاهما في الأبد الفسيح
فبدت لهما الدنيا صدفة رخيصة في لج العدم
وبان عبيدها على الباطل إلْبُ
وأوثان الآلهة استولدت أوثان الناس
فتجرأت بغاث النسور على النسور
وأعلنها السبط النبيل مدوية :
« **أريد الإصلاح في أمة جدي** »
واستجابت العقيلة لدستور أخيها
ووطنت نفسها التواقة لشراكته
وغاظها مواقف مثبطي رغبته
وموهني عزمه بما استوى عليه
وكلهم قرمُ عشير وفخرُ قبيل
ورأت ما رآه أخوها المغوار

في تحامي الفرسان جبن وعار

يمده ويمدها بالعزم والفخار

وعاتبت حينما تناهى إليها نصح ابن عباس

لأخيها بعدم الخروج أو ترك الحرم :

« **يا عباس أتشير على شيخنا**

أن يخلفنا هنا .. لا والله

بل نحيا معه ونموت معه »

وقبل المسير إلى أرض المصارع

انفردت بنفسها تعد لمحاورة زوجها :

« **يا بن العم .. هل تسمح لي برفقة أخي ؟** »

وأرخصها ابن جعفر لما يعرفه

عن حبها لأخيها الحسين

رغم أحقيتها باتخاذ هذا القرار

المبيَّن بعقد زواجها الميمون

لكن أخلاقها وتربيتها الرسالية

منعتها من نوال الرخصة بلا استئذان

ولما تمنت اصطحاب ولديها

محمد وعون كان لها ما أرادت

وقبل الرحيل استعادت شريط مصائبها

تذكرت وتذكرت كغبش الرؤية

في سنواتها الخمس الأولى
كم رأت جدها الرسول «ص» يقبلها
يجلسها في حجره ملصقاً خده بخدها
كما الحلم السعيد العابر
ترى نفسها تتسلق كتفيه
لكنها في غضاضة مولدها
لم تره يبكي وهو يقبلها
ويتنبأ لأمها المعصومة :
« يا بنتاه .. هذه البنت
ستبتلى ببلايا ورزايا داهية »
فكانت بحق للرزايا مرصودة
بفجعها بجدها «ص» في يفاعتها
وباعتداء رجال السقيفة على بيت أبيها
وبضرب والدتها المعصومة وإسقاط جنينها
ولم تنس بكاء أمها وهي تُساطُ
بالسوط والسيف المغمد
وتُعصر بين الحائط والباب
ويُكسر ضلعها ويتورم عضدها ثم ترحل
هي عاشت واقعة الجمل حاصدة الأرواح
وواقعة صفين قاطعة نسل العرب

ومعركة النهروان وضحاياها المؤلفة

ومصرع أبيها بخنجر بن ملجم المسموم

ورأت سريان الدم من رأسه

وعاينت خيانة الأصحاب لأخيها الحسن

في حربه مع معاوية

ورأته مسموما بمنديل جعدة

وصدمها مشهد كبده ملفوظا من شفتيه

وتألمت لرشق جنازته بالسهام

ومنع دفنه عند قبر جده

بحجة لا حجة فيها

لما ودعت الزوج والديار

غصت في حلقها الدموع

فها هي تمضي إلى المجهول

برفقة أخيها وحرم بيت النبوة

وتحت جناحيها ولداها العزيزين

محنة الخروج عاشتها ساعة بساعة

من مكة إلى الكوفة كانت

عيناً ساهرة على ركب الإباء

حضرت لقاء الحر بأخيها

وعاشت لحظات محاولته القبض

عليه لتسليمه إلى ابن زياد
كانت على دراية بخطر دورها المقبل
وعالمة بما يتوجب عليها فعله
ومنتظرة ما سيحيق بها وبالحرم
فبوطئها أرض الطف
لا يبقى لبني أمية إنكار الواقعة
كما فعلت فرق المرجئة سالفاً
وهذه تجلة من العناية الإلهية
كي لا يذهب الدم المزكّى رخيصاً
ويكون الشهداء ضحايا أكذوبات كبرى
ولكي تتصدى غذية فصاحة أبيها
للإعلام المضلل و تفضح أحدوثته
وتبث في وجدان الأمة حقائق المجريات
وتدمر ما سيحرزه يزيد
وتحول نصره إلى انكسار
وخسارة أخيها إلى فوز سرمدي
وكسب أبدي لرسالة جدها
قالت لأخيها في الخزيمية تروي هاتفاً :
« **ألا يا عين فاحتفلي بجهد**
ومن يبكي على الشهداء بعدي »

واستمعت إلى سيد الشهداء يوضح :

« **يا أختاه كل الذي قضي فهو كائن** »

وعاودت الكرة بعد وصولهم لكربلاء

وسألت أخاها بينما يتحدث بالأمر الجلل :

« **يا أخي هذا كلام من أيقن بالقتل** »

ولما سمعت منه نعم .. صاحت :

« **وآثكلاه ينعي إليَّ الحسين نفسه**

ليت الموت أعدمني الحياة »

وما اكتفت بالنحيب والدموع

بل لطمت وجهها وخرت مغشياً عليها

لم يغفُ لها جفنٌ يقظ

ساهرة تراقب ارتعاشات ما يجري

وحينما ادلهم الخطر

ورأت راية الشمر مقبلة

تجر وراءها ستة آلاف مهاجم

أبلغت أخاها بوصول هذه الضواري

لله درها كم عانت حتى ليلة الواقعة

لحظات مكهربة من عمرها مرت

قاسية تعرض لناظريها المذبحة

أغصان أهل البيت .. أصحاب أخيها

ولداها .. رجال الخروج

كلهم تجندلوا كالأضاحي تحت بصرها

قضوا مرملين بدمائهم الزكية

عطاشى لشربة ماء

من مشرعة الفرات الضجاج

مبذول الجداول لمخلوقات الطبيعة

يوم العاشر عاشت مصائبه

لما بلغها استشهاد علي ابن أخيها

خرجت من خيمتها مولولة :

« واويلاه يا أخيَّاه وابن أخيَّاه »

وانكبت عليه وهي المخدرة الوقور

تعانق جثمانه الطاهر قبل

أن ترفعها يد أخيها إشفاقاً

ولما جاء الدورعلى ولديها

وشهدت مصرعهما .. لم تبكِ

ولا ناحت مراعية مشاعر أخيها

ولسان حالها يقول :

« ولداي فداء لك يا أخي

فلا يحرجنَّك مصرعهما »

وران على قلبها الحنون

ماعاينته من عذابات أخيها العباس
حينما رأته مقطوع اليدين
بعد أن دفعته الشهامة لجلب الماء
وسمعت أخاها الحسين يجأر حزيناً :
« **الآن انكسر ظهري وقلَّت حيلتي** »
وحملت عبدالله الرضيع
واضعة إيَّاه بين ذراعي أخيها
ليتوجه به صوب الوحوش
طالباً شربة ماء له
فكان الماء المروي لحشاشته
سهم ثلاثي من حرملة
ولما عاد بابنه المذبوح إلى الخيمة
أشفق على أم الرضيع وعمته زينب
فدار بجثمانه حول الخيمة
منادياً أخته لتمسك بعبد الله
لإخراج خشبة السهم من نحره
فأي آلام اعتملت في صدر العقيلة لحظتها ؟
ويعلم الله كيف احتملتها
وهي كتلة الحنان والرقة
وعصر اليوم العاشر حلَّ بكلكله

وحضر الحسين إلى خيمة زين العابدين

ليودعه استعداداً لمصرعه

وأخبره حزيناً بحضور أخته :

« **بنيَّ لم يبقَ من رجالنا عدانا أنا وأنت** »

ولكن ابن الأسد الهصور أبى

وطالب بسيف للقتال

فأجابه أبوه المقبل على الذبح :

« **أنت أطيب ذريتي وأنت خليفتي** »

وصاح بزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة :

« **اعلمن أن ابني هذا خليفتي وهو إمامكم** »

ولما هم بالخروج تعلقت به زينب :

« **مهلاً يا أخي توقف حتى أتزوَّد منك** »

وانحنت تقبل يديه ورجليه

ولما خرج ولم يجد حصانه

أسرعت وأخذت بعنان الجواد

وهي تردد بصوت حزين :

« **لمن تنادي و قد قرَّحت فؤادي ؟** »

وحينما حمَّ البلاء وسقط من فوق فرسه

هرعت المكرمة صائحة :

« **واآخاه وسيداه ليت السماء أطبقت على الأرض** »

وصاحت بابن سعد :

« **أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه ؟** »

ولما طرحت نفسها عليه

أدخلت يديها تحت كتفه

حاضنة له بصدرها قائلة :

« **يا ضياء عيني كلِّمني**

يا شقيق روحي جاوبني »

كلمات أخت لأخيها المنازع

تتقطع لمعانيها نياط القلوب

وتتكسر لألفاظها الخواطر

والسوط فوق ظهرها يلتوي

والشمر يأمرها بترك أخيها

وهي ترد بأنفة عجيبة :

« **لا أتنحى عنه وإن ذبحته فاذبحني** »

ولما جثا اللعين على صدره

سحبت السيف من يده عنوة

محذرة إياه من اعتلاء صدر من

تربى على صدر الرسول والزهراء

اللبوة الهاشمية ماراعها المنظر المهول

ارتدت إلى الخيم بعد ذبح أخيها

تدافع عن الأطفال والحرم
دفاع اللبوة عن أشبالها
اقتحمت النيران وأنقذت زين المريض
ثم حمته من القتل
وحالت بجسدها بينه وبين سيف الشمر
صائحةً بالخسيس :
« **والله لا يُقتل حتى أُقتل** »
فمن تفعل ذلك من النساء ؟
من اسود ظهرها من ضرب السياط مثلها ..
من تصدَّت للسيوف والسياط
كيلا تقع على الأجساد المطهرة ..
من احتملت رؤية رأس
أخيها مفصولاً عن جسده ..
من رفعته ورددت :
« **رب تقبل منا هذا القربان** » ؟
وفي ليلة الوحشة بعد المجزرة
واست الجياع والأرامل والفاقدات
والفاجعة مستمرة لم تنتهِ
ورحلة السبي أفجع الرحلات
وفوق النياق المهزولة بدأت

بلا وطاء ولاحجاب

والقرصة في الحجاب الحاجز زادت

بوصول الركب إلى أرض المصارع

لما وقعت عيناها على

جثمان أخيها المطروح بلا دفن

ندبت بما أوجع القلوب

وفطر الحنايا وأهطل الدمع الهتون

وكان البعاد عن أخيها صعباً

اعتنقته ووضعت فمها على نحره :

« أخي لو خُيِّرتُ بين المقام عندك أوالرحيل

لاخترت المقام و لو أكلتني السباع »

وإلى عاصمة أبيها علي « ع »

شد ركب السبي الرحال

فهالها أن ترى مظاهر الجحود

ولما وقع بصرها على رأس أخيها

لطمت جبينها بمقدم المحمل حزناً

وفي الكوفة تردد صدى خطبتها

المؤنبة .. فلم يُرَ خفرة أنطق منها :

« يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر

أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم

فلقد ذهبتم بعارها وشنارها »

العقيلة أم الرزايا والمصائب

لم تخشَ عملاء بني أمية المتحلِّقين

ولم يفُتها بدء خطبتها

بالصلاة على أبيها رسول الله

وهذه البلاغة قمة الإلهام

فالحفيدة ابنة الجد

وهذه فاتحة التذكير بقدسيَّة الأسارى

قرِّعتهم بقولها :

« وأنَّى ترحَضون قتل سليل خاتم النبوة ؟ »

ذكرتهم بسوءة فعلتهم وغضب الله عليهم :

« بُؤتم بغضب من الله

وضربت عليكم الذلة والمسكنة »

وفي المقر الغابر لإمارة أبيها

سجلت للتاريخ مواجهتها مع ابن زياد

وحامت على ابن أخيها علي من غضبته

ونقشت في لوح العزة والكرامة

عبارتها الخالدة التي يحار الفكر في بلاغتها

« ما رأيت إلا جميلاً »

حينما سألها الدعي :

كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك ؟
وتُفصح الحقارة عن نفسها بألوان شتى
ابن زياد يسيِّر الركب إلى الشام
كما يُسار بسبايا الكفار
يتصفح وجوههنَّ أهل الأمصار
ويعاملنَ بقساوة وفظاظة
لكن اللبوة زينب حمت أشبالها
بضراوة أفزعت حراسهم
أما يزيد الفاسق فأغرق الشام بالزينة
ابتهاجاً بانتصاره المزعوم على نبيه وآله
ومن باب الساعات طِيفَ بالسبايا
بشوارع دمشق حتى قصر الطاغية
يتقدمهنَّ حملة الرؤوس على السنان
و على دكة أمام المسجد الجامع
عرضوهنَّ للفرجة والبيع
وقبل دخولهن على يزيد
وهو مسترخٍ فوق مُتَّكأ جبروته
سلسلوهم بالحبال في أعناقهم
مثل الأغنام المساقة للذبح
وأمامه وقفت الصامدة

وجادلته بفصاحة لا مزيد عليها :

« **بدين الله ودين أبي**

ودين أخي اهتديت أنت وجدك

وأبوك .. إن كنت مسلما ! »

ولما رأت رأس أخيها

في طستٍ على دِكةٍ أمامهُ

أهوت إلى جيبها وشقته منادية :

« **يا حسيناه يا بن مكة ومِنى**

يا بن فاطمة الزهراء يا بن المصطفى »

ونجحت في إبكاء كل من كان في المجلس

وتمادى الطاغية الأرعن بفعلته

وراح يضرب بمخصرته ثنايا أبي عبدالله

فكيف كانت وقفة زهرة بني هاشم

وهي ترى هذه المهانة لرأس حبيبها ؟

تنمَّرت وهي النمرة الشرسة للحق

وقرَّعت يزيد الجاهل الأحمق :

« **أمن العدل يا بن الطلقاء**

ما فريت إلا جلدك »

وزادت في جسارتها لإتمام فاعلية إعلامها :

« **وما جزرت إلا لحمك**

وإني لأستصغر قدرك

وأستعظم تقريعك »

واتهمته بلا مواربة ولا خوف :

« **فالعجب لقتل سليل الأوصياء**

بأيدي نسل العَهَرة الفَجَرة »

لقد بلغت لغة إعلام العقيلة مرقاتها :

« **لا تمحو ذكرنا ولا يرحَضُ عنك عارها »**

وتبلبل المتجبر وأسقط في يده

فبلاغة زينب أرعبته

بحجتها فائقة المضاء

وعرَّته رادَّة كيده إلى نحره

وقذفتها في وجهه كخاتمة :

« **ولم يشقَ بهم غيرُك**

ولا ابتلى بهم سواك »

فصاحة غذيَّة بلاغة أبيها

صاحب نهج البلاغة العظيم

كتاب دون كلام الخالق

وفوق كلام المخلوق

فأين منه لكانة يزيد وضحالة

فكره وبذاءة لسانه الذي

لا تحركه بسفيه القول إلا الخمرة
وقد أعلن عن تفاهة شخصيته
فيما اعتبره تعقيباً على تحقير زينب :
« **يا صيحة تحمد من صوائح**
ما أهون النوح على النوائح »
فكيف تأتَّى لهذه المرأة العظيمة
كل هذا الفيض من الجسارة في مواقف
مفزعة تتعتع أقوى عقول الرجال ؟
أليست الفاعلية الإيمانية
والمُثُل النبوية التي تربت عليها
هي التي كانت تواجه وتجابه ؟
فمن من الناس كان يجرؤ على
الوقوف في مواجهة طاغية مثل
يزيد ويقرعه بمثل ما قرعته ؟
لم تهب الحرس المتحلق حول مجلسه
ولم يغرّها كونه طاغية
يمكن أن ينهي حياتها بأمر طائش
وخاطبته باسمه المجرد : يا يزيد
غير هيابة ولا وجلة
وأخرسته بفصاحتها وثبات جنانها

وهو المتهورالجاهل المغتر
وذكرته بأصله السافل ونسبه المخزي :
« **يا بن الطلقاء ؟** »
مستحضرة إلى ذهنه البليد
إحسان جدها « ص » لأسلافه بإطلاقهم
وقفة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً
تجلت خلالها زينب كأعظم إعلامية
وكرَّستها كأكبر مناضلة مبادئ
ولكن هل انتهت محن أم الرزايا ..
هل وضعت بلاياها أوزارها عنها ..
ألم يتحقق حتى لحظة خروجها من مجلس
يزيد ما كانت تود أن تعيشه ..
أما كسبت خلال ترؤسها
لموكب السبي إلى الشام
أهم جولاتها الإعلامية .. ؟
لا .. بل يزال أمامها الكثير
بعد رحلة المهانة إلى الشام
تبقى لها رحلة الإياب إلى المدينة المنورة
وعروج الركب إلى كربلاء
وزيارة قبر أخيها الشهيد

وهتافها أمامه مرتين : واأخاه

هادفة إبلاغه « ع » بما فعلت

بقاتله ووصمها إياه بالعار والخزي

وتحقيره وإهالة لعنة الدهر عليه

وحيال قبر حبيبها كانت تشعر بالرضى

فقد أبانت لأهل الدساكر والولايات

حقائق الأمور وعرَّت حكامهم الظالمين

ولما وصلت إلى المدينة مجدداً

توجهت نحو مسجد جدها « ص »

لتبلغه بدورها ما جرى كما

أبلغت أخاها المظلوم

أخذت بعضادتي باب المسجد

ونادت بصوت خنقته العبرات الحرَّى :

« **يا جداه إني ناعية إليك أخي الحسين** »

وفعلت كيمياء الصدق الزينبي

فعلها في النفوس

فاكتمل لها إيغار الصدور

ضد أعداء أهل البيت

فازداد العداء لبني أمية

والإحساس بمظلومية الحسين

وبدأت بوادر التمرد ضد الظالمين
ولما تحدت السلطة بالبقاء في المدينة
بعد أمر الوالي بإخراجها قسراً ..
استجابت لنداء المخلصين
واختارت مصر موطناً جديداً
وتمددت مُثل كربلاء كريح عاصفة
وسرت تعاليم سيد الشهداء
كما تسري أنسام الربيع الرقراقة
و كانت العقيلة شجرة الزينب
بيضاء الأوراق فواحة العرف
نثرت في أجواء العقيدة
عبق المُثل الإلهية
كما بشَّر بها جدها المصطفى « ص »
وكما أوَّلها أبوها أمير المؤمنين « ع »
وكما مثل أخوها خاتمة تنزيلها
بتضحيته فائقة العذوبة
فكانت نفح الحقيقة المطلقة
في فضاء الرسالة
وما دورها الخالد في حمل
شعلة ثورة حبيبها

سوى الواجب الذي
أعدتها له عناية السماء
لتظل شمس النبوة ساطعة
فيها المعنى الأتم للإنسانية
لا تغيِّر فيه الأهوية الهابة
وإنما يغيِّر فيها و يبدِّل
فتغدو وقد فقدت ما تنذر
به بما تبشر للمستقبل
وتوصي الإنسان كي يتركها
تضمِّخ فضاء كونه في
مطلع الشروق والغروب
تذكِّره بما كان وعبر
وتعلن عن ذاتيتها المظلومة
وما كان أجدر من زهرة هاشم
من تولي هذا الدور
ونثر الشذى الفواح
ورفع راية الطف
فوق رؤوس الخلائق
بما علق عليها من الدماء الزكية
المنصبَّة إلى بحيرة غد العقيدة

حيث يجد الظماء لها
ما يبرد حرارة قلوبهم
بالينبوع الذي حجبهم عنه
سراب الفكر المدخول
وفي وقفتها الخالدة بين
أشداق المحن نجحت الحوراء
في تبديد ضباب البصائر
وعرَّفت بأهداف كربلاء
وفردت سناها المضيئ
فأخرجت ناظره من التيه
فنفض عن روحه غبار بيداء الذل
واستعلى على سراب الحكام الظالمين
ومسح هباءة مقلتيه التي استحالت ظلاماً
واستعاد كبرياءه رغم تأشُّب الباطل
كل ذلك كان ثمرة كفاح العقيلة
وحصاد شراكتها لأخيها في خروجه الظافر
فإذا قيل إن الإسلام بدؤه
محمدي و استمراره حسيني
فالأجدر أن يقال أيضاً
إن ملحمة الطف المقدسة

بدؤها حسيني واستمرارها زينبي

هذا ما ضحت لأجله بطلة كربلاء

فماذا قدمنا نحن لنصرتها ..؟

هل قدرنا كفاحها الصعب ..

هل استخلصنا رسالته و مغزاه

أفما ضربناها بسوط كما الشمر

ألم نكن كابن سعد بلامبالاتنا

لماذا ضحت العقيلة ؟

وزجت بنفسها وولديها في المصارع

ألنظل خائفين راضين بالحيف

أما ظللنا على سكوتنا على الظَلَمة

هل هببنا لمواساتها

بمصيبة أخيها الشهيد

ألم تكن نخوتنا غائبة

بعدما رأيناها بمهانة الأسر

الأغلال في عنقها

فوق نياقٍ مهزولة بلا وطاء

أما اصطففنا مع الشامتين

نتفرج على تحقير ابن زياد لها

فبماذا اختلفنا عن حرملة صارع الرضيع ؟

أو محقِّر حامل الرأس الشريف

كيف لم نهتز لفعلة يزيد أمامها

ونكته لثنايا سبط رسوله

أما كنا كل هؤلاء مجتمعين ؟

كاذبون نغتمص على دِخلةٍ ونية

سجايانا المخزية : جسارة مسلوبة

وألسنة مقلوبة .. وضمائر مغلوبة ؟

فسلامٌ على من عانت وبكت وتلقت السياط

وسلام على أم أخيها .. وشريكة نضاله

وسلام على من أبانت الحق بمواقفها وفصاحتها

وعلى من بكاها جدها متأثراً برزاياها

وعلى من حفظت سليل النبوة

وذبَّت السفهاء عن عذارى السبي

وخطَّت بعذاباتها خط تذكار وتحنان

تتذكره الأجيال فيفيض بقلوبها الفخار

معلمة الأعقاب معنى الكرامة

ومعنى وقوف المؤمن كالطود الصلب

أمام هادمي صرح العقيدة

فسيرتها العطرة لا تستوعبها مجلدات

فهي فريدة التاريخ ويتيمة الدهور

قبورها تبركت بها الأصقاع

وزائرو عتباتها لا يحصون

وما كرمتها به العناية الإلهية

كرمت به أخاها السبط الشهيد

لأن دورها كان توأم دوره

في حفظ العقيدة متلألئة

فكانا معاً أنشودة الزمن المباركة

وأمثولة تضحية لا نظير لها

فيا « **أم المصائب ويا أم أخيها** »

لكم انتشلت بصرختك من حيوات

كانت في مرمى الردى

أمَّنت لها خزائن أخلاق حرة

و شمائل سماوية

والآخرون أرادوا لها الذل والمسكنة

صرختك استنهضت همماً نامت

واستعذبت سكونها المهين

وقفَل الهمود متغيِّظاً

وقفز من الحنايا مدحوراً

وكان صوتك الهادر :

« **العظمة لرجالنا والعلوُّ لأعتابنا** »

وكأنه تَجسد حقيقة قبل تَجسُده
واقعاً بعد قرون وأجيال
فلينظر الناظرون حتى تكل أبصارهم
بحثاً عن قبر لظَلَمة أهل البيت
فهل يجدوه ؟
لقد شاءت السماء أن تختار الشهيد الحسين
ملء عين الحق سيداً للشهداء فيها
وكللت عناية الإله جبين الحوراء بإكليل غار
وخصتها برفع راية الثورة
وإكمال مسيرة أخيها المظفرة
فلا عجب إن توجها المؤمنون بطلة لكربلاء
فيوم أخيها الحسين في الطف
يوم ما غابت عنه شمس الإباء
ويومها معه يوم لا كالأيام
عافت قسوته القسوة
وكانت بعده للعذاب مرصودة
للسبي والمهانة لم تلن لها قناة
ولا أرتج لها حيال الخوف لسان
واستعلت على هام القشور إلى اللباب
حينما رأت الأحياء يتعلقون منها بالغثاء

فركنت لنهضة أخيها الزعيم والقدوة
إلى أن استشهد فأكملت هي فصولها
صرختها في وجه حكام زمانها
خلخلت قواعد عروشهم
فتهاوت مدماكاً إثر آخر
وعلت صروح النبوة
حتى وصلت عنان السماء
واستطالت بركة أهل البيت
ووزعت سناها فأضاءت البصائر
وتفرع فيؤها فظلل الكائنات
وكان الدم الزكي الذي زكّى تراب الطف
ثمناً للتوجه الينبوعي للإنسان
فلا بدع في القول :
« إن الشفق أحمر »
فيا أميرة الشام المتوَّجة
يا منزهة عن كل عيب
يا عروس المجد والكبرياء
يا سلطانة النساء المجللة
يا نجمة الصبح الساطعة
يا سيدة الشهيدات في الجنة

يا كنز الصالحات غير الناضب

يا شفيعة اللائذين بك

يا أطهر العابدات

يا خشبة الخلاص الطافية أبداً

يا سلوى الأسارى والمحزونين

يا أم البنين المضحية بلا مِنَّة

يا رائدة أكبر نخوة في تاريخ البشر

و ملبية لأعظم استجابة يقين

الأخت المخلصة حتى الموت والمهانة

الأم الرؤوم المضحية بأكبادها

العمة المنافحة عن ذراريها

الخالة القيِّمة على فروعها

أكملتِ الفداء وبدأتِ العهود

يا فيض رضوان الله

يا فخر البرايا

يا أخت الشهيد المعظم

يا شريكة مجده المؤثل

سترى الدنيا إكليل مجدكما

و يصغي الزمن لندائكما

يا سيدة النصر المبين

كوني لمحبيك المعين

يا من رأيت الموت جمالاً

فداءً للعقيدة و الدين

دعينا في سناكِ مستنيرين

و في طريقك المعبد سائرين

يا مطَّلعة على القرار المعجز المبين

يا فرعاً لشجرة لا تذبل

يا سنبلة يانعة في حديقة النبوة

يا جسارة طالبية لا تُغلب

يا شاهدة مجد الشهيد في الطف

يا توأم القمر الساطع في كربلاء

يا مُلجمة لسان يزيد

يا مُخرسة شفاه ابن زياد

ومُعيدة الضمائر إلى مثاويها

ومُعطلة عمل مفسدي النفوس

ومُرعبة المضلين كالرعد في الفلاة

بنورك السني أعشيت أبصارهم

وقلبت المجن عليهم

وتوَّجت المظلومين بتاج العز

ودرَّعتهم بدرع الإباء

ورويت صدورهم العطشى للحق
ورششت الندى فوق هاماتهم
سلام عليك يا غمد سيف النبوة
يا هدية السماء للأرض
يا ابنة أم أبيها
يا ملهمة الأحرار والمستعبدين
يا أمنا الشفيعة بمحبيك
يوم لا ينفع مال ولا بنون
تقبلي منا نحن المفتونين بعظمتك
ما نرفعه لمقامك الجليل
من ساميات الإكبار والتبجيل
يا جبين المجد العالي
ويا أميرة الشام المتوَّجة
التي دخلتِها مُهانَة مسبية
ومضيتِ عنها حزينة منسية
وعدتِ إلى ترابها
مجللة بغارِ الرفعة
مكللة بإكليل الخلود
عظيمة بمقام مقدس
تحج إليه الملايين

من كل فجٍ عميق

ذائبة في حب من تثويه

ماسحة غباره للتبرك به

متشرفة بوطء عتباته

فسبحان من يختار لأصفيائه

أدوارهم ويعلي مقاماتهم

ويحببنا بهم كالذخر المكنون

كرموز مقدسة منزهة

في تربتهم الشفاء

وفي مراقدهم الصفاء

وفي فنائهم الإجابة

فيا أميرة الشام المخلدة

يا ابنة المطيبين جدوداً

دعينا نحيا زمنك على الدوام

ليغبطنا الكون في العاد والمعاد

ونرتوي من جداولك الطوبى

ونتطهر بدفقات ينبوعك الأقدس

ونتفيأ ظلال فنائك الخضير

ونتلفع بزنابق ذكراك

ونلوذ بعظيم مراحمك

ونستنشق عبير خزامى وحيك

يا ملكة الرحمة و الحب

يا شفقاً اعترض مفترق الغروب

يا موجة إشعاع تسري في كل جيل وجيل

وصرخةً سرمدية يسمعها كلُّ قَبيلْ

يا من صقلتِ الضمائر الخشنة

وهديتِ المعانين من الشك الخفي

يا دُرَّة سماوية

صعقَت الجانحات الصاعدات من المجهول

صرختُك أوقدت جذوة النفوس الخامدة

و أخمدت زعازع الباطل

النفاث ضلالاً في الضمائر

صيحتُك كانت مُنعطفاً

ليست آخر الري

بل أول الظمأ

كنسمات حنون مهدهدة

في أودية الأرواح المضنوكة

فكنت الخريدة النفيسة

المحفوفة بالكلاءة

المؤيدة بالعصمة والوحي

يا أخت رجال كالليوث
يا ندى الصدور القاحلة
يا وارثة شكيمة علي
وعصمة فاطمة البتول
وشجاعة الحسن المجتبى
وإباء شريكك الحسين
لكم ذكَّرت الخانعين
لكلمة أخيك الخالدة :
« **الناس عبيد الدنيا**
والدين لغو على ألسنتهم »
فهبوا ينفضون مشاعر المذلة
مقتدين بوقفة أخيك
بين أشداق الردى غير هياب
و متأسين بجسارتك ومبادئك
و تخشُّع سَمْتك وثبات جنانك
فاستعصوا على جواذب الغي بعدك
ما عاد يستدرجهم طاغٍ متجبر
فقد حصَّنْتِهم بطعم الرفض السرمدي
وعلمتِهم كيف يرددون مع معلم الثوار :
« **هيهات منا الذِلَّة** »

مبادئ نسجت على منوال مبادئه
ومواقف ولَّدتها عظمة مواقفه
هَديتِهم لأي الدروب يسلكون
فما عادت خطاهم فوق الحفر
وما عادت رقابهم تصغُر
فقد نفحتِ بالمسلم بعد كربلاء
روحاً وثابة لا تضام
وأيقظتِ فيه ضميراً لا ينام
وأودعتِ حناياه ذخائر القرآن
ونسجتِ للمؤمنين ثوب عزة و فخار
فاخضوضرت قلوبهم بعد تِصحار
فيا من كنت للناس آية سماوية
يا رافعة رأس أخيك المحزوز كقربان
فداء للعقيدة و صوناً للعرفان
شذى سيرتك عطَّر الأزمان
و ظلت أنشودة ملء فضاء الأكوان .

خُلَّب القرائح

ليس هناك ملحمة في التاريخين القديم والحديث استطاعت أن تلهب المشاعر وتحرك النفوس الشفيفة مثل ملحمة كربلاء.. فمنذ وقوع أحداثها وحتى الآن دبج الشعراء ألوف القصائد وملايين الأبيات في تمجيد هذه الملحمة التي أضاءت فصولها القرائح واستحثت خلجات القلوب النزاعة لكل ما هو سام ومرتبط بكمال الأخلاق وعلو الفضائل .

ولعل هذا الأثر الشعري الضخم الذي فجرته الملحمة منذ أربعة عشر قرنا وما تزال تفجره حتى الآن ، والذي تقاسمت أمجاده زينب وأخوها الحسين بطلا هذه الملحمة العقائدية الفاصلة بين الكفر والإيمان .. هذا الأثر سيظل محافظا على عنفوانه وزخمه لأنه صادر عن هتاف القلوب التي تصلها الانسيالات الساطعة من فضاء كربلاء فتبعث في الخلجات إيحاءات هيولية تتحول إلى شعر ونثر تدور مدار شخصيتي بطليها عليهما السلام ، هذان الغصنان من شجرة النبوة شكلا قدوة للبشر تألفت حولها القلوب ووسعت لها الحنايا لما احتوت من شعاع الخالق واستجابة المثالية البشرية التي عصف سحرها في الصدور فتشكلت فيها فرائد جماليات لاتحد من كل مشرب ولون ، وزاحمت بعضها في أنشودة لا تملها الأسماع بقدر ما فيها من ألحان سماوية ، وتتشوق الأبصار للتفرس في ألوان فضائلها القزحية فتغدو جميعاً وحدة نورانية تنبض بالشاعرية والإلهام وتنزع إلى ما هو سماوي ومقدس .

وإن جاز لنا أن نسمي هذه الإرهاصات فإننا لن نجد أفضل من عبارة « **نزوع مستدام نحو الحقيقة الإلهية** » بتلهف للاستجابة لنداء الرسالة الفضلى وتقديم ما أمكن من أشواق لها بإيمان لا ينضب وشموخ لا يفتر.

وكربلاء شكلت على الدوام ذلك الامتداد الثر الرحب لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي لولاها لاندثرت العقيدة ولغدت بفعل ممارسات الحكام الطغاة الذين تحركوا في دائرة الأطماع والطموحات الدنيوية المادية إلى مذهب باهت يركن في ظاهر الرؤوس لا عقيدة رابضة في أعماق الصدور والحنايا وإيماناً يترع في وجدان كل مسلم[1] .

وإذا كان استشهاد الحسين «ع» وسيرته عنواناً صريحاً لقيمة الثبات على المبدأ ولعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثلها.. فإن كفاح العقيلة زينب «ع» المواكب لكفاح أخيها والمتمم له فيما تلا الواقعة الأليمة والذي لولاه لكانت ملحمة الطف في غياهب النسيان ، ولكان الدم الزكي لِعترة النبي «ص» الذي روى أرض كربلاء قد تبخر هباء حيال تلك المظاهر التسلطية ونواميس العبودية التي كانت سائدة آنذاك والتي نجحت في تحويل الناس إلى زبانية لها ترهيباً وترغيباً ، بسدرة لا نكوص عنها مع السائد والمسكوت عنه من الممارسات المقرِّبة للمنافع الأرضية والخائفة على فقد المنازل الاجتماعية ، بعد أن حول الملك العضوض منهج الرسالة إلى مثل هذه المستجدات الطارئة على العقيدة بما يخالف صدر انطلاقتها قبل أن تعصف بأركانها عصفات التخلي عن ثمراتها اليانعة إلى القشور البراقة التي لوَّح بها من كان بيدهم الأمر لإبعاد المجتمعات عن التقوِّي بقوة الله والتحوُّل بحوله لتغيير مسار عقولهم إلى حتمية الخضوع لمشيئة الحكام المستبدين الذين تلبسوا لباس الإسلام بهدف خداع الأنظار والأبصار والبصائر، وقد ساهمت الأنماط السلوكية التي بدأت بالتكرس والتجذر في النفوس في بث مظاهر المنكر جموداً وتخلفاً وتقليداً أعمى وابتعاداً عن أخلاقية السنة المحمدية الشريفة التي أرست الدعائم لمجتمع نقي خالٍ من كل أشكال

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي ـ ص ٦٩ فصل ثورة الحسين .. لمن ؟

العبودية ، سواء كانت هذه العبودية للحاكم الظالم الغشوم .. أم للمنافع الوقتية التي يرغبهم بها ليصبح الإدمان عليها عادة سلوكية يصعب التخلي عنها ويستحيل عليهم الثبات على ما كان من مناقب منهجية قبلها ، إلى أن جهر الحسين«ع» بدستور خروجه العظيم ، فقلب المعادلة رأسا على عقب فوق رؤوس محرفيها وأتم دستوره بالإقدام على الشهادة ، وكانت زينب «ع» هي الشاهدة الحقة على ما جرى من أحداث منذ أول لحظات انطلاق ركب الخروج وصولاً إلى الجعجعة والمذبحة وما تلاها من سبي وتصدٍ وإعلام صادق مؤيَّد بالقبول والذي لم تألُ زهرة بني هاشم في القيام بواجباته من خطب وتوضيح وتأنيب للمقصرين وتوعد للظالمين بمآل أسود كحلكة نفوسهم ، وإضاءة طريق الخلاص والتوبة أمام عمي البصر والبصائر ممن كانوا ضحايا أضاليل حكامهم المبرمجة إلى أن زاغت عيونهم وقلوبهم فلم يعودوا يفرقون بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ .

لذا فبتصدي العقيلة لهذه الأراجيف المتراكمة ضاربة الجذور في تربة المجتمع الإسلامي التي أهَّلها الحكام الظلمة بسماد أضاليلهم لتنميتها وتغليظها بحيث يصعب اقتلاعها .. نجحت زينب في هزِّها هزاً عنيفاً بفعل الإعصار القوي الذي أحدثته صرختها المدوية في فلاة القلوب الضالة وبين جنبات القصور الباذخة فارتعشت لها المجتمعات واهتزت منها العروش واستجابت لها الأنفس وتنادت لها الخافقات بعد أن نفذ إليها الهواء المحيي بفعل التشققات التي أحدثتها خطبها البليغة في مداميك الخداع ، والتي أخذت بالتوسع يوماً بعد آخر إلى أن تحولت إلى صدوع خرج منها الهواء الحبيس وزاد فيها الهواء الجديد الزاخر بأكسجين الرفعة والتجديد الروحي ، فازداد التفاعل وتحولت الصدوع بفعله إلى كوى ، ثم تفجرت جدران وأسقف الهياكل المصطنعة فانهمر شعاع الشمس غامراً النفوس التي أعيتها رطوبة الظلام ، وتحرك الهواء في كل الاتجاهات وإذا بالقلوب تتراقص والعيون تبصر والبصائر تقنع بما حملته صرخة زينب التي بصَّرتهم بخطئهم وتفريطهم بأعز ما وهبتهم إياه العناية الإلهية عقيدة متلألئة كالماس والدر النضير، دأب ولاة الأمر الماكرون في دفعهم لنسيانها والاستعاضة عنها بالعظام النخرة والصخور المسننة

وبعد استفاقتهم على إيقاظ زينب لهم واقتناعهم بصدأ مثاوي العقيدة في أعماقهم أن استلوا المبارد التي وضعتها العقيلة أمامهم وانهمكوا في إمرارها على ذهب دواخلهم ليشع بين كل حركة وأخرى بسنى خاطف لأبصارهم يدفعهم سطوعه المتصاعد إلى الاستمرار في صقل جواهرهم الإيمانية ليكتمل لمعانها كما أرادته أخت الشهيد أن يكون ، وليؤكدوا فهمهم لما قدمته لهم كربلاء وما ضحى الحسين «ع» من أجل عثورهم عليه في مناجم صدورهم لإحاطته بأكفهم والنأي به عن عوامل تفتته مجددا فلا يعاودهم الضياع وخسران هبة السماء الغالية والاكتفاء بفتات المضلين الذين حولوا نظام الشرع الديني الحق إلى ملك عضوض لا يأنس لكل ما هو إلهي .

وقد تفاعلت هذه العوامل مجتمعة مع أصداء خطب زينب «ع» التي ألقتها كبذرة تبصُّر في أعماق العقول ، وبثتها كنقطة ضوء في دهاليز الصدور المظلمة ، إلى أن أصبحت نموذجاً إيمانياً بلغت جواذبه مداها ، وصار المسلم كما راهن عليه بطلا كربلاء الحسين وزينب «ع» يفضل معها مصارع الكرام على طاعة اللئام ومهادنة الظالمين ، وهانت عليه نفسه مقابل أن تهون عقيدته وصار أكثر استعداداً لفدائها بنفسه بعد أن تكونت لديه الفضيلة الإيمانية وهي الحلم السماوي الذي رنا إليه الحسين وعملت زينب لبثه في المجتمع الإسلامي الآخذ في الانحدار إلى الدرك الأسفل .

ولما امتلكت الجموع هذه الفضيلة بعدما رأت في تضحية كربلاء النموذج الأمثل للعمل بهذه الإرادة لا بنظريتها وحسب.. كانت بمعطياتها ومنهجها الباب الذي ولجت منه عقول المسلمين التي عادت للتو من استرحالها إلى متاهات الضلال والفتن كقطع الليل واختلاط الأمور، وتنادى هؤلاء إلى الاقتداء بالفاعلية العملية التي كانت ملحمة الطف نموذجها الأكمل بالعمل على حياطة العقيدة ومساعدة بعضهم بالرفد والمعاونة فيما استغلق على أفهامهم من أطراف النهج الجديد فاتسعت مداركهم لمبادىء عاشوراء التي أوصلتها زينب إليهم وأخذت هذه المبادىء تستجيش وتتمدد وتثير رغائبهم في الاستزادة كلما عبوا منها المزيد لنجاحها في إثارة مخيلاتهم المحرومة من التخيل فصاروا في توق للتأكد مما سمعوه .. وهل هو صوت

الحاضر أم صوت المستقبل أم نداء الخلود ؟ وأن عليهم مهمة استنهاض قرائحهم وأذهانهم للتعاطي مع هذا التحول بالفطرة الإيمانية التي جبلت نفوسهم عليها ، فلا يتغابوا بعد علم ولا يرضوا باتصال تقيهم بأثيمهم ، فلم يكن ما جاءتهم به زينب المعلِّمة غير المعلَّمة أسدَّ ولا أحكم ، عرض لهم في مرآته بعد أمد ضلالة طويل ما كان من سيئاتهم وأبان لهم ما يصلحها ويحولها إلى حسنات فيها رضى للخالق وللرسول «ص» صاحب الرسالة العظيمة التي حادوا عن صراطها المستقيم بعد تصاممهم عن نداءات سبطه الحسين حينما نبههم إلى خطلهم الإيماني ورضاهم بصبابة كصبابة الإناء ، ومسرتهم بخسيس العيش كالمرعى الوبيل وبتجاهلهم ما يرونه من باطل لا يتناهون عنه وحق لا يعملون به إلى أن خرج ذلك الخروج الدامي ليقدم لهم أمثولة تضحية حية تهزهم من الأعماق بعد أن دفعهم الاستهتار بإشاراته المستمرة إلى الخطأ في تعديل سلوكهم في أخذ العقيدة والسنة النبوية الشريفة المأخذ الصحيح .

هذا العالم الجديد من المثل العقائدية قابله خُلَّب قرائح تزاحمت فيه ملايين المعاني الإنسانية الخلابة وشكلت شخصية زينب محور هذا الاستقطاب بعد تصحر المشاعر لأمد طويل جفت خلاله ينابيع الشعور وبانت الشَّحةُ الشعرية إلى أن أوقدت جذوتها العقيلة بعظم تضحيتها وأصالة مواقفها وبلاغة خطبها المستمدة من الخزين اللغوي فائق الطلاوة والعذوبة وهي غذية فصاحة أبيها أمير المؤمنين «ع» وما استلهمته من نهج أخيها العاشورائي الذي تحول مع متوالية القرون إلى دستور نهضة فكرية وسياسية ومنهج فلسفي كان له دور فعال في تفجير العديد من الثورات الاجتماعية والسياسية في بقاع عدة رغم المحاولات المستميتة من الأنظمة الحاكمة لحجبه والحد من تأثيراته الذهنية الموحية .

لكن كل هذه المحاولات الصفيقة لم تنجح في إخماد سطوع جذوته بعد أن أوقدتها تضحيات الحسين وعترة بيت النبوة في كربلاء من أجل العقيدة ، وبعدما رفعت رايتها المرفرفة شريكة شهيد الطف ونثرت أدبياتها وفسرت مغازيها التي استغلقت على العقول بفعل فاعل ، والتي كان من نتيجتها أن ربضت موحياتها في الوجدان الجمعي لأمة الإسلام وعجنت بذرات ضميرها الديني وصارت في مأمن

من الوصول إليها ، بله العبث بها ، وتحولت تفاصيلها القدسية إلى أنشودة سحر بلاغي لا تمله الأسماع ولا تكل القرائح من الجود به ، لأن به امتزاجاً بالقرآن واحتفاء بإحياء السنة المحمدية التي مثلت آداب الإنسانية المحضة بلا معنَتَة ومِرَاء في الحق أو إصرار على الباطل ، لذا جاءت وقفة أصحاب الضمائر الحرة والأذهان المبصرة في أدبهم الزينبي وقفة من عصفت بأخلاقهم القوة الروحية في آداب الرسالة بما حوته من نفائس وذخائر فكانت وحياً يوحى مازج أنفسهم وفجَّر بيانهم وأطلق قرائحهم وحرك ألسنتهم بجميل القول وفصيحه حتى صارت حروفهم كنبض البرق في اشتماله مابين أقطار السموات ، وصارت أم أخيها زينب محور رحى الإلهام ينبع منها ويعود إليها صافياً ثراً لا يعتكر ولا ينضب ، وقد جمع في أطيافه الظاهرة ما تجمعه أضمومة أزاهير فواحة من كل عبير وكل لون فكانت بهجة للأنظار وعنوانا لشفافية المَلَكَة المتأثرة بسمو الإيحاءات القدسية المنبثقة من شخصية بطلة كربلاء وسَمْتِ إشراقاتها مالئة الكون .

يصف الشاعر السيد محمد رضا القزويني المتيم بحب أهل البيت الكرام والذي نظم العديد من القصائد في فضائلهم حيث خص العقيلة زينب «ع» بأجود مواضيعه وأرق مدائحه في قصيدة نظمها في سوريا عام ١٩٩٠ بمناسبة ذكرى ميلادها الميمون قيادتها لركب السبي ووقوفها الصلب في وجه الطاغية يزيد يقول في متنها :

أقائدة الركب يا زينب ... تغنى بك المشرق والمغرب
خطبتِ فدوَّى بسمع الزمان ... صوت إلى الآن يُسترهب
أخاف الطغاة على عرشهم ... فظنوا علياً بدا يخطب
وأسقَطتِ قبل فَناهُ يزيد ... وضاق على رأيه المذهب
وولَّت أمية مدحورة ... وما ظل ذكر لهم طيب
وأنت التي كنت مأسورة ... ومالك في الشام من يُنسب
لك اليوم هذا الندى والجلال ... مثالا لأهل النهى يُضرب
وقبر يطوف به اللائذون ... رمزاً وما عنده يُطلب
مناراً يشع بأفق السماء ... فيعلنها : هذه زينب

وفي قصيدة أخرى له يصف وصفاً رائعاً بسالة الحوراء ومعاناتها القاسية في معمعان مجزرة الطف وتحملها السياط المنهمرة على ظهرها وهي تودع جثمان أخيها واقتحامها النار المشتعلة لإنقاذ زين العابدين وتحريها الأطفال بين الرميم فيقول :

وسياط الأعداء لم تمنع الأخت ... وداع الحسين بين الجسوم
هرعت والخيام مشتعلات ... تتحرى الأطفال بين الرميم
رفعت رأسها إلى الله تشكو ... فأتاها الجواب عبر النسيم
جدكم أسس القواعد للبيت ... وإسماعيل ذبحُ الحُلوم
وانتهت فيكم النبوة والبيت ... وما في الستار والمعلوم
ورأى الله في الحسين عظيماً ... فافتدى دينه بذبح عظيم

وفي إحدى قصائده التي نظمها علامة القطيف الشيخ فرج العمران أثناء زيارته للمشهد الزينبي وأنشدها في مصلى العلامة السيد حسين السيد يوسف مكي العاملي في المشهد قال فيها :

ويكفيك من بين النسا الطهر زينب ... فأَعظِم وأكبِر في النِّسا الطهر زينبا
وخاطبتِ الخصم الألَّد يزيدَها ... بأخشن قول بل أَحزَّ من الظُّبا
لنا المُلك في الدنيا لنا الحكم في غد ... سنصليك في يوم القيامة هبهبا
وعرشك هذا سوف أملك دَسْتَه ... وتُعنى إلى بيتي الحجيج تقرُّبا

وبمناسبة ذكرى مولدها «ع» ألقى الشاعر السوري محمد سليمان قصيدة بعنوان « **طهرت زينب للعروبة شامها** » وصف فيها هذا الحدث المبارك فقال :

ميلاد زينب جاء يحمل وحيه ... من قبل جبريل الأمينُ فأفعما
بالبشر قلب محمد وباسمها ... وحيا فحيَّا فاستفاض فسلَّما
ميلاد زينب في سجلات السّما ... عِقدٌ على جيد الزمان ترسَّما
أكرمْ بزينبَ آلِ هاشمَ لبوة ... هي من علي وفاطم سرٌّ سما
ورَثتْ شمائل والديها عقيلة ... بفصاحة عنها البيان تكلما

إلى أن يقول :

طهرتِ زينبُ للعروبة شامَها ... مذ لامست قدماك منها مقسما
وتقدست بدمشق أكرم بقعة ... لما أقمتِ بها فصارت معْلما
وغدا ضريحك للزيارة مكة ... للقدس يُنهضُ زائريه لتسلما
سيظل نهجك زينب في أمتي ... دستور طهر للثقاة معظما

وللشاعر العراقي د . عادل بن جليل الكاظمي قصيدة جميلة من قريض الأبوذية يقول فيها :

تنادي زينبٌ والدمع هامِلْ ... فؤادي من عذاب القبر هامل
عمودٌ قد أصاب اليوم هامِ ... الكفيلِ فشبَّ نيرانَ الرزِيَّه

وإذا كان الشعر الفصيح قد ساد ساحة عاشوراء .. فإن شعر الأبوذية كان له دوره الإبداعي في رثاء السيدة زينب ومدحها ، وهاهو الملاحسين الكربلائي يرثي العقيلة بهذه الابيات:

روحي اِمْنِ الصّبُرْ مَلَّتْ وَصاحتْ ... اِوْ مِثِلْها ما اُنْسِبَتْ حُرَّه وَصاحَتْ
عَلَى التَّل اُوْ كُفَتْ زَيْنَبْ وَصَاحَتْ ... دنادَتْ يَحْوتي يَهْلِ الْحَمِيَّهْ

ويصف الشاعر محمد رضا آل صادق شخصية زينب الآسرة ويمجد بفضائل دورها الكبير في ملحمة كربلاء بأبيات ضاجة بالإعجاب :

هي زينب لو كنت تعرف زينبا ... شأت الورى أمَّا وبزَّتهم أبا
أخت الحسين ومن أتمت بعده ... نهج الجهاد وقارعت نُوب السبا
درجت بيثرب عند دار المصطفى ... فوالصون يخفرها فسائل يثربا
سلها عن الحوراء سل عن عزها ... متقصيا ولما حوته منقبا
قد أُلهمت أسرار نهضة كربلا ... واستوعبتها وهي في عهد الصبا

إلى أن يقول :

يـا بـنـت حـيـدرةٍ ومـا أنبأته　　حـقٌ ومـثـلـكِ قـولـه لـن يكذبا
هـذا ضريحـكِ كـعـبـةٌ قدسيةٌ　　يُـؤوي الـوفـود مـشرقـا ومغرّبا
ولقد سُـعـدتُ بـأن نـظـرتُ لنوره　　سمحاً كنور الشمس يجلو الغيهبا

وللشاعر العراقي السيد رضا الهندي العديد من القصائد في مدح الحوراء وتصوير معاناتها في أرض الطف المباركة :

وذكـرت إذ وقفت عقيلة حيدر　　مـذهـولـة تصغي لـصـوت أخيها
بـأبي الـتـي ورثـت مصائب أمها　　فـغـدت تـقـابـلـهـا بـصـبر أبيها

ويدون الشيخ محمد الطاهر الحامدي قصيدة بليغة في فضائل السيدة زينب «ع» واصفاً إياها بالمثل الأعلى للفضيلة والعفاف :

إذا أولـتـك زيـنـب أي لحظ　　فـلا تخش الخـطـوب ولا تبالي
بكفيها الجـحـيـم لمـن يعادي　　وجـنـات الـنـعـيـم لمـن يوالي
وقـفـتُ ببابها أنـسـلُ مني بفضل　　يـمـيـنـهـا أي انسلال
لهـا قـدر يباهي الشمس فخراً　　ويـصـغـر دونـه قـدر الهلال

ويصور العالم الشيخ أحمد فهمي نشوة وجدان زائر مقام السيدة بهذه الأبيات المعبرة :

مقام زينب مهوى كـل خالصة　　مـن الـعـبـادة تحبو مـن يواليها
بنت الـرسـول ومـن لي أن أوفيها　　بـما أرى مـن حـقـوق قـل موفيها
إني أُحـس بـأن المصطفى معنا　　فـالـروح في هـزة ممـا يواتيها
كـأن نـفـسي قـد طـارت لعالمها　　فقد تـراني بـحـال لست أدريها
في نشوة تملك الـوجـدان روعتها　　تفوق روحتها الدنيا ومـا فيها
لله زيـنـب مـا أولـيـت مـن مددٍ　　يـدعـو لمكرمة سبحان موليها

وحينما جدد الخديوي إسماعيل الباب المقابل لباب العتبة بمرقد السيدة في مصر أوحت المناسبة للشاعر علي أبو النصر بهذه الأبيات التي تفيض إجلالاً لصاحبة المرقد الشريف :

مـقـام بـه بـنـت الإمـــام كأنما ... هو الروضة الفيحاء باليمن مونقة
عـلى بـابهـا لاح الـقـبـول لزائر ... ونـور الهـدى أهـدى سناه ورونقة
بأمر الخـديـوي جـددتـه يـد العلا ... فكانت بأسباب الـرضـا متوثقة
وفي حلية التجديد قلت مؤرخاً ... شموس الحلى في باب زينب مشرقة

لقد رَحِبَ الشعر الزينبي بكل ما جادت به قرائح المفتونين بحب ابنة المعصومة وفائق صبرها وجلدها ، وهاهو الشيخ حسن مرتضى الكاظمي يقول في وقفتها الصلبة أمام كوارث الطف :

لقد حملت يـوم الطفوف رسالة ... يـنـوء بهـا حمـلا سـواهـا وينصب
لهـا وقـفـات صـامـدات صليبة ... أشـد من الطود العظيم وأصلب
ولم نـر مـغـلـوبـاً عـلى كـل أمره ... يغالب بـالـقـول الـعـدو فيغلب
لقد أنشبت حرباً عليهم طويلة ... مداها ومازالت مدى الدهر تنشب
ولـو لم يكن إقـدامـهـا وجهادها ... لمـا كـان شيء للوقيعة ينسب

وفي قصيدة عذبة الأبيات ضاجة بمعاني التضحية اهتزت ريشة ناظمها الشيخ مهدي مطر بإباء عابدة آل علي اهتزاز الصب المستهام ، واصفاً تضحيتها العظيمة خلال ملحمة كربلاء وما بعدها ، وعلو شكيمتها حيال المحن ، ونبل معدنها الرسالي فيقول :

يا ريشة القلم استفزي واكتبي ... هل كان هزك مثل موقف زينب
هـل أنـت شـاهـدة عشية صرعت ... منها الحـماة ضحى حماة المواكب
وقفت عليهم كالأضاحي صرعوا ... مـن كـل طـلاع الـثـنـيـة أغلب
هـل هـزهـا هـذا المـقـام وهالها ... كـلا فـرشـد ثـابـت لم يعزب
أبـت الـنـبـوة أن تـرى أبناءها ... مخذولة وكـذا أبـت بنت النبي

ويؤرخ العلامة محمد علي اليعقوبي النجفي مناسبة تجديد عمارة البنية لحرم المكرمة زينب بتقدمة من الحاج مهدي فيقول:

سعى المهدي في تشييد قبر ... بأستار الجلالة قد تحجب
يضم كريمة الحسنين من قد ... غدت في مجدها الأمثال تضرب
عقيلة آل بيت فاز عبد ... توسل في ولاهم أو تقرب
فقل بشرى لزائره وأرِّخ ... تشيَّد مرقد الحوراء زينب

ويصف الشاعر السيد محمد حسين الكشوان تلك اللحظات الصعبة التي مرت على زينب «ع» حين وداع جثمان أخيها محزوز الرأس الغارق في الدماء الثخينة في كل مواضع جسده الطاهر فيقول :

أهوت على جسم الحسين وقلبها ... المصدوع كاد يذوب من حسراتها
وقعت عليه تشم موضع نحره ... وعيونها تنهل في عبراتها
ترتاع من ضرب السياط فتنثني ... تدعو سرايا قومها وحماتها
اين الحفاظ وهذه أشلاؤكم ... بقيت ثلاثاً في هجير فلاتها
اين الحفاظ وهذه فتياتكم ... حملت على الاقتاب بين عداتها
ومخدرات من عقائل احمد ... هجمت عليها الخيل في أبياتها
حملت برغم الدين وهي ثواكل ... عبرى تردد بالشجى زفراتها

وفي ديوان للمرجع الأعلى آية الله كمباني ، كتبه بالعربية والفارسية امتدح فيه أهل البيت ورثاهم بقصيدة من ستين بيتا مضمخة بعطر تضحية العقيلة «ع » :

مليكة الدنيا عقيلة النساء ... عديلة الخامس من أهل الكساء
شريكة الشهيد في المصائب ... كفيلة السجاد في النوائب
بل هي ناموس رواق العظمة ... سيدة العقائل المعظمة
ما ورثته من نبي الرحمة ... جوامع العلم أصول الحكمة
سر أبيها في علو الهمة ... والصبر في الشدائد الملمة

وإذا كانت الكلمات تقف عاجزة عن تصوير واقعة كربلاء لما فيها من أهوال وما خلفته من مآل ونثرته من كمال ، فإن قصائد في مدح ورثاء العترة الهادية نظمها عبد الشهيد الثور في ديوانه « **الدموع الجارية** » الذي أوقفه على تصوير حادثة الطف الأليمة ودور كل من نجومها وأبطالها وشهدائها ويخص العقيلة زينب «ع» بصفحات كثيرة رصَّعها بنظم الأبوذية المنتشر في العراق والذي لجأ إليه عديد من الشعراء لإيصال الملحمة إلى العامة والمثقفين على السواء نظرا لما لشعر الأبوذية من بلاغة وقوة تصاوير ، وفي تصويره لمعاناة أخت الشهيد ومكابدتها في ميدان الوغى يقول في قصيدة بعنوان « **زينب أم الطهارة تكرَّم بجدارة** » :

هــذي مــصــداق البطولة هــذي دعـــوه صامده
كـمـلـت مــن بـعـد أخوها دعـــوه مـثـلـه واحده
ابـكـر بـلـه ارض الضحايا اشـــلـون جـانـت راشده
وادفـعـت جـلـف الضلاله وشـيـدت اسـم الرساله

إلى أن يقول في قصيدة أخرى بعنوان من كربلاء الشجية عادت سبية :

امــن الـغـاضريـة ردت سبيه راحــت اخـوتـهـا ومـاتـت شجيه
مـعـذورة لو تنهال دمعتها بالخد شافت لخوه برمال كل منهم ممتد
قـاضي ودمـه سـال والفقد مرّد تحمل الـذكـرى ابجانب الحسره

وفي شعر الأبوذية وعلى الوزن المعروف بالفائزي يعرض الخطيب الملا عطية بن علي الجمري في ديوانه الشهير « **الجمرات الودية** » الجمرة الأولى وفيها قصيدة رائعة بعنوان « **وجل زينب وخطابها للحسين** » يدل عنوانها عن مضمونها ويقول فيها :

طلعت من الخيمة الحزينه تصيح يحسين ذوَّبـت قلبي خايفه تبقى بلا معين
جيت بحريمك واوحشت ياخوي لديار وانزلت وادي كربلا وجيش الكفر دار
وانت غريب ابهالفيافي وقلة انصار سبعين الف وانصاركم نيِّف وسبعين
من هالعساكر موحشه الدنيا عليّه من بعدكم يحسين من وصيت بيَّه

وخلال وصفه لأحداث المجزرة يقف عند بكاء زينب وحزنها مصوراً بكثير من اللوعة موقف الهاشمية ليلة الواقعة :

ثاري اخْوتي خطّار عندي يا مسلمين　　بس هالمسيّه والصبح للموت ماشين
هلت دمـوع عيونها وقامت كئيبه　　وطلعت تلوب وتسحب أذيال المصيبه
وتصيح اثاري حسين يتركني غريبه　　حرمه وغريبه شلونا سوي ابهالنساوين
صاح الشهيد حسين زينب يازجيّه　　بطلي البواجي زادت اهمومي عليَّه
صبْري عسى الله يساعدج ياهاشميه　　مـادام أنـا موجود يختي ما تذلِّين
تبجين يازينب وعندج صفوة ارجال　　عباس بيهم يعرفونه موت الابطال

ويصور الملا عطية بالكلمات الباكية الندية وداع العقيلة لشقيق روحها وكفاحها قبل أن تبتعد عن جثمانه الطاهر المجندل بمهانة فوق أرض المصارع فيقول :

يحسين ساقوا الضعون وطوَّح الحادي　　وظلت جثثكم عرايا واقفر الوادي
أشكي أحوالي لخويه حسين لوعباس　　وابدي هموم القلب للجسد لو للراس
واشوف جسم الولي بالاعوجيَّه انداس　　والراس فوق الرمح ومذوِّب افادي
يحسين لا تقول زينب ما بقت وياي　　ولا تقول ما خلت ايتامي تلوذ حذاي
ترى الأمر يالولي مايحصل على هواي　　بس ماوصلنا جثثكم صاح المنادي
لو قلت يا قـوم يم حسين خلوني　　سب وشتم حَصَّلت وسياط بمتوني

ومن الشعراء المتألقين في عصره والذي سخَّر قريحته الشعرية فنظم قصائد طويلة في رثاء سيد الشهداء بشعر شجي ، الشاعر الحاج محمد علي آل كمونة الأسدي الكربلائي المدفون جثمانه في حرم الإمام الحسين «ع» فيصف في إحدى قصائده عن زينب «ع» واعتصار قلبها من الحزن لما عاشته في عاشوراء الصعيبة :

لم أنـس زينب بعد الخِـدرِ حاسرة　　تُـبـدي النياحة ألحـانـا فألحانا
مسجورةَ القلب إلا أنَ أعينها　　كالمُعصراتِ تصب الدمع عِقيانا

ولكن الشاعر الأسدي لا تبرح وجدانه معاناة العقيلة يوم المذبحة وما تحملته في الحفاظ على ما تبقي من العترة المقدسة ، فيصفها في قصيدة أخرى :

ولئن نسيتُ فلستُ أنسى زينبا ودوام محنتها وطــول عنائها
حملتْ من الأرزاء ما أعيا الورى حَمْــلَ اليسير الـنـزْر مـن أعبائها
عــن كـربهـا وبـلائـهـا سـل كربلا سـل كـربـلا عـن كـربهـا وبلائها
طــوراً عـلى القتلى تـنـوح وتارة تحـنـو محـافـظـةً عـلى أبنائها
وتـطـوف حـول حِمــىً أبــادَ حُماته صَرْفُ الـردى وأبـاح هتك نسائها

وللعلامة السيد محمد مهدي الخرسان النجفي قصيدة طويلة معبرة عن فضائل مرقدها وعظيم جلاله وقدره ، فيقول مخاطباً قرية راوية بالشام التي تشرفت ذرات ترابها باحتواء جثمان الطاهرة :

تيهي جــلالا يـا بـقـاع الراوية وتـطـاولي شرفـاً بمثوى الزاكية
أدريــتِ من حلَّت ربـاك فطهرت منك الربوع من الكلاب العاوية
تلك العقيلة زيـنـب تُنمى إلى شرف يطول على السماء السامية
والبضعة الـزهـراء فـاطـم أمها حدبت عليها وهي تدعى الحانية
وإلى عــلي وهـــو خـــير أرومة نسب تبلج كـالـسـماء الضاحية
والجـــد أحمـــد مــن أتـــى بشريعة تهــدي الــبرايـا للقيامة باقية

ويكمل وصفه في موضع آخر من القصيدة قائلاً :

شـاد الحسين صروح ديـن هدمت ولـزيـنـب أوصى تـتـم الباقية
فشقيقة السبطين حفت بالذي عــن حمـلـه كـل الـــرواسي واهية
قد قابلت كل الخطوب بصبرها مهما تحيط بهـا الـظـروف العاتية
وأتمـــت الــصرح الـــذي لبنائه قامت عليها فهي أُسَّ الزاوية
بـدمـاء زمـرتهـا تـشـيـد أُسَّه وتـشـيـد أعـــلاه دمـــوع الجارية
فـمـحـت بهـا آثـــار مـلـك أمية مـن دارهـا طـراً فأضحت خالية

ولضريح زهرة بني هاشم في راوية الشام حيز كبير في قريحة الشعراء المحبين لها المجلين لمرقدها الشريف، وقد جمعها ونضدها البحاثة الشيخ محمد حسنين السابقي في كتابه « **مرقد العقيلة زينب** » بعد أن كانت مبعثرة، كما ضمنها إحدى قصائده التي يقول فيها :

أيا راوية طبت يا راوية — دعاك المهيمن يا راوية
علوت على هام بدر الدجى — هنيئا لك الرتبة العالية
أتدرين من ضمنتها حشاك — ومن في رباك غدت ثاوية
ضمنت العقيلة من هاشم — فبوركت بالشام من ضاحية
أراوية الشام رفقا بها — فلا تزعجي الجثة الزاكية
فكم من خطوب ألمت بها — وكم من جروح بها بالية

إلى أن يقول في متن آخر من القصيدة :

بكتك دماً يا بنة المرتضى — مدامع شيعتك الجارية
أتُسبين في كربلا جهرة — ومالك في نسوة ثانية
ويا خفِراً أشبهتِ بالوصي — وبنتاً لأخلاقه حاكية
ففيك سجاياه قد أشرقت — وفيك شمائله زاهية
فيا بضعة المصطفى والبتول — وكم لك من نكبة داهية

ويسجل الشاعر السيد محمود الحبوبي مشاعره لدى طوافه حول الضريح في الشام عام ١٩٥٠ قائلاً :

هذا ضريحك يا بنة الزهراء — أم روضة قدسية الأشذاء
حرم عليه من النبوة هيبة — تُحنى لديها أرؤس العظماء
غمرت جوانبه القداسة فاعتلى — شرفاً تجاوز موطن الجوزاء
نور الرسالة والإمامة ساطع — منه سطوع الكوكب الوضاء
طفنا به فأعاد ذكرى كربلا — مخضوبة منكم بخير دماء

ويصف العلامة الشيخ حسن بن الشيخ مرتضى أسد الله الكاظمي جلال المرقد وطيب بركاته وشفاعة أفيائه ومكرماته :

فطوبى لأرض الشام حيث تنزلت ... بها بـركـات تـربهـا لـيـس يجدب
تحـل بهـا مـن نـسـوة الـوحـي حرة ... مـبـاركـة مـيـمـونـة هـي زينب
تطيب تراب الأرض من طيبها وكم ... تـضـوع طـيـبـا تـربهـا المتطيب
فـمـرقـدهـا في كـل قـلـب معظم ... ومشهدها في كـل نـفـس محبب

وللشيخ قاسم الملا بن الشيخ محمد بن حمزة الحلي أبيات في مرقد المشرفة في الشام يصف فيها دورها العظيم في نشر حقائق كربلاء وتسفيه المرجفين ، ويورد خوارق مرقدها المقدس وتفاوح عبيره فيقول :

لقد ألبست كوفان عـارا ووصمة ... وكلهم جلباب خـزي تجلببوا
فإن خطبتْ فالسيف دون لسانها ... وإن خاطبت فالسمهري المذرب
ودان لهـا أهـل الخطابة فاكسوا ... رؤس وإن لم يجـد فيها المؤنب
لـكـنـهـا أبـكـت قـلـوبهـم دما ... بتقريعها واستـأ كهل وأشيب
لمـرقـدهـا بـالـشـام تـروى ثقاتها ... وقـيـل بـمـصر إن هـذا لأعجب
لمـرقـدهـا بـالـشـام دلـت خوارق ... لها ينجلي عن ظلمة الشك غيهب

ويصف العلامة ميرزا محمد علي الأوردبادي خروج الحسين «ع» عن العهدة بإزهاق نفسه القدسية ، ونهضة العقيلة زينب «ع» بواجبها النضالي الرسالي من خلال مشاركة اخيها وتقديمه كذبيح إلى ساحة الجلال الربوي ، وتوليها شؤون المتبقين من الرفقة المنزهة بعد المذبحة :

وتشاطرت هي والحسين بدعوة ... حتم الـقـضـاء عليهما أن يندبا
هـذا بمشتبك الـنـصـول وهذه ... في حيث معترك المكاره في السبا

وهناك شاعرألهبت شاعريته حرارة الاخلاص في خلق العقيلة فنظم ملحمة طويلة التزم فيها بقافية واحدة حيث بلغ عدد أبياتها الخمسين ألف بيت ، وهو الشيخ عبد المنعم بن الشيخ حسين الفرطوسي ، نقتطف منها هذه الباقة من الصدح

الجميل بحق العالمة غير المعلَّمة وعابدة آل علي المرتوية من فصاحة أهل البيت وبلاغة ابيها وعلوم اخويها السبطين :

هي أزكى صِدِّيقةٍ قد تربت — بين حِجرِ الصديقة الزهراء
وتغذت من فيض علم علي — وعلوم النبي خير غذاء
وارتوت بالمَعين نهلاً وعلا — من علوم السبطين خير ارتواء
وتبنت نهج البلاغة نهجاً — وهو فيض من سيد البلغاء

ولما ركبت العقيلة ناقتها المهزولة تذكرت ذلك العز الشامخ الذي مضى في بيت أبيها ، وتهز هذه الصورة قلم العلامة الشيخ محمد طاهر آل فقيه فيكتب فيها مصوراً فظاعتها :

فلا مثل عز كان في الصبح عزها — ولا مثل حال كان في العصر حالها
إلى أين مسراها وأين مصيرها — ومن هو مأواها ومن ذا مآلها
ومن ذا ثمال الظعن إن هي سيرت — يضيق فمي إن ابن سعد ثمالها
على أي كتف تتكي حين ركبت — وجمّالها زجر وشمر جمّالها
أخمد ضوء البيت عن شخص زينب — لكيلا يرى في الليل حتى خيالها
تمنيت يوم الطف عينك أبصرت — بناتك حين ابتز منها حجالها
قروما تراها جُزَّراً وأراملا — تحن كنيب فارقتها فصالها
له الله من ثكل وقد مات بغتة — لدى بعض يوم عزها ورجالها
وما هان ثكل عندها غير أنه — أمضُّ مصابا هتكها وابتذالها

ولعل الأشعار الكثيرة التي جادت بها قرائح الشعراء ما كانت ستجمع وتنظم من منثورات الكتابة والشفاهة لو لم يتولَ جمعها محققون ذوو جلد وإعزاز لأبطال ملحمة الطف ورموزها الرسالية .

هذه المهمة تصدى لها العلامة المحقق عبد الرزاق الموسوي المقرَّم في كتابه المشع بالدقة والشمولية والمعروف بمسمى « **مقتل الحسين** » والذي شكل المنهل الثر لكل راغب في الاطلاع على فرائد الكلم والقصائد التي قيلت بأهل البيت الكرام على مر

القرون التي تلت الواقعة ، ومنها نقتطف هذه الأبيات المعبرة للعلامة الحجة الشيخ محمد حسين بن حمد الحلي :

فلما رأته بالعراء مجدلاً ... عفيراً على البوغاء غير مشيع
دنت منه والأحزان تمضغ قلبها ... وحنت حنين الواله المتفجع
تقول وظفر الوجد يدمي فؤادها ... عليَّ عزيز إن أراك مودعي
عليَّ عزيز إن تموت على ظما ... وتشرب في كأس من الحتف مترع
أأخي ذا شمر أراد مذلتي ... فاركبني من فوق أدبر أظلع
وذا العلج زجر أرغم الله أنفه ... بقرع القنا والأصبحية موجعي

وللخطيب السيد مهدي الأعرجي قصيدة يصور فيها الحوراء زينب «ع» تناجي أبيها أمير المؤمنين «ع» وتدعوه لرؤية ابنه الشهيد في العراء بوصف يعصف بأوتار القلب إذ يقول :

تدعو أمير المؤمنين بمهجة ... فيها الرزية أنشبت أظفارها
أبتاه يا مردي الفوارس في الوغى ... ومبيد جحفلها ومخمد نارها
قم وانظر ابنك في العراء وجسمه ... جعلته خيل أمية مضمارها
ثاو تغسله الدماء بفيضها ... عار تكفنه الرياح غبارها
وخيول حرب منه رضَّت أضلعا ... فيها النبوة أودعت أسرارها

ومن عيشها مرير الطعم ومن مماتها المكرَّم ومثواها المعظم وشفاعتها السابغة يستوحي العالم الشيخ جعفر التقي الربعي المعروف بـ « **النقدي** » قصيدة مطولة ازدان متنها بهذه الأبيات التي تصف ما عانته العقيلة من مصائب وما كابدته من مرارة دهرها وما أخلصت له وأطاعت من مقادير العناية الإلهية :

وتجرعتْ رَنَق الحياة وكابدت ... من دهرها عيشاً مرير المطعم
فأثابها رب السماء كرامة ... فيها سوى أمثالها لم يكرم
فلها كما للشافعين شفاعة ... يوم الجزاء بها نجاة المجرم
بلغت من المجد الموثَّل موضعاً ... ما كان حتى للبتولة مريم

إلى أن يختمها بالقول :

أشقيقة السبطين دونك مِدْحةً قِسُّ الفصاحة مثلها لم يَنْظم
تمتاز بالحق الصريح لو أنها قيست بشعر البحتري ومسلمَ
يسلو المحب بها وتطعن في حشا أعداء أهل البيت طعن اللهْذم

وهذا وذاك من الشعراء والفصحاء من تهزه مواقف العقيلة فلا يصبر على سكبها أبياتاً مرتعشة من هول الموقف ، وهذا ما ذهب إليه الشيخ حسون الحلي الذي حرك شجونه النفسية وضع الأسارى في الكوفة حينما جاءهم الأطفال بالتمر والخبز والجوز ورفضت زينب تصدُّقهم على أهل البيت لحرمته :

أبا حسن تغضي وتلتذ بالكرى وبالكف أمست تستر الوجه زينب
أبا حسن ترضى صفاياك في السبا ونسوة حرب بالمقاصير تحجب
وتلوي للين الفرش جنبا وهذه بناتك فوق العيس للشام تجلب
ويهنيك عيش والعقائل حسر إذا ما بكت بالأصبحية تضرب

وللسيد رضا الموسوي الهندي قصيدة يصف فيها حال زينب حينما وقعت عيناها على جثمان أخيها المثخن بالجراح المحزوز الرأس :

حرَّ قلبي لزينب إذ رأته تَرِبَ الجسم مثخناً بالجُراح
أخرسَ الخَطْبُ نُطقها فدعته بدموع بما تُجِنُّ فِصاحَ
كنت لي يوم كنت كهفاً منيعاً سَجْسَجَ الظل خافق الأرواحَ
لك جسم على الرمال ورأس رفعوه على رؤوس الرماح

وهناك قصيدة أخرى منسوبة إلى السيد الهندي عثر على خمسة أبيات منها فأعجب بها الخطيب الشيخ محمد المنصوري فأنشد أبياتاً على نفس وزن أبياتها وقوافيها كما يذكر ذلك سماحة العلامة السيد محمد كاظم القزويني في كتابه « **زينب الكبرى من المهد إلى اللحد** » وقد حملت الأبيات الكثير من الغِنَّة والتعابير الرشيقة اللائقة بمقام من تصفها :

سـلام على الحــوراء ما بقي الدهر وما سطعت شمس وما أشرق البدر
سـلام عـلى القلب الكبير وصبره بيوم جرت حزنا له الأدمـعُ الحُمرُ
جحافل جـاءت كـربـلاء بأثرها جحافل لا يقوى على عدها حصر
جـرى ما جـرى في كربلاء وعينها ترى ما جرى مما يذوب له الصخر
لقد أبصرت جسم الحسين مبضعاً فجاءت بصبر دون مفهومه الصبر
رأتـه ونـادت يا بن أمـي ووالدي لك القتل مكتوب ولي كُتب الأسر

ومن أفحل شعراء القرن الثامن الهجري العالم علي بن الحسين الشفهيني الذي أوقف جُلَّ شعره لمديح أهل البيت «ع» وله قصيدة في شجاعة شريكة أخيها في الكفاح يقول فيها :

تـالله لا أنساك زينبَ ، والعِدى قـسراً تُجـاذِبُ عنك فضل رِداك
لم أنـس لا والله وجهك إذ هوت بـالـرُدن سـاتـرة لـه يمناك
حتى إذا هموا بسلبك صحت باسم أبـيـك واسـتـصرخـت ثـم أخاك
تستصرخيه أسـى وعـزَّ عليه أن تـسـتـصرخـيـه ولا يجـيـب نداك

ويعبِّر السيد محمد بن السيد مال الله القطيفي وهو من الشعراء القدامى عن لسان العقيلة «ع» حينما بدأ ركب السبي في التحرك فيصور إختلاجات نفسها وشكواها مما أصابها من الألم في المدافعة عن الحرم والأطفال دون أن تجد من تبثه نجواها وتفضي له بما يعتلج في صدرها من أحزان ، لكنها تتخاطر مع أخيها الذي رحل وتحدثه كما لو أنه حاضر أمامها :

الـيـوم سـاقـوني بظلم يـا أخي والـضربِ أَلَّمـني وأطـفـالي معي
لا راحـم أشـكـو إلـيـه مصيبتي لم أَلْـفَ إلا ظـالمـاً لم يخشع
حـال الـردى بيني وبينك يا أخي لو كنتَ في الأحياء هالَك موضعي
أنـعِـمْ جـواباً يـا حسين أمـا ترى شـمْـرَ الخنا بالسوط أَلَّم أضلعي
فأجابها مـن فـوق شاهقة القنا قُضي القضاء بما جرى فاسترجعي
وتكفَّلي حـال اليتامى وانظري ما كنت أصنع في حِمـاهُـم فاصنعي

وللشاعر الشيخ عبد الحسين بن أحمد شكر قصيدة يصف فيها البتولة زينبا وحولها أيتام آل محمد نقتطف منها :

وتـــرى مخــــدرةَ الـبـتـولـة زينبا ... والخـطْـبُ يَصفِق بالأكف جبينها
مـــن حــولـهـا أيـتــام آل محمد ... يـتـفـيـؤون شـمالهـا ويمينها
لا تبزَغي يا شمس من أفـق حياً ... مـن زيـنـب فلقد أطـلْـتِ أنينها
ذوبي فـإنـك قـد أذبـت فـؤاد من ... كـانـت تظللها الأسـود عرينها

ويقصد خطيب المنبر الحسيني العلامة هادي الخفاجي الكربلائي في رثاء الحسين «ع » ويخص الحوراء زينب «ع » بأبيات حرَّى :

وبـنـات الهـدى بـرزن حيارى ... تـنـدِب الـنـدب والهُـمام الكريما
وأمـــام الـنـسـاء حِـلـفُ الرزايا ... زينب مـن غـدت تقاسي العظيما
تندب السبط والـدمـوع هوامى ... ولـظـى الـوجـد في الـفـؤاد أُقيما
حـــرَّ قـلـبي لـقـلـبـهـا مـذ رأته ... وبـنـو الـشرك منه حـزوا الكريما

وللعلامة الخطيب الشيخ حسين الطرفي قصيدة مضمخة بعبير الإعجاب بزهرة بني هاشم ، ففي أبياتها يصف ماخصها الله به كمنافحة عن مبادئ أخيها السبط وهدمها لدعائم الطغاة بقوله :

خـصـك الله باصطفائك ردْءاً ... لإمـــام عـلى الـشريـعـة قائمْ
قـد أقـام السبط الـقـوائـم للدين ... ليعلو وكـنـت إحـدى القوائم
رامــك السبط للبناء وللهدم ... لــك الله مــن مُـشـيـد وهادم
شِـدْتِ ما أسس الحسين وهُدَّتْ ... بـك ممـا شـاد الـطـغـاة دعائم
وشـهـدتِ الـذي جـرى من عظيم ... الخطب لم يجر مثله في العظائمْ

إلى أن يقول في ختام القصيدة والحسرة تتراكم فوق كلماته وتزاحم مشاعره على ما حاق بالعترة والحرم من مهانات وما لاقته من عَنَت وعذاب خلال مراحل المحنة وما تحملته العقيلة من قساوة ترك حبيبها فوق أرض المصارع :

وتحملت ترك شِلْو حسين عاريا والمسيرَ فوق السوائم
وتهيأتِ للتحمل فيما سوف يأتي من البلاء القادم
ما نسيتِ الحسين للموت حتى مِتِّ والقلب فيه ما الله عالم

ويتذكر الأديب الشاعر الشيخ محسن أبو الحَبْ محنة بطلي الفداء الحسين وزينب «ع» ويصف صعوبة سلو القلب بعدهما :

واذكر ولستُ أراك تنسى زينبا وعساك تذكر قلبها الحرّانا
أحسين سُلواني عليَّ محرم أم بعد فقدك أعرف السُلوانا
أخشى البِعاد وأنتَ أقرب من أرى حولي وأشكو الصد والهجرانا

وإذا كانت حياة السيدة زينب «ع» قد أبكت الأعين وأدمت الأفئدة لما عايشته من مصائب.. فإن موتها ذكَّر المفتونين بكفاحها بما قدمته لنهضة كربلاء فخيم على قلوبهم حزن لا ينفك يتجدد بين كل ذكرى وأخرى ، ويصف هذه المشاعر بأسلوبه المميز الشاعر الشيخ محمد سعيد المنصوري في ذكرى وفاة « **أم المصائب** » :

اليوم يومٌ حزنُه لا يذهبُ ماتت به أم المصائب زينب
ماتت ونار الوجد بين ضلوعها مما جرى في الغاضرية تَلهَب
قد واصلت أيامها بأنينها وحنينها ودموعها لا تنضَب
ما انفك رُزءُ الطف يأكل قلبها ذاك الصبور لدى الخَطوب الطيِّب

ولشاعر طرقت أسماعه مظلمة أهل البيت «ع» وعُجنت أحداث الطف مع مشاعر طفولته في كربلاء المقدسة ، وقد نبعت من قلبه المفعم بولاء عترة نبيه ، وهو الشاعر الحاج عبد المجيد العسكري الكربلائي القائل واصفاً مرقد العقيلة الشريف في الشام :

لزينب مرقد يزهو لشيعتها ونوره صاعد للوح والقلم
يزورها من له علم بشوكتها إني لها ومواليها من الخدم
هي ابنة المرتضى والطهر فاطمة حفيدة لنبي سيد الأمم
في الشام بنت رسول الله حاوية أسمى سمواً وعزاً غير منعدم

ويصف الشاعر حسين العندليب وصية فاطمة لابنتها زينب عليهما السلام بكلمات تقطر شجواً وأسى فيقول :

وصـيـة فـاطـمـة تشطر — فـؤاد الـعـقـيـلـة إذ تصدر
لشطرين صـدراً بشم الوشيم — وعـجـزاً بـلـثـم الجـوى يأمر
وزيـنـب قـد ورثـت فاطما — بـعـلـم وشـجـو لـه تذكر
أتـت زيـنـب في وداع الحسين — تـؤدي الـوصـيـة يـا حيدر
ألا تـرقـب الـوضـع صـدر يداس — وبـالـسـيـف يـقـطـف المنحر

ويصور الشيخ حسن الدمستاني أحد الشعراء الذين ألهمت قريحتهم مأساة كربلاء وعظُمت في صدره محنة ابنة الزهراء وشقيقة المذبوح ظلماً فوق رمال الطف فيصف في إحدى قصائده الحزينة :

موصي الأخت التي لها الآداب دأب — زينب الطهر بأمر وبنهي نافذين
أخت يازينب أوصيك وصايا فاسمعي — انني في هذه الأرض ملاق مصرعي
فاصبري فالصبر من شيم كرام المترع — كل حي سينحيه عن الأحياء حين

إلى أن يقول :

واتركي اللطم على الخد وإعلان العويل — لا أكره أن يسقي دمع العين ورد الوجنتين
اجمعي شمل اليتامى بعد فقدي وانظمي — اطعمي من جاع منهم ثم أروي من ظمي
واذكـري اني في حفظهم طل دمي — ليتني بينهم كالأنف بين الحاجبين
أخت آتيني بطفلي أره قبل الفراق — فأتت بالطفل لا يهدأ والدمع مراق
يتلوى ظمأ والقلب منه في احتراق — غائر العينين طاو البطن ذاو الشفتين

ولشاعر إبداع ملحمة عيد الغدير بولس سلامة قصيدة جميلة في شمائل الطهر والبهاء لسيدة الشهيدات وربة الطهر والبهاء التي حملت ما يزلزل البطحاء من المصائب والعذابات ، ونالت من الأرزاء حتى استنفدت الأرزاء وصبرت وصابرت إلى أن أنهكها جرح مأساة كربلاء .. فيقول :

زينب الطهر والبهاء أفاض الله فيها من السماء البهاء
بنت بنت الرسول جملها الباري فصاغ الخميلة العذراء
أخذت حكمة الرجال فردت ما رواه الرواة عن حواء
لو رأتها حواء في الغيب لارتدَّت إلى الرشد حشمة وإباء
إيه أخت الحسين بنت علي حُمِّلت ما يزلزل البطحاء
أقسم الدهر أن ينالك بالأرزاء حتى يستنفد الأرزاء
نال قلب الزهراء منه كلوم وهو ما انفك يجرح الزهراء
فاصبري فالحياة دار عذاب حسبك الخلد جنة فيحاء

ويصور الشاعر سلامة جرأة العقيلة في الذب عن زين العابدين ودفع السيوف عن جسده العليل ، واستماتتها في صون سلالة أهل البيت من الاندثار وحفظ آخر رموزها فيقول :

اقتلوه قال الولي فهبَّت زينب هبَّة الهصور العادي
صرخت كاللبوءة السمحة التزآر مجروحة بدون ضماد
اقتلوني قبل الغلام وهذا الصدر سمح فاستفتحوا بفؤادي
اقتلوا بنت فاطم فدم الزهراء غال على السيوف الحداد
زينب العُرب ما أعزَّ المفدَّى في الضحايا وما أجلَّ الفادي
ليس في الغاب غير شبلٍ عليل ضرَّجته ضغائن الحساد
فإذا مات أقفر الخدر مِن ليث وبادت سلالة الآساد

وبعد فإن ما أفرزته القرائح من خلُّبها وفرائدها عن العقيلة زينب «ع» منذ مولدها الشريف وحبوها في أحضان جدها المصطفى «ص» ونشأتها في دار أبيها أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ورعاية المعصومة لها وتربيتها مع أخويها سيدا شباب أهل الجنة ، مرورا بيفاعتها وشبابها واقترانها بابن جعفر، ثم خروجها مع أخيها الحسين «ع» إلى أرض مصارعه برفقة رجال أهل البيت وخُلُص أصحابه وحرمه وأطفاله ومعايشتها لمحنته الدامية لحظة بلحظة ، وترؤسها لموكب السبي ومواقفها العظيمة في الذهاب والإياب من وإلى كربلاء والمدينة ، ودفاعها المستميت عن حرم النبوة

وحفظها لآخر السلالة الشريفة زين العابدين «ع » وخطبها الرائعة المؤلبة للجموع والموغرة للصدور ضد طغاة أمية ، ودورها الإعلامي الرائد الذي قلَّ نظيره ومجمل تضحياتها التي لم يسجل لها التاريخ شبيهاً ، ومصائبها التي رصدت لها منذ ولدت وحتى دثرها التراب والتأمت عليها الصفائح .. لاتسعه المجلدات لاشتماله على سفر حياتها العامر وسيرة كفاحها العطرة .

فعليها السلام أبدعت أيما إبداع في حياتها ومماتها بإقامة عقد الأذمَّة وأكدت مودة القلوب لها ، فكانت في حضورها وغيابها ملء الأبصار والأسماع ، بعد أن وضعت على شفاه المؤمنين المفتونين بعظمتها أنشودة إباء وعزة لا تملها الأفئدة وتحنو عليها الأضلع حنو الأم الرؤوم على طفلها البريء .

وكانت الإرهاصات الفكرية التي عصفت بالقرائح على مدى أربعة عشر قرناً تتعاظم جيلاً بعد جيل دون أن يَعْتورها وهن ولا يتطاولها تعب ، ولو شاء جامع هذه الدرر والفرائد التي قيلت في شخصها وسيرتها لاستلزمه ذلك بدل العمر أعمار، ومهما بلغ من همة العقل والقلم فلن يكون بنجوة من التقصير، لكنه بقوة النية ومضاء الحب الحزين لهذا الرمز العقائدي العظيم يخرج الأدب من بين يديه ثرّاً خصيباً يليق بالنفحة الروحية التي حركته من فضاءات من كان لكفاحها وشراكتها لأخيها في كل آلامه ومعاناته هذا الدفع البلاغي والسبك اللغوي المتجدد ، فالقلم غصن روحي فإن لم تَرْوه أنفاس روح سامية .. غدا قصيفاً كخشبة يبست واستحال سريان النسغ في عروقها كما لو كانت خضراء ندية .

وهكذا الحال مع الموروث الشعري المتمحور حول شخص السيدة زينب «ع » فهو ورث أدبي ينطوي على استقامة الأخلاق وتقويم الطباع ، وقد استقام على قاعدة الحديث الشريف « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** » ولأن بلاغة العقيلة وعلمها مستمدان من روحية هذا الحديث وهي التي تأدبت على آداب النبوة من جدها المصطفى «ص» وأبيها علي «ع » .. فقد استنهضت هذه الروحية ما كان غافلاً في الشعراء فجاء نظمهم صدى لصدقية تاريخها المشرَّف ، فلم تقع في كلماتهم مزاعم ولا مغالاة ، ولم يأتوا في كلامهم اعتسافاً ، ولا تخرَّصوا بالأحداث جزافاً ، ولم تكن نواياهم سوى احتساباً

ومكرمةً وتكريماً لصاحبة السيرة وتنزيهاً لتضحيتها غير المسبوقة ولا الملحوقة .

نوايا هدفت لنوال المثابة الغالية ، ومقاصد فكرية هي الذخر الروحي لأصحابها في حين لو غمسوا أقلامهم في دواة يزيديي العصور وأنشدوا قصائدهم في مقامات طغاة القرون .. لأُسقوا ماءً غدقاً ولامتلأت أجربتهم ذهباً وفضة بدل امتلائها عَنَتاً وإساءة ومحاربة وخسارة للمال والأعصاب ولسنوات العمر الغضة .

لكنهم يسخون أيما سخاء في مدح بطولة زينب وأخيها على غير أمل في دانق واحد ، وعلى توقع نوالهم الأذى والمشقة والإحن التي قد تصل إلى محاكمات التفتيش وتوقيع الأحكام الجاهزة سلفاً تحت تخريجات وسفسطات قضاة أين منهم مفتيي السلاطين الذين يعثرون لكل مسألة مخرجاً باسم الشرع المتبرئ منهم ، ويلوون عنق القوانين ، ويبتكرون السابقات والأعراف لتخدم نظرتهم الموتورة ، ولتترجم أوامر أسيادهم بضرورة ألا تترك مثل هذه القضايا بلا حكم ، سواء بالسجن أو الغرامة أو النفي أو القتل في بعض حالاتها.

وبرغم كل ذلك فإن أصحاب الأقلام الشريفة لم يُسقوا صفحات أوراقهم سوى بحبر الحقيقة ، لأن شخصية بمثل قدسية وعظم شخصية حفيدة النبي «ص» ليست بحاجة إلى اختلاق ولا أسانيد بل كانت التآليف ترنيمة تليق بعظمتها وبعيدة عن اعتبار ما دبجوه عن تفاصيل أرزائها تنفيقاً لهم في سوق التاريخ أو تلفيقاً عليهم في مساقه ، ومن يصفها بغير ذلك فإنه يقيس على ما في طباعه من الكلال وفي نفسه من الوترة والوكال ، وقد جهل نصاعة تاريخ عقيلة بني هاشم وقصد حجب شمس الرسالة بإصبعه ، وتجاهل عن عمد متعمد الأسباب التي استنفرت همم أبطال عاشوراء لتصحيح مسار الأمة بخوارق آياتها وسمو مبدئها القدسي ونتائجها التي رفعت للأجيال المتعاقبة على قمة تاريخها العقلي .. خوافق راياتها، وذلك انهمار من بركة رسول الله «ص» ونضرة وعلو فداء عترته لسُنَّته .

وعلى عكس هؤلاء العقليين الذين تنورت بصائرهم بالأنوار الزينبية فصرفوا أعمارهم وعنفوان شبابهم في إيضاح الأمور لأعين ذوي العقول المدخولة .. كان

هناك فريق آخر يطعن في الروايات المتناقلة من شواهد ورواة .. ويقابل رواية الحدث بسؤال مغمس بالسذاجة والإمعان في الخطل :

« **هل رأيت أنت .. هل واجهت ناقل الخبر؟** »

وفي هذا قصد تعجيز ومكابرة ، وفات هؤلاء الدهاقنة المكابرين بالحقيقة معرفة أن سلسلة النقل عن شواهد الأحداث ورواتها تتصل بقطعة إلى قطعة حتى يستقيم مسار التاريخ وكأن المطلع عليه أبصره رأي العين .. ولو درج التاريخ على هذه الأقيسة اللامنطقية لمدخولي العقول وأصحاب الوترة النفسية والروحية .. لما كان وصلنا سوى الأخبار المكذوبة والأشعار المخترعة عند مناقلة الكلام ولكن حقيقة هذه المعادلة أنه حيث يوجد المعنى الديني يكون التثبت والتحقيق الذي لا مساغ فيه إلى خطرات الظنون وفَرَطات الأوهام .

هؤلاء ليسوا بمفازة من عذاب الآخرة لشكهم في الحق والحقيقة ، فجزاؤهم عند الله بإضاعة عمرهم في الباطل وباستحالة نوالهم أي ثواب جرَّاء استغراقهم في ضلالاتهم رغم الحق المصحصح أمام أعينهم ، ولكنهم يردوه إلى هواهم وما في قلوبهم من عَوَج ويحمِّلوه تأويلا على نِحَلِهم دون أن يحرجهم إفساد التاريخ وليِّ عنق أحداثه هوىً وتعنتا .

« **وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين**[1]» .

ولكن ثمة حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رابعة النهار، وهي أنه مهما غالى أهل الوترة والمكابرة ومن في قلوبهم عَوَج .. فإن تلال الشعر التي قيلت عن زهرة بني هاشم ، وجبال مدح شمائلها وسجاياها النبوية .. لَترد للسفهاء وضاعة رؤاهم وخوائها ، وتؤكد لعمي القلوب ذلك العلو الذي توسدته العقيلة في حياة البشر .

ونظرة واحدة لتلك الملايين التي تؤم مراقدها من مختلف الأصقاع والملل والأديان للتبرك بعتباتها المقدسة على مدار الأيام .. لكافية بأن تعلنهم برفعة قدرها

---

(١) الآية ١١ من سورة العنكبوت .

وسمو مقامها اللذين لا يراهما إلا من وَقَر الإيمان خياله واعتمرت العقيدة صدره دون أن يشوبه رياء ويقين لا يطوُرهُ شك .

فقد يجمع الناس على الحق ثم يكابروا فيه الواحد والاثنان والنفر والرهط فتكون مكابرتهم على الأمر فيها وجه من الوجوه التي يثبت بها ويسطع كنجم ملتمع في سماء صافية .

هكذا تُفهم زينب .. وهكذا تُفهم رحلتها مع المجد والخلود وتكليفها الإلهي بأسمى الأدوار طراً فكانت وأخيها عصراً من عصور الإسلام وأزهاها مجداً وكرامة بنقضهما البناء الذي تخلخل في صرح عقيدة الجد بفعل فاعل ، ورفعهما مداميك جديدة لها صلابة الصخر وعنفوان الشريعة الغراء في محراب القداسة الطهور فليس كثيراً القول :

« إن الإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني ، وثورة كربلاء بدؤها حسيني واستمرارها زينبي » .

فالعقيلة مثلت خاتمة الرسالة الخاتمة بدورها الرسالي الذي أعدتها له العناية الإلهية وبشر به جدها «ص» فأدته بكل ما في نفسها من شفافية ، وفي روحها من غيرة على العقيدة ، وحينما أزف موعد هذا الاستحقاق .. تركت كل شيء من حياة بُلَهْنِيَة في البيت الزوجي واصطحبت ولديها ليكونا حطباً لشعلة كربلاء الخالدة فكانت على مر الدهور ومتوالية القرون مشكاة طهر وترجمة لتربيتها الرسالية في بيت جدها الرسول «ص» وتأهيلها القدسي على يدي والدها مؤول القرآن وفيلسوف الإسلام علي بن أبي طالب «ع » ورفقتها لأخويها الشهيدين تحت أعين أمهم فاطمة المعصومة عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وقد سجل في سفر حياتها المشرَّف أن همتها لم تهبط بها يوماً في التصدي لما يخالف هذا المنهج القدسي الذي رضعته في بيت القدسية ، وتأهلت لحمل حمولته الثقيلة بما تشربته من مبادئ أبيها إمام الحق والعدل ومن أخيها الشهيد الذي فدى عقيدة جده بروحه المطهرة وبأنفس عترة النبوة وخُلُص أصحابه الأماجد ، فشكلت معه

أنشودة دهر لأجيال المؤمنين ، إنطوت عليها صدورهم ، وحمتها حنايا أضلعهم وكانت لحياتهم المنبه الرجاف لدى أي نأمة تنبىء بخوار أوضعف يعتوران مكامنهم الروحية .

فلا عجب من هذه الرسالية أن تكون كما كانت .. المنارة والمشكاة وأمثولة التضحية والفداء التي لم يسجل التاريخ لها نظيراً ، والتي ستظل إلى أبد الدهور قلادة للعظمة وللسمو.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

فسلام على هذه الدرة الخالدة

يوم ولدت

ويوم ماتت

ويوم تبعث حية .



الفصل السابع

عضادتا الإيمان

بين زينب ومريم

الأصفياء والمصطفون خصتهم العناية الإلهية بألطافها القدسية ، وأجرت على ألسنتهم من عجائب الكلِم ما لا يستطيع فهمه إلا ذوو العقول النيرة بنور الإيمان وأصحاب حظوة الضمير وأهل الورع ومخافة الله .

إن للورع ومخافة الله ثمرة تدعى « **اليقين** » جامع الفضائل كلها ، وقد امتاز أصحاب اليقين والمرسلون والأولياء والأصفياء بنزوعهم إلى الاستغراق والوله في محبة الله تعالى وخشيته ، وقد ورد أن الرسول «ص» كان من شدة خشوعه لله وخشيته منه أنه حينما كان يمشي يظن بأنه يسقط على الأرض .

وقد أوصل لنا التاريخ الديني حوادث تكرر الغشيات الروحية للمصطفين وكان أمير المؤمنين «ع » تنتابه الغشية في غفلته عن نفسه لحظات مناجاة ربه في خلواته لإحساسه بخطورة حضور قلبه وتوجه جوارحه في لحظات مثوله بين يديه سبحانه وتعالى .

وكان عيسى «ع » يعلو قمة جبل الزيتون ويستغرق في صلاته لساعات طويلة تأخذه خلالها إنغمارات هيولية يغفو على هدهداتها ليصحو بعدها مضطرباً خائفاً مما رأى وطارت إليه نوازعه وخوافقه في الحضرة التي قادته إليها صلاته .

ولو تمعنا فيما حملته أقدار الأنبياء والمصطفين لاعترتنا دهشة من شتى صنوف البلاء والأذى والاضطهاد والتسفيه والمحاربة والاغتيال وضروب الخداع التي

واجهتهم ، وفي هذا عبرة لبني البشر كي يعتبروا ويثمنوا ما احتمله هؤلاء المختارون في سبيل نشر الرسالات وتعضيد العقائد والوقوف أمام عوامل انحرافها .

وتتباين هذه المقادير على حسب تراتبية الأخيار .. فمنهم النبي الذي يكابد ويتعرض لصنوف المؤامرات والتكذيب لثنيه عن مهمته الرسالية ، ومصداقاً لذلك ما قاله النبي محمد «ص» : « **ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت** » حينما بدأ بنشر رسالة الإسلام في مجتمع الجاهلية ، وأيضاً ما قاله عيسى«ع» بعد بعثه بالرسالة الثانية لتصحيح الإيمان في النفوس إذ قال : « **سيضطهدوني لأني أتكلم بلسان الحق ولأنهم أولاد أبيهم إبليس ولكن تلك ساعتهم وهذا سلطان الظلام** » ومنهم الأدنى رتبة مثل الأولياء والمصطفون والخلصاء يتكشف لبصائرهم الغيب المغيَّب مصداقاً لقوله تعالى : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**[1] » .

وفي أحوال أهل اليقين فإنهم كلما ازداد استشعارهم اليقيني كلما زادت ملكاتهم في استشفاف سر ما كان وما سيكون ، وتتعاظم كراماتهم الظاهرة والخفية إلى درجة من الرحابة والاستجابة لأخفت استغاثة وجدان مستغيث ، ويثيبون على قليل مما تهتف به القلوب الواهة إلى نزر من الحقيقة الإلهية[2] لتزيح عنها ريب الارتياب وتعود عليها بعائدة الرحمة والعون والعصمة المانعة[3].

وفي تعريجنا إلى حظيرة التقوى ورحاب اليقين فإن العقيلة زينب «ع » هي الحاضرة الممتلئة بإدراكات المستقبل واستشفافاته بما تمثله من الخُلق الرسالي الثابت الذي لا ينبض إلا بالإخلاص للعقيدة بمرجعيتيه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي «ع» حينما أدركت هذه الحقيقة التي أعدت لها من لدن العناية الإلهية استفاضت بها قولاً وإعلاناً واستعداداً للرضوخ لكل مقتضياتها مهما كلفها الأمر.

وكما استسلمت عقيلة الطهر «ع» لمشيئة ربها وما هيأها له .. كذلك كان حال

---

(١) سورة الجن

(٢) يقول الإمام أبو عبد الصادق «ع » إن اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب

(٣) يقول الرسول «ص» : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض .

الطاهرة مريم العذراء بنت عمران «ع» بنذر نفسها أَمَة لله واستسلامها لتدابيره باصطفائها على نساء العالمين ، وقد نطقتا هاتان الصديقتان بوحي علوي وانقطعتا إلى الله تعالى ، فكانت زينب الصائمة المتهجدة أناء الليل وأطراف النهار ذاكرة الخالق ومعددة نعمه عليها، وفي داخلها إحساس نوراني بدورها الخطير الذي تتهيأ له برضا تام وتعزز إرادتها حياله بصلوات لا ينتهي أمدها ولا ينقطع عددها في كل آن من أناء ليلها وفي كل ساعة من ساعات نهارها ، غير آبهة بوصب ، موطنة النفس على بلوغ سُبُلها رضا الله مؤهلها للأمر الجلل .

وما انقطعت إليه حفيدة الرسول «ص» انقطعت إليه السيدة العذراء «ع» منذ طفولتها إذ أدركت بعفافها الطهري أن ثمة في العالم مقدار لا يحد من الأخطاء والعيوب ، فانصرفت بكليتها إلى العبادة والتبتل ، ولما سلمتها أمها إلى سدنة بيت المقدس وفاء لنذر قطعته على نفسها بذلك.. وتكفَّل رئيس البيت زوج خالتها زكريا «ع » تبنيها دون غيره من الكهنة[1] .. أن أفرد لها غرفة في مكان عال من البيت لتكون بعيدة[2] عن عيون الناس ومنقطعة إلى عبادتها وصلاتها ، وكان يدأب[3] كل يوم على صعود السلم حاملاً إليها الطعام والماء ، إلى أن دخل عليها ذات صباح محرابها فوجد عندها فاكهة الصيف والشتاء فتولته دهشة إذ أن أحداً لا يطرق باب صومعتها فمن أين يأتيها هذا الرزق المبارك ؟! ولكنه قطع شكه بسؤالها عما رأى فأجابته ببراءة

---

(١) اختلف كهنة الهيكل حول رعاية الفتاة مريم.. فاقترعوا أخيراً أن يكتب كل منهم اسمه على قلمه ويلقون الأقلام في نهر الأردن ، فمن لا ينجرف قلمه ويسير عكس تيار الماء تكون له الأحقية برعاية الوديعة ، وبعد أن فعلوا لم يطف منها عكس التيار إلا قلم زكريا «ع » ، فانقطع جدالهم ، وفاز زكريا بالوديعة الغالية ، وقد أوردها القرآن الكريم إذ يقول تعالى مخاطباً النبي «ص» : « **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهُم يكفُل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** » .

(٢) قصص من أنعم الله عليهم في سورة مريم تؤكد أن هذه المنحة تأتي استجابة لدعاء يسبقه منهج في الاعتزال .. زكريا لا يكلم الناس ثلاث ليال ، مريم تنتبذ من أهلها مكاناً شرقياً ، عيسى يهاجر مع أمه إلى مصر ، إبراهيم يعتزل أباه وقومه وما يعبدون ، إسماعيل يهجَّر إلى مكة ، فكان الاعتزال والبعد عن الناس والصمت المطبق هو شرط تحقق المعجزة ونيل الموهبة - د . أسعد علي « **المعجزات المريمية** » ص ١٤٨

(٣) لقد أشار القرآن الكريم إلى تنشئة زكريا لمريم على الصلاح وتكفله بها في هذه الآية :
« **وأَنبَتَها نباتاً حسناً وكَفَّلها زكريا** » .

واثقة : « **هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

وبهذه المتوالية التبتلية كانت زينب «ع » تعيش أيامها بالصلاة والبعد عن الناس والاهتمام بأسرتها وهي بعد غضة الأهاب ، فلم ير مطلق إنسان وجهها ، ولم تكن لتغادر بيتها مالئة نهارها بخدمة أسرتها بعد رحيل أمها الزهراء «ع » وساهرة ليلها في التهجد والدعاء والصلاة .

لقد تشابهت السيدتان المباركتان بكثير من النعم والبلايا ، وفي هذا حكمة إلهية خصت بها أولياءها ، من الصابر أيوب المبتلى بكل أنواع البلايا ، إلى إبراهيم ويحيى وإسماعيل وإدريس وزكريا ومريم وعلي وفاطمة وزينب والحسن والحسين عليهم جميعاً السلام ، وقد وعت زينب وهي طفلة غضة كلام أبيها بهذا المعنى واستوطن عقلها الصغير ، ومع حبوها المتعثر وخلال درجها في مدارج اليفاعة كانت تسمعه يفسر سبب ابتلاء الأنبياء والأصفياء والخُلُص لله ، بقوله :

« **إن أشد الناس بلاء النبيون ، ثم الوصيون ، ثم الأمثل فالأمثل ، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صح دينه وحسُن عمله اشتد بلاؤه ، ذلك أن الله لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر ، ومن سخف دينه ضعف عمله وقل بلاؤه وإن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض** » .

لقد تجلت في حياة العقيلة ألوان البلايا ، وكان جدها الرسول «ص» قد تنبأ لها بها حين ولدت وجاء ليراها وأخذ يبكي مما أثار دهشة ابنته فاطمة «ع» فسألته عن سر بكائه .. فأبلغها بأن هذه البنت المولودة ستبتلى بأشد البلايا في حياتها ، وكان هذا الاستقراء النبوي لغيب زينب مقدراً ومحققاً ، فكانت للبلايا مرصودة وللرزايا موقوفة حتى آخر حياتها ، لكن هذه المولودة البشيرة نفحها الباري تعالى بشمائل رسالية بدأت تباشيرها مبكرة في حياتها الغضة .. فكانت مذ تصدت لواجبات أسرتها بعد رحيل أمها المعصومة«ع» وما تلاها لحين خروجها مع أخيها .. أهلاً للمسؤولية استشعرت ملامح دورها المستقبلي بكثير من التبصر ونورانية الحدس وصدق الإستقراء وفضلاً عما خصتها به عناية السماء من فضائل خلقية وإيمانية

ومواهب ذهنية ونفسية لتكون جديرة بدورها رفيع الشأن المقبل ، فإنها آلت على نفسها ألا تهدأ أو تستكين رغبتها في النهل من التراث الرسالي لبيت النبوة وإرثه الفكري العظيم حتى غدت خطيبة لا يشق لها غبار في الفصاحة وعلى منهج أبيها «ع» كانت بلاغتها موصوفة وحجتها موقوفة على العلم النبوي والإلهام السماوي المرصود لأمثالها من الأولياء المتقين الغيورين على العقيدة .

ولما بشر جبرائيل العذراء مريم «ع» ببشارة حملها بعيسى «ع» ارتعبت وتجلى لها ماضي حياتها وما عانته في مجتمع الناصرة وما كان يقلقها من أحاسيس غامضة لا تجد لها تفسيراً وغير مدركة أنها مختارة من العناية الإلهية لحمل نفحة روح الله عيسى ولما تلقت البشارة علمت ما سر قلقها وما كانت تشعر به من أخيلة وتصورات تعذبها وتدفعها إلى العزلة الدائمة عن مجتمع قريتها الصغيرة ، ولما حملت بالمسيح لاحقتها الاتهامات ونالها من الأذى النفسي ما نالها .

هؤلاء الأصفياء رصدت أرواحهم للمعاناة الممضة قبل أجسادهم فكانوا لأنفسهم آية وللآخرين عبرة جليلة وتذكرة حسنة على الرغم من المفتريات المقنعة والتعارضات الجاذبة للتصديق والمسخَّرة لها أعلى ألوان التوثب المستندة إلى أوهى الأسباب وأضألها ، وهذا ما واجهته الصديقتان زينب ومريم «ع » خلال استجابتيهما لنداء السماء من أجل الرسالتين ، غير آبهتين بما يفترى عليهما وما تتهمان به وما فسره الغلاة والصائدون في الماء العكر .

لكن القلوب المتصلة بجلال خالقها لا تؤثر فيها الأراجيف الضالة ، ولأن سَمْتها الرسالي لا تصله صغيرة من الصغائر البشرية مهما بلغت سعات الأشداق وتهدُّل الشفاه المغرضة عن قول الحق ، وهذه شمائل الأولياء الصالحين المعدين لحمل أثقال رسالية ينوء البشر العاديون عن حملها ، والذين تنصبهم يد الله على طريق البشر لتنتهي بهم عصور وتبتدئ بهم أخرى ، وتنفخ في مداركهم من الرؤى الوضاءة ما يساعدهم على تسديد خطا العقول ومقارعة أهل التشديق وإعجاز الراغبين في الشر ليمسكوا عنه ، ودفع الهائمين بالخير ليقدموا عليه .

إلهامات رسالية ورؤى سماوية تحولت إلى عبارات ساحرة للأنفس الشفيفة ، وقد بقيت بعد رسول الله في عِقبه من أهل البيت «ع » ومن اتصل منهم بسبب أورثها[١] ذلك أفصح الخُلُق ولادة ، وجادت لهم طباعه الشريفة بهذه الإجادة ، فما تُعارِضُهُم بمن يحسن البلاغة إلا كانت لهم في البلاغة الحسنى وزيادة .

وابتلاء زينب «ع» في جمع عمرها ما هو إلا اصطفاء لمن تربى على بلاغة النبوة وفصاحة أمير المؤمنين «ع» فلم يكن عداها مؤهلاً لتحمل بلايا دورها الصعب وما كان ثمة مؤهل لتبليغ أهداف حركة أخيها إلا لسان دار ببلاغة نهج البلاغة وفكر تشبع بحكمة أمير الكلمة الحقة ، وتدبر آيات القرآن بالذوق والإلهام المتبصر بلغته الفريدة ، وإلمامه بوجوه الخطاب والحنكة في سياسة المنطق ، وهذه الصفات تشكل ثوب الفضيلة التي ينسجها المختار من خيوط أيامه في ثوب العقيدة وتاريخها فلا جَرَم من اختيار العناية الإلهية لزينب العابدة التقية لتنسج على نولها هذا الثوب للعقيدة كي تحميها من صقيع الضلالة .

إذن فقد تحددت ماهية أدوار العقيلة واتضح سر رضوخها لأرزاء أيامها وبمقارنة ما تهيأت له واستعدت لتحمله إلى أن لقبت بـ « **أم المصائب** » .

ولا عجب في هذه التجلة الإلهية التي تختار للجليل من الأدوار المتصلة بالعقائد صفوة الآخذين بأخلاقها ، والمتشربين لخصائصها التي لا تفصح عن مكنونها إلا للمتقين كيلا يكون ثمة مساغ للتعلل فيها ، ولا يكون من أمرها على الناس هُوَيداء ولا رُويْداء ، وحتى لا يشك فيها أهل[٢] المظنة والشك ولا يرتاب من ربما كانت الريبة من أمرهم خصلة ومنهجاً ، والوضاعة[٣] الوضيرة لهم خُلُقاً .

---

(١) نص العلماء على أن فصاحة الحسن البصري مرده إلى إرضاع أم سلمة إياه .

(٢) قال أبو عبد الله «ع » ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلما أو ينعش حقا إلا اصطلمته البلية وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا « **شرح الصحيفة السجادية للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي** » .

(٣) يقول الإمام أبي جعفر الباقر «ع » : « **إني لأعجب من قوم يتولونا ويجعلونا أئمة ويصفون أن طاعتنا مفترضة كطاعة رسول الله «ص» ثم يكسرون حجتهم ويخصون أنفسهم لضعف قلوبهم فينتقصونا حقنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا والتسليم لأمرنا** » .

تقبلت زينب دورها بنفس راضية مع علمها الأكيد بما كان ينتظرها من هذا الدور فلم تأبه مادامت عذاباتها ستصب في نهر عقيدة جدها وتعيد لمائه النمير زرقته وصفاءه ، وتقبلت مريم دورها كأَمَة للرب يفعل بها ما يشاء رغم مخاوفها وخشيتها من تكذيب الناس لها وتسفيههم لما سيكون من أمرها بولادتها لطفل وهي العذراء غير المتزوجة واتهامها بالزنا وهي أخت هارون النبي وابنة عمران الصالح .

متشابهات كثيرة مابين زينب ومريم .. فقد لقبت زينب بـ « **أم المصائب** » ولقبت مريم بـ « **أم الأوجاع** » .

زينب حينما خاضت مع أخيها معركته الخالدة فداء لعقيدة جدهما الرسول «ص» فهي بهذا المقتضى غدت شريكته في الكفاح والآلام وتحمل النتائج ، وهذا ما أثبتته وقفتها الجسورة في أشداق الموت والمهانة والخطر متحملة آلاماً تنوء بحملها الجبال الرواسي ، فحق لها أن تشارك أخاها هذا الخلود السرمدي وهذه التجلَّة العالية .

ومريم وقد اختارها الله تعالى أماً لرسوله عيسى «ع» حملت بطفلها بالألم وأرضعته وربته ثم مشت برفقته في درب آلامه وعانت معه كأم خلال نشر رسالته واكتوى فؤادها وهي تشهد اضطهاده وضربه وضفر رأسه بإكليل الشوك وتعذيبه فكانت أيضاً شريكته في خلوده كما كانت شريكته في آلامه وعذاباته .

ويغدق عليها القرآن الكريم ألقاباً مبجلة ويذكرها في اثني عشر سورة وفي نحو ثلاثين موضعاً في الآيات :

« إذ قالت الملائكة يمريم[1] إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصَّلحين قالت ربي أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء »

وفي المعنى القرآني في سورة آل عمران أن الله تعالى اختار البتول مريم «ع» من بين سائر النساء فخصها بالكرامات وطهرها من الأدناس لكثرة عبادتها وطهارتها

(١) آل عمران ٤٥ ـ ٤٦

من الأكدار وجلال قدرها على نساء العالمين[1] وقد امتثلت للملائكة حينما أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود[2] وهي العابدة المتبتلة في عبادتها استعداداً للرضوخ للأمر العظيم على مستوى العقائد الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورِفعة في الدارين .

وحفيدة الرسول «ص» أقامت الصلاة وآتت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وجاهدت في سبيل الله حق جهاده حتى أتاها اليقين ، فشدد الله من عزمها في مواطن المحن الشديدة وألهمها جميل الصبر وحباها بقلب صبور ولسان شكور فتصدت بقلب مفعم بالإيمان للمصائب والكروب وما أذاقتها إياه النوائب الجسام التي تعجز عن احتمالها الجبال ، فغدت للبلايا قبلتها وللرزايا كعبتها ، وعجبت ملائكة السماء من صبرها يوم الكرب والبلاء في العاشر من عاشوراء وما قبله وبعده.

فإذا ما رسمت السماء أقدار مريم وزينب «ع» فمن الطبيعي أن تتشابه عذاباتهما ومعاناتهما مما أنيط بهما من أدوار ، فسبحان الله كيف يؤلف ما بين القلوب والنوايا فتجري معانيها على الألسن كلمات وتترجم مبانيها على الأديم مواقف وخطوات .

وفي تشابه المقادير يكمن تماثل ردات الفعل ونفثات الألسن بالإلهام المُلهِم ، ففي اشتداد مواقف الألم وتعاظم سقف المحن على المختارتين كانت عبارتيهما واحدة في المعنى والمبنى وتوافق الموقف .

ففي معمعة الساعات العصيبة التي عاشتها زينب «ع» في يوم المذبحة الرهيب وحينما صافحت عيناها جسد أخيها مجندلاً مرضوضاً مفصول الرأس .. أن ألقت بنفسها عليه وهي تئن وتصيح من هول اللحظات هذه وتمنت الموت على فراق جثمانه

---

(١) روي عن رسول الله «ص» أنه قال : « **خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد .. ويعني بقوله «ص» خير نساء أهل الجنة ، وذكر أن النبي «ص» كان يقول : « خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه زوج في ذات يده » وذكر أنه «ص» كان يقول : « لو علمت أن مريم ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً »** .

(٢) قال تعالى في سورة آل عمران ٤٣ : « **يا مريم أُقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** » وفي الإنجيل حياها الملاك قائلاً : **يا مريم الممتلئة نعمة الرب معك مباركة أنت بين النساء ومبارك ثمرة بطنك يسوع المسيح** .

الطاهر ، ولما تحوَّل ركب الأوبة إلى المدينة وأُنزلت حمولات المحامل من فوق الهوادج أجساد منهكة ونفوس مضنوكة .. أمالت العقيلة عينيها صوب كربلاء وطفقت في مناجاة حبيبها الحسين البعيد عنها وأطياف المجزرة تلوح في مقلتيها مترقرقة بالدمع المدرار فقالت :

« **يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** » .

ومريم العذراء قالت ذات العبارة حينما فاجأها المخاض ولجأت إلى جذع نخلة

قولتان متشابهتان كما التوأم صدرتا من قلبين مفطورين بالألم ومن شفاه معصورة بالأسى على وجع الأمومة وضنك الفراق وهول الشعور بالوحدة والمسؤولية الإيمانية في إكمال رفع الراية وحمل الشعلة التي من أجلها ضحى عيسى والحسين «ع» بنفسيهما كيلا تنطفئ أنوار الحق وتُنكس رايات الفضيلة وتُردم دروب الحق بنفايات الضلالة وأشواك الانحراف وجمر المظالم الحارقة .

وهذه العبارة المشتركة تضمنت إفاضات لا تُحد إذ لا تمثل أي نذر من اليأس والنكوص بل هي تتمارى مع الإحساس العميق بوطأة الحدث على القلبين الشفيفين وتبرز أهمية وعلو مقامه في سجل السماء ، وإذا لفظتها شفتا الأخت زينب وأم أخيها «ع» فإنما تدلل على نفسها المصطبرة على التضحيات التي قدمت حتى الآن واستعدادها لتحمل المزيد إلى مالا نهاية من التحديات المقبلة والتي مازالت في علم المجهول ، ولكنه مجهول معلوم لديها وهي العالمة المعلَّمة بعلم الغيب وتوقع أحداثه وإن لم تبن بعد ملامحها الدقيقة .

ولم تكتف العذراء مريم بقولتها هذه لحظات مخاضها بمولودها روح الله عيسى بل كررتها حينما مشت خلف ابنها في درب الجلجلة ورأت جنود الحاكم الروماني بيلاطس البنطي يجلدونه بسياط أحدّ من السيوف ، وعاينت سريان دمه من تحت إبر إكليل الشوك الذي ضفروه فوق جبينه .. وتعذبت من رؤيتها الجنود وهم يسخرون منه ويبصقون عليه وينزعون ملابسه ويقترعون عليها ، فكانت آهاته ترجع وجيعة في حناياها تعتصر فؤادها وتدميه .

والحكمة الإلهية التي اختارت هاتين المرأتين لتكونا شريكتين لرسولها عيسى ولسيد شباب أهل الجنة سبط رسولها محمد «ص» في كفاحهما الملحمي من أجل عقيدتي المسيحية والإسلام .. فيه تكريم للمرأة وإعلاء لدورها العقائدي والاجتماعي في مجتمعات ذكورية كانت تئد الإناث وتنظر للمرأة نظرة دونية ، وقد عمل الرسول الكريم «ص» بهذا المقتضى الإلهي فكانت حبيبته الأثيرة فاطمة الزهراء «ع» مرافقته أينما حل وارتحل ، وقد أحلها في قلبه محل أمه وهو الفقير اليتيم الذي حرم من عطف الأمومة ، فكان يناديها بـ « أم أبيها »[1] وهي التي ولدت في بيئة مفتونة بالبنين الذكور قبل المبعث بخمس سنوات فاقترن مولدها بالحدث الجلل الذي رعته قريش وارتضت فيه محمداً حكماً فيما شجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة المشرفة فاستبشر أبوها بمولدها واحتفل به احتفالاً لم تألفه مكة في مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهم ولد .

وكما هو معروف في لسان القرآن الكريم أن كلمة « **أم** » هي الأصل ، حيث وصفت مكة بـ « **أم القرى** » فكانت قطب الرحى لما عداها من القرى ، فكيف يخرَّج المعنى من هذا اللفظ إذا كان يدور عن فاطمة .. وما معنى أن يناديها الرسول الكريم بهذا اللقب ؟

الجواب في كون الزهراء مصدر ذريته «ص» ومنبع نسله ، وكانت«ع» تقوم بمداراة أبيها ورعايته أفضل ما تكون المراعاة من أم لولدها ، وكان «ص» يستبشر خيراً بمرآها وهي مقبلة إلى مجلسه فيستقبلها ببشاشة و يناديها بقوله :

« **مرحباً بأم أبيها** » ويقوم لها إجلالاً و يأخذ بيدها ويقبلها ويجلسها إلى جانبه وكان إذ يقبلها يقول : « **أشتم منها رائحة الجنة** ».

لقد كرَّم رسول الله حبيبته فاطمة لأنها أم السلالة النبوية ومنجبة ذرية الأئمة المعصومين وأولادهم الطاهرين ، كون الإمامة هي استمرار للنبوة وحافظة للرسالة

---

(١) لقد اصطحب الرسول «ص » فاطمة «ع » إلى مباهلته مع نصارى نجران لتوكيد أهمية المرأة في الإسلام الوليد ، وكان لحبه لمهجته الزهراء ولتعلقها به وحنوها عليه أن استحقت عن جدارة لقب « أم أبيها » .

المحمدية ، وكما أن النبوة هي واجهة اللطف الإلهي .. فكذلك الإمامة واجبة بهذا اللطف ، وكما أن الله تعالى يختار للنبوة من يشاء .. فكذلك تختار عزته من تشاء للإمامة لاستمرار العقيدة ناصعة متلالئة على مدار الدهور ، لذا فإن فاطمة هي أم للمعصومين بتكريس أبيها «ص» لها لهذه المرتبة العالية ، وبذلك تلت البتول مريم «ع» بهذه الخصيصة من لدن العناية الإلهية كونهما مصدر القدسية المتفرعة عنه شموس الهداية وبدور الدُجى(١) .

وابنة بهذه الشمائل الملائكية السامية فلا عجب أن يتعلق قلب أبيها بها وهي التي قال عنها ما تواتر عنه «ص» من الخاصة والعامة : « **فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني** » وكما قال «ص» بحقها : لو كان الحُسن شخصاً لكان فاطمة بل هي أعظم فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً وهي بهجة قلبي وأبناؤها ثمرة فؤادي وبعلها نور بصري.

وبهذه الأقوال والمواقف كان الرسول «ص» يبعث برسالة إلى البشرية بضرورة رفع المرأة إلى مكانة تليق بها في كل ما تفوه وأعلنه ومارسه ، لأن الإسلام أراد لهذا المخلوق الذي تحمل خصائصه الرحمة والرقة أن يكرَّم ، فهي الأم الرؤوم والزوجة الحنون والابنة المحبوبة والأخت الكريمة ، لذا فقد قال «ص» : « **إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد** » فسما بالأمومة إلى أفق لا يصله ترف وغنى وجاه أباطرة وملوك ذلك الزمان ، وحينما قال «ص» : « **الجنة تحت أقدام الأمهات** » تهاوت آخر حصون الاستهانة بالمرأة وكانت هذه العبارة هي الحكم الفصل في تكريمها .

وفي نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه جاء قوله لابنه : « **إن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة** » فهذه العبارة صورة للفضيلة التي نظر بها الإسلام للمرأة حيث أعطاها أدواراً مهمة مثل مشاركتها بالهجرة إلى المدينة والحبشة ، وحين أقام

---

(١) للشاعر حسان بن ثابت أبيات يصف فيها بتولية مريم وفاطمة «ع» بقوله :

وإن مريـم أحصنــت فرجـها   وجاءت بعـيسى كـبدر الدجى
فقـد احصـنـت فاطـمُ بعدهـا   وجـاءت بسـبطي نبـي الهـدى

النبي «ص» مباهلته مع نصارى نجران كانت فاطمة المرأة الوحيدة التي جاء بها إليها والأنثى الوحيدة التي شملتها آيتها .

أما لقب البتول فقد تشابهت به مع مريم العذراء عليهما السلام التي اختارها الله وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين ، وقد بُشرت بولدها القدسي « **إن الله يبشرك بكلمة** » **وفاطمة بُشرت بالحسن والحسين ، فبالحديث أن النبي «ص» بشَّرها بوعد ولادة كل منهما بقوله : « ليهنئك أن ولدت إماماً يسود أهل الجنة »**.

من كل ما تقدم فإن الرسول «ص» أكد في رسالته إلى مجتمع يكن معزة خاصة للذكور بأن العقيدة الوليدة تجل المرأة على عكس ما كانت تلقاه في الجاهلية من إنكار لكيانها وحطٍ من وجودها حيث كان سائداً وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء وما شابه ذلك من ممارسات الضعة والهوان ، ولقد اهتم القرآن الكريم بشخصية المرأة حينما كان التوحيد في خطر وكان الشرك منتشراً وكانت حرمة المرأة غير محفوظة أيام نزوله ، لذا فقد أكد على مسألة هذه الحرمة أكثر من حد التوقع وذكر لها سهماً في كافة الشؤون ، وشخَّص معيار القيمة في كافة شؤونها ومسائلها القيمية وحدد موقعها الصحيح في القوى الثلاث للنفس البشرية وهي : القوة الجاذبة والقوة الدافعة وقوة التفكر.

لقد كانت المرأة كطائر مدجن له جناحان وغير قادر على الطيران ، ولما نزل القرآن الكريم أعلى من شأنها وساواها[1] بأخيها الرجل في قوله تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**»[2] وبحسب تعاقب الأزمنة فإن مريم كانت الفاتحة الأولى لعصر المرأة الشاهدة بقبول ربها لأنوثتها باصطفائها على نساء العالمين ، وجعلها القرآن الكريم بشارة مساواة بين الخلائق الرجل والمرأة رغم تلك القوانين والأعراف التي كانت سائدة والتي

(١) قال تعالى :« **من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياةً طيبة** » الآية ٩٧ من سورة النحل ـ وأيضاً : « **يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى** » الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) سورة التوبة

اغتصبت حقها في كل مناحي الحياة ، وكانت امتهاناً لكرامتها الأنثوية روحاً وجسداً فشاع في مجتمعها حرمان المرأة من التعليم والحركة ، وكان مدعو التدين يفضلون حرق التوراة من أن تسلم للنساء ، وكانت عبارات صلاتهم تتضمن القول : « **تبارك من لم يخلقني وثنياً ولا امرأة ولا جاهلاً** » .. بينما كان وأد الوليدات في الجاهلية ممارسة مذمومة بعد نزول رسالة الإسلام .

وكما كانت المعصومة فاطمة «ع» أماً لأبيها .. فإن ابنتها زينب مثلت الأم لأخيها والصدر الحنون الذي أسند عليه رأسه المثقل بالأحزان والآلام وخذلان الأنصار وكما قرَّعت العقيلة أهل الكوفة على خذلانهم أخيها وعدم نصرته .. كذلك شكت العذراء مريم من خيانة أنصار ابنها له إذ قالت بأسى : « **إن أصدقاء ابني وإخوته وأعضاء جسده الملتفين حوله كانوا دائماً أقسى جلاديه وخونته ، وقد جاءته أبشع الإهانات والخذلان منهم** » .

والمرأة شكلت في الثقافة الإسلامية شرط إثبات الذات الإنسانية المكتملة بمفهوم المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات ، وكانت فاطمة بضعة[1] محمد «ص» الموصوفة من أبيها بـ « **أم أبيها** » تكريماً لها ورفعاً من مقدار النساء في عصرها والعصور التي ستلي ، هي الامتداد لمريم البتول أظهرت أمومتها للرسالة الإسلامية كما أظهرت مريم أمومتها لرسالة المسيحية ، أمومتان تحتفلان بعرس واحد هو عرس الانتظار وعرس الخلاص ، لحظة العناق الخالد بين ابن فاطمة الإمام المهدي وابن مريم عيسى المسيح عليهما السلام فوق أرض الشام المباركة .

---

(١) يصف الشاعر الملحمي المبدع بولس سلامة في سفره « **عيد الغدير** » فاطمة الزهراء «ع» وصفاً ولا أروع إذ يقول :

ولو أن الدهناء تِبرٌ لكانت — بعض شيء بجانب الزهراء
بضعة من أب عظيم يراها — نور عينيه مشرقاً في رداء
فهي أحلى في جفنه من لذيذ — الحلم غبّ الهجود والإعياء
وهي قطب الحنان في صدر طه — واختصار البنات والأبناء
غيّب الموت من خديجة وجهاً — فإذا فاطمٌ معين العزاء
تحسب الكون بسمة من أبيها — فهي أمّ تذوب في الإرضاء

وزينب مثلت الامتداد الثر لرفعة أمها المعصومة عليهما السلام ووريثة لمناقبها في الحنو والطهارة وإنكار الذات ، وقد اندفعت بعد رحيلها إلى التفاني في خدمة أسرتها رغم صغر سنها ولم تضن بأوقاتها للغير فكانت تعلم القرآن للداتها وتجالس المسنات وتطير بجناح همتها التي لا تعرف الكلال إلى مستويات نورانية تنفع الناس بعلمها الذي تلقنته من أبيها أمير المؤمنين «ع» وتقربت به إلى الله فكان لها الأنس من الوحشة والنور من الظلمة لاشتقاقه من العلم الإلهي المعرِّف لأصول الدين وعلم الأخلاق والمبصِّر بمنجِّيات النفس .

وكانت على مدى مسيرة حياتها نموذجاً للتواضع[١] البعيد عن الكِبَر ، ومثالاً لمن شرح الله صدورهم وحلَّ عقد ألسنتهم ، من نودي عليهم من وراء سرادقات الحضرة فأفاضت عليها من فيوضات عالم القدسية وأبانت لها الحقائق اليقينية وأجْلت لبصيرتها صورة عالم الملك والشهادة فتأهلت منذ يفاعتها لحمل أمانته بعد استغراقها في لجة حبه وأنسه واستحواذها على كنزه[٢] فما حادت عن صراطه المستقيم قيد أنملة وجاهدت لفطام نفسها عن سفاسف الأمور ومتواضعات الدنيا الفانية فلم تنطق إلا بالحق .. ولم ترنُ إلا لجمال الأبد ومعاينة جلال السرمد والاستضاءة بالإشراقات الروحية[٣] والأنوار الإلهية .

ولمريم البتول التي أحصنت فرجها فولدت روح الله عيسى يُسرُ المسرة وقولُ الحق

---

(١) قال الرسول «ص» : « **إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله** » وقال عيسى «ع» طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، وأوحى الله إلى داود «ع» يا داود كما أن أقرب الناس إلى الله المتواضعين كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون ، وقد أمر الله سيد بريته محمداً «ص» بالتواضع فقال عز وجل : « **واخفض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين** » الشعراء الآية ٢١٥ ، وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري «ع» : « **من تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب** «ع» .

(٢) « **وكان تحته كنز لهما الكهف** » الآية ٨٢

(٣) يصف العالم المجتهد محمد مهدي الزاقي في كتابه « **جامع السعادات** » الإنسان بأنه ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة فينتقل إلى العالم العلوي نافضاً عن روحه كُدُورات الحياة فتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالخالق ، وترتفع من أمام بصيرته الغواسق الطبيعية بأسرها وتُزال عنه أستار العوائق الهيولانية برمتها .

هي المقدسة في الإنجيل والقرآن ، وهي الحبل السري الموصل بين أتباع الرسالتين ميم البداية[١] في اسمها مسيح .. وميم الغاية .. محمد .

فمن هي مريم التي احتباها الله وأكرم مثواها ومنقلبها فدلت به عليه ، وعلَّمها من غيوب الحكمة والعلم فشغفتها براهينه والأسرار ، فألبسها الله نوره فتنورت بعباءة تبتلها والخشوع ، تولج صلاتها بصيامها بزنابق صمتها إليه ، فتعلق في دياجي الغسق سراجاً لجماله الذي ليس بعده بهاء .

إن اللواتي رأين جمال يوسف لم يحتملن جسد وبشرية جماله ، فقلن : ما هذا بشراً فكيف بهن لو رأين رأي العين طلعة مريم من خباء جمالها[٢] الأضوء والأطهر من كل جمال ؟

ومنذ القرن الأول للمسيحية لم يكن من القديس المفتون بجمال مريم وكواكبها إلا أن يهتف لروحها قائلاً على وجل من خد الشمس على خدها :« **لو لم تكوني خليقة لعبدتك**[٣] » .

وما يقرب زينب المختارة من مريم البتول هو خط القدسية في شخصيتيهما وروح الكفاح في نضالهما مع شريكيهما عيسى والحسين ، وما وسم حياتيهما من مشاعر الأمومة والأخوة في كل المراحل .. إذ عرف عن العقيلة أنها كانت شديدة التعلق بأخيها الحسين منذ نعومة أظفارها ، وكانت تترقب عودته إلى البيت بلهفة وشوق ممزوجان بالقلق إذا طالت غيبته ، وكان «ع» بالنسبة لها توأم روحها ، لا تصطبر على

---

(١) المعجزات المريمية ـ للدكتور أسعد علي .

(٢) يصف الشاعر اليوناني سبينوزا راخيليوس جمال مريم البتول وملتمساً شفاعتها الأخروية في هذه الترنيمة الرائعة :

يا مريم البكر فقت الشمس والقمرا **وكل نجم بأفلاكِ السماء سرى**
يا أم يسوع يا أمي يا أملي **لا تهمليني متى عني الخطا صدرا**
يا نجمة الصبح شعّي في معابدنا **ونوِّري عقلنا والسمع والبصرا**
لا تضنِّي علينا بالشفاعة **إذا ميقات اللقاء حضرا**

(٣) من محاضرة للعلامة الشيخ حسين أحمد شحادة رئيس منتدى المعارج لحوار الأديان بعنوان « **العذراء مريم نداء الإيمان المسيحي الإسلامي** » ألقاها عام ٢٠٠٤ في كاتدرائية سيدة النياح بطريركية الروم الملكيين الكاثوليك في دمشق.

فراقه طويلاً وتهتم به أيما اهتمام ، وقد سماها جدها المصطفى «ص» بإلهام علوي فكان اسمها هدية السماء قرَّت بها عينه وغمرت مهجتي أبيها إمام المتقين وأمها البتول المعصومة بالبركة والندى ، فكانت وهي المولودة في مهبط الوحي والهوى ورضيعة لبان الإيمان من ثدي العصمة ، وربيبة معقل البلاغة والحكمة ، وحافظة ذرية الرسالة بجسارتها الإيمانية وشكيمتها الرسالية .. صنو مريم في السجايا المقدسة والنعم الإلهية التي حازت عليها .

وتتشابه مريم بزينب عليهما السلام بإحساس الأمومة .. فكما كانت زينب تنتظر أوبة أخيها بتلهف الأخت المحبة التي تقوم بدور الأم بعد رحيلها .. كانت مريم تعيش لحظات الانتظار هذه ، إذ كان يحظر على النساء في زمنها دخول مجالس الرجال ، لكن العذراء كانت على الدوام تخاف على ابنها وتراقبه وهو يلعب مع أترابه في حقول الناصرة وسكيكها ، وحينما كان يذهب إلى أورشليم لم تكن ترافقه كي لا تتعرض للسخرية وتسلم أباءها لتهكم أهل الجنوب .. لكنها كانت تجلس على عتبتها تنتظر عودته بقلق[1] الأم وحزن حنينها المطوي بين ضلوعها .

وقد أوردت كتب التاريخ أن تحريم دخول المرأة إلى دور العبادة ومجالس الرجال في عهود اليهودية تلك قد دفع بمريم العذراء للتوقف في إحدى قرى[2] جنوب لبنان المطلة على صيدا التي يرد اسمها في الإنجيل باسم « **صيدون** » التي تعني صيدا الكبرى ، وتمضي نهارها في انتظار عودة ابنها من المدينة مختبئة في مغارة تحتمي فيها من الرياح والبرد واللصوص والوحوش الضارية ، متحملة كل هذه المعاناة كي تطمئن

---

(١) لجبران خليل جبران مقالة بعنوان « **سوسان الناصرية جارة مريم** » يتحدث على لسانها كيف كانت مريم تمضي أيامها وتصور حنينها لابنها حينما يغيب .. ويدوِّن جبران هذه التصاوير بهذه العبارات الرائعة على لسان العذراء : « **إن ابني هو حنين بعيد ، بل هو جميعنا متسامين بحنيننا إلى النجوم ، هل قلت إنه ابني ؟ فليسامحني الرب ، ولكن قلبي يدلني على أنني أمه** » .

(٢) القرية المقصودة هي مغدوشا في جنوب لبنان .. والمغارة هي مغارة « **سيدة المنطرة** » والمنطرة معناها الانتظار باللهجة العامية ، وقد تم اكتشاف المغارة صدفة من قبل راع سقط له جدي في فوهة بسقفها .. ولما نظر إلى الأسفل رأى صورة مريم مرصعة بالذهب ، وقد عمل البطريرك كيرلس طاناس على بناء كنيسة في موقع المغارة ، كما أقيم تمثال للسيدة العذراء عُرف بتمثال « **سيدة المنطرة** » فغدا معلماً يزوره المؤمنون من كافة الطوائف للتبرك وتقديم النذور .

على عودة ابنها الحبيب[1] من سفره سالماً ومرافقته إلى البيت .

وإذ يتفجر هذا الحنان ويسيل كنهر عسل مصفَّى ويفيض كشلال هادر من نبع حب زينب ومريم للابن والأخ الابن وهما يدرجان في مراتع الطفولة والشباب المبكر.. فإن هذا الحنان لم تزده الأيام ومتوالية السنين إلا غزارة وتدفقاً حتى تحول إلى مشاركة في المسؤولية ومدافَعة عن المبدأ واستعداد للتضحية بالنفس في سبيل تحقيق أهدافهما المقدسة .

ولقد أدركت زينب بحسها الرسالي أن أيامها التي عاشتها مع أخيها سوف تتوج برحلة مجد لا يدانيه مجد آخر ، فلم تيأس لطول المدة رغم تواتر الأحداث المنبئة ببداية هذه الرحلة ، لكنها انتظرتها بنفس صابرة ، ولم تصدها عن إدراكها وحتميتها إنشغالاتها الحياتية من الاهتمام بشؤون أسرتها التي تركتها لها أمها الزهراء «ع» وهي طفلة وصبية وشابة ، إلى أن ارتبطت بعبد الله بن جعفر وتكوينها لأسرتها الخاصة بما ضمته من أبناء كانت تحنو عليهم وتخدمهم وهي موطنة النفس على مفارقتهم حين تدعو داعية نهضة أخيها ، بل والتضحية بهم في أشد المواقف قسوة من أجل نجاح الأهداف القدسية لحركة أخيها المظفرة ، غير آبهة بترك حياة البَلهْنية والكفاية التي كانت تحياها في بيت زوجها المقتدر ، ولكن أنَّى لهذه الصديقة أن تهنأ بكل ذلك وهي الموعودة بالدور العظيم الذي أعدتها له العناية الإلهية ، والذي به سيتحقق الوعد الرباني لنهضة أخيها المباركة التي ستبقي عقيدة الجد على صراطها المستقيم الذي نزلت عليه ، لذا فهي لم تيأس ولم يداخلها إحباط بل زادها انتظار إعلان أخيها دستور خروجه ، شوقاً وتلهفاً إلى ذلك اليوم السعيد ، متحررة من الخوف مستشعرة أحاسيس السكينة والعذوبة دون أن تتعكر هذه الأحاسيس بالمفاجآت الصادمة والإحباطات الموجعة .

---

(١) يصف الشاعر أَرَق المحب على حبيبه وانتظار لقائه فيقول :

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرق ... وجوىً يزيد وعبرةٌ تترقرق
جهدُ الصبابة أن تكون كما أرى ... عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر ... إلا انثيت ولي فؤاد شيق

وهكذا مبدأ سام لزينب يلتقي مع مبدأ مريم عليهما السلام .. الانتظار والتيقن من تدابير الحكمة الإلهية والاستسلام لمشيئتها لاتقادها جذوة في أعماقها رغم كثافة الغيوم فوق هامتها ، وتظل تردد وتوصي : اصبروا وتمسكوا بحبل الإيمان ، فطوبى لمن في قلب الليل المدلهم ينتظر الفجر المشرق .

الصفيتان زينب ومريم «ع» انتظرتا بزوغ فجر الإيمان المطلق بتباشيره الواعدة وكما عانت زينب وانتظرت.. كذلك عانت مريم في انتظارها ، إذ بعد أن بشرها الملاك بأن ابنها سيكون عظيماً ويعتلي عرشاً مجيداً ، ها هو يمضي معها ثلاثين عاماً عاملاً مغموراً يكدح ويعرق ويصلح الأبواب ويصنع للفلاحين محاريثهم ونوارجهم وهي «ع» بعد أن أنبئت بأن الأجيال ستغبطها .. ما انفكت عشرات السنين ممحية مجهولة تكنس وتغسل وترفو الثياب ، وتطحن قمحها وتعجن دقيقها ، ومن النبع تمتاح ماءها شأنها شأن أي امرأة فقيرة ، ولكن هذه الحال لم تزرع الشك في قلبها للحظة بأنها غير جديرة بما بُشرت به ، أو بأن وعد الرب لن يتحقق كما وُعدت .

وباستسلام لا مزيد عليه هتفت مريم «ع» من أعماقها حينما بشَّرها الملاك : « **أنا أمَة**[1] **للرب فليكن لي بحسب قولك** » وهذ القول يتشابه مع قول العقيلة «ع» لابن عباس وهو يشير على أخيها بألا يسري بأهله ونسائه مخافة أن يُقتل ونساؤه ينظرن إليه :

« يا بن عباس تشير على شيخنا وسيدنا أن يخلفنا ها هنا ويمضي وحده ؟ لا والله بل نحيا معه ونموت معه ، وهل أبقى الزمان لنا غيره ؟ »

---

(١) لقد أدركت مريم أنها تعيش واقعاً فريداً ومبادرة من الله خارقة ، ولكنها ما فتئت تواجه تساؤلات محيرة : فعلام اختارها الله وهي على ما هي عليه من ضعة الشأن ؟ لقد ملأتها حظوة الله خشيةً ورعدةً أمام جسامة المسؤولية أكثر مما أوحت لها من فخر واعتزاز ، ثم أن هناك عقدة كأداء لا بد من حلها ، فهي بإيحاء من الله نفسه قد نذرت البتولية ، وهذا النذر لن تحنث به أبداً تحت وطأة أي ظرف وفاءً للرب ، فكانت ذاتها التوفيق بين البتولية والحمل والأمومة ؟ وينطلق السؤال بل الاعتراض على لسانها يقرن البراءة بالحزم والسمو بالبساطة : « **كيف سيكون ذلك وأنا لا أعرف رجلاً .. كيف أحمل وألد وأنا بتول ولن أنكص من بتوليتي أبداً ؟** » من مقالة لأديب مصلح بعنوان « **عبير من الأم وعِبرٌ من البشارة** ».

زينب توطن نفسها على الموت مع أخيها .. وهذا استسلام ما بعده استسلام للمشيئة الإلهية التي أوحت لها بهذا القول المترجم لقول شريكها «ع» رداً على نصيحة أخيه محمد بن الحنفية بعدم الخروج والتوجه إلى شعاب الحجاز حيث لأبيه شيعة هناك وما كان من رده عليه : « **شاء الله أن يراني قتيلاً وشاء أن يرى النساء سبايا** ».

وكما تتجانس الممهدات للمواقف في حياة الأصفياء .. فإن مواقفهم تعبِّر عن مبادئهم ، وهذا التجانس بدا جلياً في موقفي مريم وزينب «ع» إزاء الآلام ومجابهة المواقف الصعبة واللحظات المعصورة بالألم المعجونة بالمحن والرزايا ، ففي معمعة احتدام معركة العاشر من محرم وعلى وقع صهيل الخيل وإيقاع قعقعة ارتطام السيوف وفي لحظات تجندل الشهداء واحداً إثر آخر .. واجهت العقيلة هذه المشاهد برباطة جأش ، رأت ولداها محمد وعون يصرعان فلم تبكِ عليهما ولا طاش لها صواب إلا أنها بكت على أخيها بدموع ساخنة لإحساسها بغياب السند في فقده ، لكنها لم تنهار أو تتراخى لحظة واحدة في دورها كأمينة على إرث العترة الطاهرة ، تجمعهم كما يجمع الطير فراخه تحت جناحيه ، وتدافع عنهم كما تدافع اللبوة عن أشبالها ، وتواسي الجرحى ممن سقطوا وتندب من استشهد ، وتلوب هنا وهناك باحثة عن الضائعين من أعداد الأمانة ، وتعيش المحنة الرهيبة لحظة بلحظة .

ومريم «ع» حينما كان ابنها يُعذب ويُجلد ويُساق إلى القتل. لم تبكِ ولم تنتحب ويصفها تلميذ لابنها عيسى قائلاً :

« **عند الفجر بقيت واقفة بيننا كأنها علم يخفق في قفر لا جحافل فيه ، وقد بكينا جميعاً لمعرفتنا بما سيحل بابنها ، أما هي فلم تبكِ[1] لأنها عرفت أيضاً ما سيصيبه وتنتظره بشوق فارغ** » .

أما زينب المكلومة فقد تعالت على جراحها ولم يفقدها استشهاد كوكبة السماء

(١) لجبران خليل جبران وصف رائع لهذه اللحظات التي تجلت فيها إرادة العذراء يقول فيها : كانت مريم وكأن عظامها من صلب النحاس وقوتها من الدردار القديم ، عمرك الله .. هل رأيت قبرة تنشد في حين أن عشها يحترق ؟ إنك لم ترَ مثل هذه المرأة لأنك لم تقف في حضرة مريم في لحظات احتضانها للآلام العاصفة .

رباطة جأشها وصفاء عقلها ، وبين عواصف المقاتل وحمم الدماء حادثت ابن أخيها علي قبل خروجه للقتال حينما رأته حزيناً كسيفاً لتواسيه بينما هي الأجدر بالحزن والمواساة :

« مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ، لا يزعجنَّك ما ترى ، فو الله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك ، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض وهم معروفون في أهل السماوات .. أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يُمحى رسمه على كرور الليالي والأيام وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا علواً » .

وشبيه هذا القول قالته مريم «ع» لابنها وهي تشهد جلده ودماءه تسيل من مسامات بدنه ووجهه :

« يا بني .. إن ما يبنيه الله ههنا لا يمكن أن يزول ، وكل ما يهدمه الإنسان منه سيظل مبنياً شامخاً ولكن في نظر أسمى من نظر الإنسان ، وأن كل نقطة من الدم الجاري من يديك ستكون ينبوعاً تتكون منه أنهار أمة بأسرها » .

فإذا تشابهت مشاعر الأم والأخت في مواقف ضنكة كهذه التي عاشتها مريم وزينب «ع» .. فإن ما انطوى عليه قلباهما من كمد .. فجَّر كلمات تدمي قلوب سامعيها لما فيها من حب وتوجع وشفافية .. وهنا نورد عبارات للصابرتين « **أم المصائب** » و « **أم الأوجاع** » تكاد تتطابق في معناها ومبناها وصوغها التعبيري .

فحينما عاد فرس الحسين إلى الخيم وهو يحمحم ويضرب الأرض برأسه عرفت النساء ما حل بأبي عبد الله فأسرعت زينب إلى ميدان المعركة ولما وصلت لأخيها وكان يرتجف بشدة ويجمع رجلاً ويمد أخرى من الألم الوصيب .. حاولت محادثته فلم يقو على إجابتها بل أشار بيده إليها فغشيت من الحزن ولما أفاقت ندبت قائلة تناجي أخاها المنازع :

« أخي بحق جدي رسول الله إلا ما كلمتني ..وبحق أبي أمير المؤمنين إلا ما

خاطبتني .. يا حشاشة مهجتي بحق أمي فاطمة إلا ما جاوبتني .. يا ضياء عيني كلمني .. يا شقيق روحي جاوبني »

الأخت المكلومة زينب لهف قلبها حينما رأت جراح أخيها وتوأم روحها وشعرت بأن هذه الجراح جراحها هي ، فرَجته « **إلا ما خاطبتني** » تريد سماع صوته الحبيب إلى قلبها.

ومريم العذراء حينما رأت ابنها عارياً بين جنود بيلاطس يجلدونه ويضفرون رأسه بإكليل الشوك يقطر الدم الزكي من تحت إبره الحادة .. أن غابت عن حسها ولما أفاقت من غشيتها هتفت من قلب مجروح كما هتفت زينب وناجت ابنها قائلة :

« حبيبي حبيبي يا ولداه خاطبني ، كيف أراك عرياناً ولا أندبك يا ابني ؟ أوجاعك حرقت أكبادي ، آلامك خرقت فؤادي ، كيف تحيا والدتك يا ولداه بعدك وهي تراك عادم النسمة ؟ » .

الأم البتول المفجوعة وهي تشهد عذابات ابنها هتفت من قلب مفجوع :« **يا و لداه خاطبني** » وهي ذات العبارة[1] التي ندبت زينب بها أخاها المثخن بالجراح في موقفين لا يمكن وصفهما .

لقد غشيت المشرفتان عن أحاسيسهما لما رأتا حبيبيهما في شفا النزع والعذاب ولم يحتمل قلباهما الرقيقان قسوة المشاهد التي عاينتاها بتلك الوحشية والضراوة الواقعتين على روح الله وسيد شباب أهل الجنة ، وكما تطابقت مناجاتهما للحبيبين المشرفين على النزع الأخير .. كذلك تطابقت ردود عيسى على أمه والحسين على أخته بعبارات مشفقة حنون .

فلما رأى الحسين حزن أخته وانكسارها في لحظات نزاعه قال لها معزياً :

(١) لنلاحظ صيغة العبارتين في طلب الصديقتين سماع مخاطبة الابن الحبيب والأخ توأم الروح .. حيث اتخذتا صفة الرجاء من الأم والأخت لسماع صوت من تحبان « **إلا ما خاطبتني** » عبارة زينب ، و « **يا ولداه خاطبني** » عبارة مريم ، هما راموز للحب الإلهي المجرد وعنوان للشغف الروحي بين أصفياء الله المشرَّفين ، يجدر بنا نحن البشر الضعفاء أن نتخذهما قدوة خالصة في مسيرة حياتنا .

« يا أختاه .. هذا يوم التناد والهزاق ، هذا اليوم الذي وعدني به جدي وهو إليَّ مشتاق » .

ثم عاودته الغشية فالتاعت زينب وجلست خلفه واحتضنته بيديها من تحت إبطيه.. فلما شعر بها غالب وهنه وقال لها :

« أخيَّة زينب .. كسرتِ قلبي وزدتني كرباً على كرب .. فبالله عليك إلا ما سكنتِ وسكتِّ ؟ »

وبذات العبارة أجاب عيسى «ع» أمه وهو يراها تنتحب ويغشى عليها :

يا مـريـم أمـي نحيـبـك يزيـد أدمعـي

ارحمـيني أسـكـتي أتركـيـني أرجـعـي

حسراتك خنقتني وتمزقت منها أضلعي

فبماذا أجابت الصديقتان على طلبي الحبيبين لهما بالسكوت ..؟

صاحت زينب :

« واويلاه .. أخي وابن أمي ..كيف أسكن وأسكت وأنت بهذه الحالة تعالج سكرات الموت .. تقبض يميناً وتمد شمالاً .. تقاسي حنوناً وتلاقي أهوالاً ؟ روحي لروحك الفداء ونفسي لنفسك الفداء » .

ومريم هتفت :

« كيف أسكت وأرجع وعيني تقرح بكلوم جسدك الطاهر ، أبدلت حسنك وجمالك الزاهر ، كيف أصمت وأنا أرى بهاء وجهك تبدل اصفراراً .. ودموعك تذرف كالأمطار .. وتنهداتك تذيبني وعذاباتك توهنني ؟ » .

وفي عبارة الحسين لأخته : « **إلا ما سكنتِ وسكتِّ** » .. وأيضاً في عبارة عيسى لأمه : « **ارحميني أسكتي** » لا تحملان أمراً أو تعبران عن استنكار وتوبيخ لهما لندبهما وإظهار حزنهما ـ حاشا ـ بقدر ما تحملان من شعور الشفقة على الأمَّين الحنونين

وتهويناً عليهما من وقع الفواجع ، ورغبة من الشهيدين العظيمين في قصر تحمل الآلام عليهما دون الوالدة الرؤوم والأخت الحنون .

العقيلة زينب «ع» رضخت لمشيئة ربها وقبل مغادرتها جثمان أخيها الطاهر رفعت رأسه إلى السماء وهتفت : « **رب تقبل منا هذا القربان** »

ومريم «ع» هتفت تنعي ولدها :

« **يا بني الذي ليس ابناً لي ، إذا كان هذا من الله فليعطنا صبراً ومعرفة لحقيقته** » .

ولم تقتصر الإرهاصات النفسية والمناجاة القلبية والمواقف الحزينة إزاء الأحداث التي مارت وعصفت بنفسي زينب ومريم حيال تلك الفظاعات التي عاينتاها وأقلقت روحيهما ونزعت منهما كل شعور بالاطمئنان والسعادة إلى حد تمنيتا الموت على الحياة بعد أن غاب قمرا حياتيهما وتركا لهما الحزن والثكل والحسرات .

فها هي زينب بعد أن أُنزلت المحامل في يثرب أثناء رحلة العودة من دمشق تميل برأسها صوب كربلاء وتناجي طيف حبيبها وأخيها وابنها الحسين الذي غاب قائلة وسط دموعها :

« **أخي حسين .. هؤلاء جدك وأمك وأخوك وأهل بيتك ينتظرون قدومك ، يا نور عيني وضياها قُتلت وأورثتنا الأحزان الطويلة** ، « **فيا ليتني مت قبل هذا** » .

وها هي مريم تناجي وحيدها بعد رحيله بكلمات تقطر أسى وحرقة وتتمنى لو ماتت قبله على رؤية ما جرى له كما تمنت زينب الموت قبل رؤيتها ما حل بأخيها(١) حيث قالت :

« **يا عز أمك وثمرتها الفريدة ، يا وحيد أبيك وصورته المجيدة ، يا ضيا عيني ولدي الحلو ، فراقك سكينا جرحتني ، وعذابك حربة طعنتني ، يا ابني الأزلي إني**

---

(١) تمني الموت الأمنية التي طلبتها زينب ومريم بعد فراغ حياتيهما من إكسيريهما برحيل حشاشتي الروح ، وبعد أن نُخست حناياهما بفجيعة فوق احتمال البشر .. لدلالة كافية على عظم دوريهما في حياة الراحلين المقدسين ، وعلى ما كان يمثلانه في حياة الصديقتين الخالدتين في القداسة والتضحية .

نجوت من الأوجاع حين ولادتك الغريبة ، وحدي في النسا ولدت دون ألم فحظيت بالطوبى الفائقة للطبيعة ، والآن أُطعن بحربة الحزن بمرارة واحتمل أوجاعاً لا تطاق فيا ليتني مت قبلك ولم أنظر أحوالك ».

ولكن هذا الحزن والتوجع علام يدلان .. وكيف نظرت زينب ومريم لمحصلة ما جرى وهما العالمتان بامتثال الشهيدين لمقتضى العناية الإلهية ، وامتثالهما هما أيضاً كأم وأخت لهذا المقتضى ورضاهما به حيث أقبلتا على تنفيذه بقلبين مطمئنين مع علمهما بما كانت ستؤول إليه حركتا التضحية والفداء لرسالتي السماء من قِبل الشهيدين المقدسين ؟

السيدة زينب «ع» حمدت ربها في خطبتها أمام يزيد بأن ختم لأولهم بالسعادة والمغفرة ولآخرهم بالشهادة والرحمة ، وسألت الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن عليهم الخلافة .

كما رأت في كل ما جرى جميلاً ، وهذا ما واجهت به ابن زياد حينما سألها شامتاً عما رأته من صنع الله في أخيها وأهل بيته وبما أجابت به :

« **ما رأيت إلا جميلاً** »

هذه العبارة أكملتها بالعبارة التي قالتها لحظة وصولها إلى مصر أثناء استقبالها من الوالي مسلمة الأنصاري وعبد الله بن الحرث وأبو عميرة المزنى وبكائهم على مصاب الحسين «ع» إذ لما رأت تأثرهم قالت : « **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ».

فلا عجب إذن أن تؤول المصائب التي سلفت إلى شعور بتمام المهمة الرسالية لدى زينب ، فهذا هو المآل الذي رسم لكمال نهضة بطل كربلاء ومؤازرتها البطولية له لتتصل الخواتيم المقضية بالبداية المعدة ، فلا أسف حيالها ولا حسرة لخسارة ..فقد خسرت كربلاء في التو والآن وربحت العقيدة في الغد والآت ، وهذا هو الفوز العظيم .

فكيف لا تتفوه بنت ولي الله علي «ع» بما أفاض قلبها به وجرى على لسانها صدقاً وعزماً متأسية بما قاله أبوها حينما اغتالته يد الغدر وهو في ركعته بمسجد الكوفة

بعبارته البليغة « **فزت ورب الكعبة** » أليس في استشهاده يكمن الفوز .. وهل ثمة فوز بلا استشهاد ؟

وما دام إيراد ما بين زينب ومريم من متشابهات قد تضمن الكثير من التطابق في كل شيء .. فلا بد من التطرق لما رأته مريم «ع» من فوز وسعادة بعد انحسار موجة الأحزان عن قلبها إذ قالت :

« **أنظروا الآن فقد مضى ، قد انتهت المعركة وأعطى الكوكب نوره ، ووصلت السفينة إلى بر الأمان ، والذي اتكأ فيما مضى على قلبي يتموج الآن في السماء ، وحتى في الموت نفسه يبتسم ، فقد غلب العالم ويسرني جداً أن أكون أماً للغالب**[1] » .

لقد وضعت رجَّة الأرواح التي مست الأفئدة والعقول أوزارها برحيل بطلاها المجيدين ، وتسليم رايات التغيير للشريكتين اللتين تابعتا ارتدادات الزلزال القوي ووجهتا بوصلة الأنفس والضمائر إلى نقاط جاذبية الإعصار فتولدت تيارات متباينة قوة وضعفاً ، ضيقاً واتساعاً ، ولوحتا بالرايات المرسومة بالدم الزكي فوق الهامات لتحقيق ارتكاز الآفاق العامة للأوضاع تمهيداً لتغيير السنن التي فرضتها سنوات الضياع ، وإعداد إنسان ما بعد الفداء[2] إلى حقبة استنَّتها مُثُل التضحيات فائقة المثالية لحماية هذه المناقبية الجديدة من تلابس التفسيرات المتعاكسة لها ، وإحلال بدل منها صورة واضحة تحمل مجمل ظلالها وألوانها المتذائبة بتناغم مع مستجدات الحاضر المتحصَّل والمستقبل المأمول ، لتكون ثمرة ذلك كله قدوة[3] حسنة عصية على عوامل الضعف والخروج مجدداً عن الصراط المستقيم .

هذه التأملات النورانية شكلت مدار تصرفات زينب «ع» خلال اندفاعتها لإكمال

---

(١) عبارات فلسفية وإيمانية ولا أروع تفوهت بها المختارتان بعد رحيل عديلا روحيهما فكانت هذه التجليات اللغوية صدى لما وقر في القلبين الشفيفين من رضى الخالق واستشعاراً لسعادة الوصول إلى المنتهى المرصود.

(٢) لاحظ هذه المؤثرات في كتاب « **مقدمة الحضارات الأولى** » ص ١١٧ ومابعدها للمؤرخ الفيلسوف غوستاف لوبون

(٣) للفيلسوف لويس لامبر رأي في هذه القدوة إذ يرى أنها تعمل على تهديم الهيكل القديم المتداعي وتنجح في تشييد مداميك جديدة على أساسات صخرية تستعصي على أعتى الرياح أن تهزها ، ويصف هذا الواقع بأنه منحة من القوى الخفية في أعماق الإنسان المؤمن بالفكرة التي يناضل لتأصيلها في النفوس .

دورها الإعلامي المؤثر بعد عبور أحداث الملحمة ، ولم تعد الدنيا في عينيها تساوي جناح بعوضة بعد فقدها أعز ما تملك المرأة في حياتها .. الابن والأخ والحبيب ، وبعد اشتداد حملتها المنوِّرة للعقول وإخراجها عن مركزها المحوري المتمثل في مصرع أهل البيت الكرام وانتشارها في صدور المؤمنين بحركة بطلها الحسين «ع» ، وتخضيبها نفوسهم بالروح الإلهي .. فما عادت تلوح لأبصارهم في سَمْتها إلا ما تعرضه لهم من قيمها وما تحتبك عندها من أطرافها .. فقد أضار نشاطها وما خلَّفه من عصف في العقول .. خوف والي المدينة عمرو بن سعيد الأشدق فوسوس ليزيد طالباً الأمر بإخراجها من ولايته كيلا تؤلب الجموع ضده ، وامتثل[1] الزنيم لهذا الطلب وأصدر أمره بإخراجها إلى أي أرض عدا أرض الحرمين الشريفين .

لكن زينب الأبية رفضت الأمر وأصرت على البقاء حتى لو أهرق دمها ودماء من حولها ، وحيال إصرار الأشدق استطاعت العلويات إقناع سيدتهن بالمغادرة فما كان منها إلا أن اختارت مصر موطناً لهجرتها ، ولما وصلتها كانت الحفاوة الكبيرة بانتظارها وكرَّمها شعب الكنانة أيما تكريم فانصرفت إلى الصلاة والعبادة في دار الوالي مسلمة الأنصاري كما ورد في التاريخ[2] حول هذه الهجرة الميمونة ، وجاءت هجرتها إلى أرض الكنانة بعد نصف عام على المذبحة إعلاناً يشير إلى أن أضواء كربلاء المشعة أضاءت تلك السماء فوق بقعة من بقاع الإسلام ليضاف إلى ملحمة العز والإيمان وشيٌ جديد يهلل فرحاً بالمبدأ المنتصر الذي يرمز إلى الحلة الجديدة التي جللت العقيدة ، وإظهاراً للذات الأبية التي انبثقت في الأمة[3] الناهضة بعد تقييدها

---

(١) روي عن صدام حسين بعد قتله للسيدة رباب الصدر أنه قال رداً على سؤال لأحد المقربين منه عن سبب إصراره على قتلها بأنه اتخذ العبرة من يزيد ولن يكرر غلطته المتمثلة بترك زينب حية لتقوِّض عرشه ، لذا فقد غيَّب العلوية رباب كي لا يواجه بسببها ما واجهه يزيد من زينب .. وختم اعترافه بترداد : « **العاقل من اتعظ بغيره** ».

(٢) راجع فصل « **رمزية تعدد مراقدها** » الشريفة واسترجع هذه الحكمة الإلهية في هذا التعدد الذي كرمت فيه السماء هذه المدافعة عن العقيدة وحافظة السلالة النبوية .

(٣) يرى بلزاك أن ثمة جوانب خفية في أعماق الإنسان لا تتحرك للفج من المشاعر، بل هي أشد استجابة لـ « **البنوما** » التي تحرك شوقه إلى التسامي الروحي والكمال المثالي ، في حين يرى غاستون بلاشار وديكارت وسبينوزا أن السيرورة الروحية المتجددة تفتح مغاليق النفس على قسيمة من إلهامات الخالق السماوي فتستجيب لها بكليتها .

طويلاً بسلاسل الضلالة ، وبعد تفتح أزهار غيضانها بالأزاهير والنوار ، ونشر عطر نرجسها وزنابقها وبيلسانها وزيزفونها ، وازدهاء غصون مجدها بثمار الفضائل المنظومة .

وكما سيَّرت قدرة الخالق زينب إلى أرض الكنانة[١] حفظاً لما تبقى من عترة آل الرسول «ص» وإعلاء لمناقبهم في أصقاع الإسلام الواسعة .. كذلك سيَّرت إلى هذه الأرض مريم وعائلتها هرباً من بطش الملك هيرودس الذي سمع بولادة عيسى من مجوس المشرق فجمع كل رؤساء الكهنة وسألهم :

« **أين يولد المسيح؟** »

فلما أجابوا في بيت لحم .. أمر الرعاة بأن يذهبوا ويتحققوا من مكانه ليذهب ويسجد له بدوره .. لكنه كان في قرارة نفسه يضمر لهذا المولود شراً بعد أن تيقن من أنه النبي المرسل بالرسالة الجديدة .

ولما انصرف المجوس[٢] بعد أن قدموا للمسيح الذهب واللبان والمر ، ظهر ملاك الرب ليوسف في الحلم وقال له : قم خذ الطفل وأمه واهرب إلى مصروأقم فيها حتى أخبرك متى تعود لأن هيرودس سيبحث عن الطفل ليقتله خوفاً من مزاحمته على عرشه .

ولما مات هيرودس ظهر الملاك ليوسف في الحلم وقال له :

---

(١) أرض مصر كانت على مر تاريخها المأوى الذي احتضن الأنبياء والأصفياء ، لاذوا به عندما كانت تحاصرهم المحن وتضيق الأرض من حولهم ، وقد استقبلت أبو الأنبياء إبراهيم «ع» ومنها تزوج السيدة هاجر والدة إسماعيل «ع» وفيها عاش موسى «ع» ونشر دعوته وعلى جبالها تلقى ألواح الشريعة وكلَّم ربه تكليماً ، وإليها لجأت عائلة عيسى المقدسة وبعدها بقرون طويلة استقبلت عترة أهل بيت النبوة المكرمة .

(٢) تقول الرواية المسيحية إن الرعاة المجوس اهتدوا إلى مكان ولادة عيسى بنجم قادهم إليه ثم توقف وسطع فوق مذود الولادة ، وبعد التبرك بالمولود القدسي جاءهم إلهام سماوي في الحلم وأنذرهم بعدم العودة إلى هيرودس لإبلاغه باهتدائهم إلى مكان الطفل ، ولما رأى هيرودس أن الرعاة استهزأوا به .. غضب جداً وأمر بقتل كل طفل في بيت لحم وجوارها من ابن سنتين فما دون ذلك حسب الزمن الذي تحققه من الرعاة ، في الوقت الذي كانت فيه العائلة المقدسة تغذ السير متجهة إلى مصر بطفلها المبارك .

قم خذ الطفل وأمه وارجع بهما من مصر[١] إلى أرض إسرائيل لأن من أراد قتله مات ، ولما عاد يوسف بأسرته سمع أن أرخيلاوس نُصِّبَ ملكاً بدل أبيه هيرودس فخاف الذهاب إليها وقاده الملاك إلى مدينة الناصرة[٢] في الجليل وأقام فيها .

سيفان بتاران ورايتان خفاقتان رفعوا بذراعي امرأتين ليس لهما نظير في التضحية والحنان ولم يسجل تاريخ البشرية معاناة مثل معاناتهما ، وهاهي شرايين المناضلة زينب «ع » تنزف بفعل ما استوطن في حناياها من ذكرى الأحداث المضنية وغدت تصل ليلها بنهارها بالصلاة والتهجد استعداداً للرحيل[٣] عن هذه الفانية بعد أن اعتلق نظرها بالأبد الفسيح بسبحاته القدسية ونجواه المائجة بروح الاصطفاء فاغتمرت برسْلةٍ وذوبٍ في رحمة الله ، واعترتها وجمة تأمل في هيوليات وقوفها على أعتاب ملكوته السماويةً .

وكأن مقدر العقيلة من ذخيرة المجاهدة والصبر وهي تستعد للرحيل قد شاركتها في طبيعته البتول مريم في أخريات أيامها حيث كانت تشعر بلوعة النوى والبعاد بعد

(١) دخلت العائلة المقدسة مصرعن طريق صحراء سيناء - بالوظة حالياً - بين العريش وبورسعيد ووصلوا إلى بسطا المعروفة اليوم بتل بسطا بالقرب من الزقازيق ، وهناك نبعت لهم عين ماء بعدما أساء أهل المدينة معاملة العذراء ، وقد أحمَّت مريم ابنها فتسمى المكان بـ « **المحمة** » وهي مكان كنيسة عذراء مسطرد الحالية التي بنيت عام ٩٠١ ، ثم توجهت العائلة إلى فسطاط ثم إلى منف وذكرت بالكتاب المقدس باسم « **منوف** » وتعرف حالياً بميت رهينة ، وأكملت مسيرها إلى الصعيد في مركب شراعي بالنيل ووصلت إلى شرقي بهنا ثم إلى بلبيس حيث استظلت تحت شجرة تحمل اسمها حتى يومنا هذا ويجلها المسيحيون والمسلمون ويحرص المسلمون على دفن موتاهم حولها تبركاً بها ، ومنها إلى منية جناح ثم البرلس وقرية شجرة النيم حيث عبرت النيل إلى سخاأيوس وجبل النطرون ، وهذا المكان غدا بعد ذلك عامراً بالأديرة واستمرت الهجرة إلى عين شمس حيث أقامت العائلة تحت شجرة تعرف حتى اليوم باسم العذراء فأنبع الله ماءً غسلت العذراء طفلها وثيابه منه وألقت الماء على الأرض فأنبت الله لهم نباتاً عطرياً يقال إنه البلسم ، وفي بني مزار أقيمت كنيسة من أشهر أسقفيات الكرازة المصرية ، وبعد أربعة أيام وصلت إلى جبل الطير عبر النيل ثم إلى الأشمونين وفيليس وهي الآن « **ديروط الشريف** » وبعدها اتجهت إلى القوصية ثم إلى ميرة وجبل قسقام مكان دير المحرق الحالي الذي كان آخر محطة لهجرة العائلة المقدسة.

(٢) لقب عيسى «ع» بـ « **الناصري** » لأنه أمضى طفولته وحياته في الناصرة ومنها انطلقت دعوته الرسولية .

(٣) راجع فصل « **غروب الأضحيانة** » وفيه تفصيل عن أخريات أيامها المثقلة بالرزايا ونهاية مسيرتها الحياتية المفعمة بعز الكفاح وفخار التضحية .

صعود ابنها عيسى إلى السماء وبأن ما يربطها بالأرض قد انقطع وصارت تردد :

« إن كلّيتي قد امتلأتا احترافاً ، وليس بجسدي صحة ، فغدوت أجأر من زفير قلبي ، يا رب إن بغيتي أمامك وتنهدي غير خفي عليك ، خفق قلبي وفارقتني قوتي حتى نور عيني لم يبق معي ، أحبائي وأقربائي نأوا متنحين ، وأعدائي وقفوا عن بعد شامتين[1] ، من لي بجناحين كالحمامة فأطير وأستريح ! »

واستجاب الله لدعاء والدة رسوله العجائبي وقبضها إلى عليائه بدون عذاب النزع الأخير لتطير[2] إلى الأخدار السماوية مع الأنبياء والقديسين والأخيار .

وفيض الجاذبية الخلاقة التي أشعَّت وانتثرت من شخصيتي زينب ومريم «ع» في حياتها وبعد مماتها .. حركت في الأنفس الشفيفة فيضاً من الصور الزاهية والنعوت السامية التي تليق بمقاميهما عند الله تعالى ولدى البشر ، كهمزات وصل بين الأرض والسماء .

فبعهد اكتمال المرأة بالإنجيل ستغدو مريم الصديقة رمزاً لتطوير الإيمان بخفقة قلب وخلجة روح ليصبح إيمانها هو نفسه نداء الإيمان المسيحي الإسلامي ذلك أن الطهر المريمي والإيمان المريمي ليس مصدر توحيد للبيت المسيحي فحسب .. وإنما

---

(١) للشاعر أبو بكر محمد بن دريد المتوفي سنة ٣٢١ قصيدة بهذا المعنى يقول فيها :

أبقيتَ لي سقماً يمازج عَبرتي ... من ذا يَلذُّ مع السقام بقاءَ
أَشْمتَّ بيَ الأعداء حين هجرتني ... حاشاكَ مما يُشمت الأعداءَ
أَبكيتني حتى ظننتُ بأنني ... سيصير عمري ماحييتُ بكاءَ

(٢) في الرواية المسيحية أن سيدة نساء العالمين قد انتقلت إلى السماء بعد أيام قليلة من رقادها في القبر الذي حددته الآثار التاريخية إلى الشرق من أسوار القدس القديمة بالقرب من بستان الزيتون ، وقد بنى الآباء البندكتيون كنيسة في مكان الرقاد في الجسمانية حيث لم يعثر في قبرها على أية بقايا أو ذخائر أو عظام تدل على بقاء الجسد الطاهر في القبر، وقد أقر الفاتيكان انتقال العذراء إلى السماء لا صعودها كابنها الذي خصه الله بهذا التكريم وحدد لهذا الانتقال عيداً سنوياً يصادف في مطلع تشرين الأول ، وقد وصف هذا الانتقال بالأعجوبة لأن السيد المسيح بشفاعته عند الله حفظ جسد والدته الطاهر الذي حمله وأرضعه خلافاً لكل نواميس الطبيعة فكان من الطبيعي أن هذا الجسد الذي استمد منه عناصر حياته الأرضية ألا يخضع لنواميس الفناء وتحل عليه الإنعامات فيوهب من لدن الله الذي اصطفاها على العالمين نعمة القيامة السريعة قبل الموعد المقرر لقيامة جميع البشر في نهاية العالم .

لتوحيد[1] البيت المسيحي الإسلامي الوضاء أبداً بحوار الإيمان الصادق والعمل الخالص لوجه الله .

وتشارك الألسن الصادقة نفوس أصحابها الشفيفة تسكب درر الإعجاب بالبتول وتقرر إن أعظم ما في مريم[2] احتمالها قول الحقيقة المرة فسماها القرآن صدِّيقة « **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة** » .

وعلى خطى مريم التي داست تحت قدميها كنوز الذهب والفضة وزهدت عن خلب دنياها فاصطفاها الله مرتين .. مرة لتكون مهبطاً للنبوة ، ومرة كي تتلألأ شمسها على نساء العالمين فأيقظت النيام إلى رفرف اشتهاءات الصباح والحرية من أقداس الركوع ومشارق جبين سجدتها التي لم تركع ولم تسجد لغير الله .

والقرآن الكريم إذ يخرج المرأة من معتقل الحريم وأسر التقاليد الزائفة التي تحجب ضوءها عن ضوء النهار .. فهو يطرح اسم مريم مثالاً وقدوة وأسوة عليا لكل امرأة تريد أن تشق جلاميد الظلم والقهر والاستبداد ، لتصير فكرة الاحتراس من الخطأ وفكرة الامتناع عن الخطيئة أمثولة تحتذى للرجال والنساء بصريح القرآن .

فكما لم تغادر مريم جثمان ابنها .. وكما لم تغادر زينب رأس الحسين .. يجب على المقتدين بهما أن يكونوا ذبائح الله شهوداً وشهداء لكل حق يهدر في زمن اغتيال المحبة واستباحات القيم وتثوير العداوات المنسية تحت شعارات من بانوراما الحريات الخادعة المخدوعة ، ملتمسين باب الحقيقة الإلهية الكبرى بمنهج البتول العالمة التي أمسكت مفاتيح المعنى ومفاتيح الغيب الإلهي الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى ، ولقد استضاءت بالإيمان بوحدة الإيمان الساطعة في كتاب القلب وكتاب الكون وكتاب السماء فترصعت برذاذ طهرها وطهر ابنها وغدت شرفة منورة بالنبوءات المشعة في

(١) جاء الحديث النبوي عن رسول الله «ص» : يكون عيسى بن مريم في أمتي حكماً مقسطاً يرفع الشحناء والتباغض والمقصود بهذا الرفع ما يكون بين الملل والأديان.

(٢) من محاضرة قيمة لسماحة العلامة الشيخ حسين شحادة رئيس منتدى المعارج لحوار الأديان بعنوان مريم العذراء.. نداء الإيمان المسيحي الإسلامي ألقاها في كاتدرائية سيدة النياح في دمشق .

أن تصير الأرض غير أرض عاد ، وإرم خالية من الشوك والقهر والعداوات .

وفي ثريات اسمها المطابقة لصورتها معان مزهوة فهي الملكة والكوكب والمستنيرة والمنيرة والعابدة الشفيعة والبتول العذراء الطاهرة المباركة المقدسة الممتلئة نعمى بفردوسها السري ، وهو اسم لم يألفه العهد القديم من قبل إلا ما قيل عن صلته بالذكر وعفاف بنات الملوك ، وسلطانة الشرق هي واسطة العقد من حضارة عصية على الإبادة والنسيان لأن شرايينها موصولة في جذر الكلمة الطيبة وخضرة الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء .

فيا ملأى بفيض الخير يا مريم .. يا علية الزنابق .. يا سماء هلالنا الشرقي .. يا وريثة السماء .. يا ذروة حملت في حشاها الشمس لتصهل العروبة من رضاع اسمها إني اعتذر من كل امرأة ثكلى تمزق صوتها ولم تسكت ، كما أعتذر من كل عصماء عصبت جبينها بأربطة مريم ولم تسقط ، وممن جاع ليلها ولم تطعمه القمر ، ومن ينام خدها على صوان القهر ولا تنام ، ومن لا تملك من مهرها إلا شمعدان ، ومن تلتقط مرآتها المكسورة من جبين زوجها ولا تنكسر ، ومن تمشي خلفها أزهار الربيع وتهوى جمع البلابل والصغار ، وتصلي خلف الأم البتول لتظل أماً برغم العوسج والصبار[1].

السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة الرب معك ، مباركة أنت في النساء ومبارك ثمرة بطنك سيدنا يسوع المسيح .. يا قديسة مريم يا أم الروح والكلمة صلِّ لأجلنا نحن الخطأة اليوم وفي ساعة موتنا وإلى أبد الآبدين آمين .

مباركة أنت في الكون كله يا نجمة قدسية تبرق بالعقد الذي يربط الأرض بالسماء .. في البدء كان عرشه على الماء فلما اصطفاك صار قلبه عرشك في الأرض وقلبك عرشه في السماء .. مباركة أنت يا حبيبة السماء[2].

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) من مقالة لحسين العاملي بعنوان : « **من ذكريات الولي الطاهر مهداة إلى التي سمتني وكان اسمها مريم** » .

لقد أسقط الإسلام[1] على مريم كل الصفات المجيدة التي يرغب الناس في أن تتحلى بها المرأة المنشودة في أي عصر ، فجاءت تمثّلا اجتماعيا واضحاً .. فهي السيدة الصغيرة اللطيفة العابدة الطاهرة الطائعة الممتثلة للأوامر ، المعتكفة لا تحتك إلا بالصالحين ، ومعصومة عن الدنس وعن وساوس الشيطان .. بينما كان الشيطان في المنظور الإنساني وعبر عصور وعصور .. يسكن المرأة ويتجسد بها ، بل هو حاضر أبداً في شخصيتها كما في قصة حواء .. ومريم في المتخيل الإسلامي هي تلك الناجية من الشيطان منذ الولادة ، مما دعى لأن تكون بذلك نسيجاً مختلفاً عن سائر النساء مؤهلاً منذ البدء لاحتضان روح الله .. لاسيما إذا تذكرنا أنه للمرة الأولى تتفرغ امرأة من السلالة الهارونية لخدمة الهيكل .

ومن مريم الصديقة يحمل أعطر السلام قدسياً إلى خديجة وروح خديجة .. وعِبرها إلى الزهراء والحوراء زينب في رحلةٍ للروح لا تعرف حدوداً و تمتد خارج تضاعيف الرّوح منّا ، تقبض على الوجيب .. تعيد للقلب مواقعه ، وللنفس مستقرها .

وبالمعوذات من آيات بتوليتك يا صيفية العينين يتحرزون سؤالاً في امتداد الأمومة إلى عيني خديجة وفاطمة وزينب .. كيف يرجعون من سعير الرمال ملء الأكف أحزان هاجر المنسية ؟

اسمك يا مريم ينادي للإيمان المسيحي الإسلامي .. من طلعة محمد وروح محمد من يتم محمد يا أم الأنبياء ، على آمنة بنت وهب ألف سلام من بيت محمد وآل بيت محمد ، لكل زينب في هذا الوطن المحزون .. سلام ، من جراح فاطمة وقلب فاطمة في كل أرض العرب المقتولة ، لكل ثكالى الأرض .. سلام[2] .

ما بين زينب ومريم بعد أن نبتت من بذور إخلاصهما لله حركة إرادة عالمية

(١) عرضت د.نزهة الياس في محاضرة بعنوان « **مريم في المتخيل الإسلامي** » صورة للبتول أشد روعة وأمضى بهاء منها في كل التعظيمات ، ووصفت منزلتها في الثقافة الإسلامية بأنها تفوق منزلتها في الثقافة المسيحية ، وأعتبرتها جسر عبور بين المسلمين والمسيحيين .

(٢) نفس المصدر السابق بعنوان : **وجعلناها وابنها آية للعالمين** .

أساسها العزة والفضيلة وهي حلم سماوي لطالما أطبق الفلاسفة والحكماء أعينهم عليه ..؟

لنقرأ هذا ونتأمل ..

في كل مرة نردد[1] : « **السلام عليك يا زينب** » فإننا نلبي لرب زينب ولرب أهل بيت زينب الذي أطعم هذا الخلق من جوع وآمنهم من خوف ، وفي كلام السيدة زينب «ع» حلة جديدة بناء على رأي أبيها أمير الكلام وحكيم الإسلام الذي يقول : « **الآداب حلل مجددة .. بالوحي الإلهي الحي وبرباعي الكَلِم** « **فوالله لا تميت وحينا** » علا الشأن .. « **ولا تدرك أمدنا** » .. ذكر ثبَّته الرحمن « **ولا تمحو ذكرنا** » :

تتزيَّي بهاجر من تُحيَّى زمزت زينب السلام بُكِيًّا

بُكِيًّا كلمة تصف زكريا ويحيى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء المذكورين قبل هذه الآية والذين إذا تليت عليهم آيات القرآن خروا سجَّداً وبُكِيًّا .

وقد كان لزينب مجلس قرآني في الكوفة تجتمع عندها السيدات فتشرح لهن سور القرآن ، وقد ناقشها والدها أبو الحسن ذات مرة حول سورة مريم وكيف أنها سورة آل البيت ، وفيها نجد أن بُكِيًّا فيهم من قُطعت عنقه وسُلم رأسه إلى سالومى ابنة هيرودويا البغي الراقصة ، وفيهم من خرج من الأرض بلا موت ، وهذان الرمزان يحيى وإدريس هما رمزان لوضع آل بيت النبوة .. إذ يمكن أن تُحز أعناقهم في الأرض ولكنهم يرتفعون إلى الجنة بلا موت ، زمزم الذين يخرون مع آيات الله سجَّداً وبُكِيًّا لذلك فإن زينب بنت إبراهيم وبنت هاجر وأخت إسماعيل ، وبالرجوع إلى قراءات العقيلة لسورة مريم يتضح كيف زمزمت الآيات وجعلت من وعيها زمزماً حياً جارياً ومعرفة دائمة .

ولإكمال الدرس المتجلي تُقرأ الزيارة في مقام زينب ، وعند السلام العشرين ليكون

---

(١) من محاضرة للعلامة الدكتور أسعد علي مرشد الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية خارج الوطن العربي ألقاها في المركز الثقافي العربي بدمشق .

توقف ، فهناك مغارة ، هناك زمزم لا يحسب وهو السلام مرتين على زين العابدين لأنه يبقى مختبئاً في حضن عمته «ع» وحضن البقاء ، وإذا احتسب فسيصبح ٢٢ سلاماً ، أي الإخلاص ، وإذا احتسب السلامان مع ما بقي من السلامات فسيصبح ١٣ سلاماً ، وهو مولد الأب الإمام علي «ع» في ١٣ من رجب ، أما العشرون السابقة فهي مولد الأم الزهراء «ع» في ٢٠ جمادى الآخر ، والمجموع ٣٣ وهذه الآية في سورة مريم تقول بلسان عيسى[١] :

« والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً »

أفيكون بعد هذا الفيض المتماثل المنبثق من النبع المريمي إلى مصبه الزينبي أي شك في كون مائه النمير المحيي للصدور المختنقة متفجراً من حوض كوثر إلهي ليشكل منذ اصطفاء مريم سيدة لنساء العالمين والدة لنفحة الروح القدسية ، ومنذ تشريف زينب بدورها العظيم .. ميراثاً دهرياً للبشر لا تتخاذل حياله أرواحهم[٢] ولا تسترحِل من رتْعهِ عقولهم ، ولا يتباعدوا عن غرره وحجوله بعصف كل ريح وإتباع كل ناعق بالضلالة مهما التمعت ناره وقصفت في الجو رواعده .

وهو إلى ذلك معنى يروي من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسمة الرحمن لترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتفوح من نضارتها شذوات العبير .

وعلى وقع فعاليتها لا يُقتلع رَسِيس[٢] النفوس من أقطارها ونواحيها إلى فلاة الضياع فإذا بها روح جديدة تتآلف أمشاجها وتتسق أركانها وتدحى لبناتها من فسيفساء مُثُل ترص بعضها بعضاً وتميس في فضائها الرحب بعيدة عن معاسف الرأي قريبة من دفائن الحكمة السارحة في طَفَل الأبد والسانحة مع رَأد الأمل الواعد .

بهذا المثال الرسالي الكامل الذي تأهلت له زينب بكفاحها وتضحياتها قدمت قياساً للإيمان لا يلتاث ولا يختلف ، ولا ينتقص من حق جانب يستوجب الزيادة فيه

---

(١) نفس المصدر السابق

(١) يقول الشاعر : **إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لا يحيي دينا**

(٢) « **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيثَ بعضَهُ على بعض فيركُمَه جميعاً** » سورة الأنفال الآية ٣٨ .

ولا يزيد في حق جانب يستوجب الحط منه .

قياس جدد مطر الإيمان فوق أديم النفوس المتعطش للكلمة المفجرة لمخازن الحياة المكنونة في بذور ترابه الهامدة ، فنسجت من ذراتها سر النهوض إلى الأسطع والتساوق الأجمل ، وطرحت ثمار مبدأ حر من حلم الضمائر فيه وهج الملكوت ومبرة الإخلاص ومنابع العرفان بلهجة القرآن .

أخت نهج أبوهُما ذو بيان والتقصِّي منابع العرفان
زينب الشّام في المقام أذانٌ وأمانٌ بلهجة القرآن[1]

ومنذ أربعة عشر قرناً ظلت سيدة الشهيدات حفيدة الرسول «ص» ذلك المشعل الذي أنار الدرب للثائرين من أجل العقيدة ، ابنة علي البطلة التي أججت الثورة في وجه الباطل ومزقت دنيا الظالمين ، بضعة الزهراء التي تحملت المسؤولية كاملة بصمود وإخلاص في أداء الرسالة الخالدة ، شقيقة الحسنين التي شاركت في الدور القيادي للدعوة وامتداد كلمتها ، وقد لقبت بعقيلة[2] بني هاشم وعقيلة الطالبين والمؤثقة والعارفة والعالمة غير المعلَّمة والفاضلة والكاملة وعابدة آل علي .

و« **السيدة** » هو اللقب الذي إذا أطلق لا ينصرف إلا عليها ، وهي كريمة الدارين جمعت بين جمال الطلعة وجمال الطوية ، وكانت عند أهل العزم أم العزائم وعند أهل الجود والكرم أم هاشم ، وكثيراً ما كان يرجع إليها أبوها وإخوتها في الرأي .. فسميت صاحبة الشورى ، كما كانت دارها مأوى لكل ضعيف ومحتاج فلقبت بأم العواجز وصاحبة الديوان تعقد جلسات العلم بدارها بمصر ويحضرها الوالي وأكابر رجال الدولة[3].

---

(١) د. أسعد علي

(٢) يصف ابن منظور في لسان العرب « **عقيلة القوم** » بـ« **سيدهم** » وعقيلة كل أمر .. أكرمه وأرفعه شأناً ، وعند الفيروز أبادي في القاموس المحيط أن العقيلة هي الكريمة من النساء .. وفي عصرنا الحاضر تلقب زوجة الحاكم بـ« **العقيلة** » تكريماً لها .. وفي بعض الحالات يطلقون عليها « **السيدة الأولى** » .

(٣) من مقالة للعلامة السيد د .محمد بحر العلوم في ذكرى وفاة السيدة زينب «ع» .

ومنذ تلك اللحظات الرهيبات والفترات المظلمات التي عاشتها بمقتل أخيها «ع» بدأت هذه السيدة العظيمة على مسرح تاريخ البطولات تسجل لنفسها تلك الصحائف البيض بمداد من نور ، فلم تَهب السلطة ولم تخف السطوة لأنها رأت نفسها مع الحق والحقيقة ، وأولئك مع الباطل .

فهل كان الحسين «ع» على خطأ حينما اصطحب هذه الفصيحة الغيورة على المبدأ وهل أسفرت نتائج خروجها معه على مفسدة للمسلمين لم تكن ضرورية كما زعم ابن تيمية وأضرابه ممن عميت بصائرهم عن رؤية سناء الحقيقة ، وما هو تعليلهم لو رأوا تلك الملايين التي تحج إلى مرقديهما الشريفين بعد أربعة عشر قرناً .. هل سيتراجعوا عن وترتهم وليِّ عنق التاريخ دغدغة لحكة جرب أهوائهم ؟

أفلا تستحق زينب هذه الدرة الفريدة في تاريخ العقائد والأديان أن تخلد في القلوب والضمائر قبل تخليدها في بطون التاريخ والحدثان ؟ فإذا جاز لنا اختصار سيرتها العطرة في أسطر .. فماذا ندون وماذا نترك من هذا المحيط المترامي الأطراف بلا غور منظور .. وما يمكن أن نقرأه في سفر كفاحها المجيد ؟ .

بنت سيد الأنبياء «ص» وبنت أمير المؤمنين «ع» والبدور السواطع والشموس الطوالع وزهرة الزهراء المعصومة وحفيدة خديجة الكبرى وأخت الحسنين وعمة التسعة الأطهار والعقيلة ، العالمة الكريمة التقية النقية اللبوة الطالبية والذخيرة الحيدرية والوديعة الفاطمية الحرة الأبية ، مرهبة الطغاة في صلابتها ، مدهشة العقول برباطة جأشها ، ممثلة أباها علياً في شجاعتها ، شبيهة أمها الزهراء في عظمتها ، أم المصائب والرزايا ، حافظة ذرية القداسة ، أسيرة الإباء والجسارة الناهضة بالأعباء الثقال من ضيافة الرجال وحفظ العيال ، رافعة رأس أخيها المحزوز والهاتفة :

« اللهم تقبل منا هذا القربان لوجهك الكريمُ ضحية من أجل دينك القويم »

الصابرة حتى أتاها اليقين واختارها رب العالمين فماتت بعيدة عن الأوطان غريبة عن الأهل والخلان ، وخلدتها الأكوان والأزمان كبطلة خالدة لكربلاء ، وسليلة الحسبين التي نصرت القرآن وأرضت الإيمان وضعَّفت الطغيان ، والتي شهدت

مصارع عترة الجد المصطفى «ص» على أيدي ذوي الحقد والذحول ، ونظرت إلى الجثث المضمخة بالدماء مقطوعة الأوداج مشخوبة الدم على الأثباج ، فباركت الدماء السائلات وقبلت الشفاه الذابلات ، وانحنت على الجسم السليب والخد التريب والشيب الخضيب تعاهده على حفظ عياله ويتاماه ، وعانت ألم السِّبا والشماتة في مجالس أولاد الطلقا ، ولم يهن عزمها الصليب ولا ضعف جلدها العجيب ، بل استأسدت منها العزيمة فاندفعت تقارع سليل الخسة بقول لا يُنسى ، محتملة ضروب المآسي ، صابرة على ما حاقها من النوائب ما تذوب منها القلوب ، وتجرعت من غصص الآلام ما لا تقوى على احتمالها الجبال الرواسي ، حتى عجبت من صبرها ملائكة السماء .

مهضومة العز ، مظلومة غريبة ، محزونة كئيبة ، شاهدة مصارع عشيرتها وإخوتها وبني عمومتها وقد فرَّق السيف بين الرؤوس منهم والأبدان وغيَّر لفح هجيرالفلاة منهم الألوان ، وفي عصر عاشوراء الدامي لم تنم عيناها لأجل حراسة آل رسول الله في طف نينوى ، وركبت على بعير بغير وطاء ، وخطبت خطبة معبرة في الكوفة واحتجت في مجلس ابن زياد حينما سألها شامتاً عما رأته في صنع الله بأخيها .. وردها عليه : « **ما رأيت إلا جميلاً** » .

وفي موكب الأسر المهان شُد الحبل على عضدها وعنق زين العابدين وأدخلوا مقرنين بالحديد إلى مجلس يزيد ، وما أن رأت رأس السبط الشريف في طست أمامه وهو ينكت ثناياه بمخصرته حتى صاحت به مقرعة بأقسى الكلام وأجرأه :

« **إني لأستصغر قدرك** » .

ولما رجعت من السِّبا إلى مدينة جدها المصطفى .. رأت الديار خالية والربوع خاوية فأظلمت بعد الأقمار ، وأوحشت من المتقين الأبرار المتهجدين بالأسحار أصحرت بحنينها وضجت بأنينها ، واستأنفت الجهاد ونشرت ظلامَتَهم بين العباد ودانت الظالمين وقتلهم لآل طه وياسين .

ولما ثارت ثائرة اللئام وأخرجوها عن دار جدها المختار وساروا بها الليل والنهار

تذكرت ما شهدته من مصائب عظام ورزايا جسام ، فدب بجسمها السَّقام وأطبقت عليها الآلام من كل جانب ، فضعفت عن الاحتمال وهدتها[1] الرزايا الثقال فاشتاقت محمداً وحزبه وتاقت إلى لقاء الأحبة فاختار الله لها دار البقاء ففاضت روحها إلى السماء ، مجروحة شجية ، مظلومة منفية ، شاكرة موقرة في جميع حالاتها ومنقلباتها ومصائبها وبلاياها[2] .

وتظل زينب «ع» نجمة ملتمعة تفرد سناها الوضاء في عتمة الوجود الإنساني وتدفع أخيلة البشر للتأمل في سرائر الخلق وحكمة الخالق في بعث أصفياء في مواقيت مختارة من لدنه ليعدلوا ميزان الحياة لخلائقه ويرشدوهم إلى طريق الصواب ويضعوهم على صراط مستقيم .

لهذا نظرت عناية الله وتدبيره فاختار زينب ومريم

كوكبين في سماء رسالتيه المنزلتين

وعضدتهما بخلود الذكر والإجلال على مر الدهور

لتكونا مثالاً للحق والطهر المنزه

يضرب في تاريخ الباطل المتأشب

ويصور العلامة د. أسعد علي في مقالة بعنوان « **ميلاد زينب في تلاوة مريم** » هذا الاختيار الإلهي .. فيصف بهذه الأبيات المعبرة عن رحمة الله للبشر في اختيار هاتين المشرَّفتين :

نــوَّر الـنـاس مـولـد جـاء نصراً ... ومحـا الــوأد مـن يـوافـق خِضرا
عــنـد عـــينٍ بـقـلـب كــل ولي ... أخـت نهـج بـقـول حـقٍ ستُدرى
مـعـجـزاتٌ عـذراؤهـا أم عيسى ... ونـــداءاتُ زيـنـب بـنـتِ زَهْرا

---

(١) يقول الشاعر : **وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام**

(٢) هذه الأوصاف والنعوت والألقاب استوحيناها من نصوص زيارات عقيلة الهاشميين السيدة زينب «ع» وهي نعوت قلَّ أن جادت بها أدبيات أي أمة وعقيدة لامرأة عداها .

وبعد وأنا استعد لوضع نقطة الختام لهذا المؤلف تدهمني مشاعر ترجف لها أصابعي الممسكة بالقلم ، فقبل خمس وعشرين سنة بدأت معايشتي لأعطر سير التاريخ وأنصعها بياضاً وأجلّها تضحية وكفاحاً ، ربع قرن مضى عشته مستلهماً من أميرة البلاغة ما أجادت به علي من كَلِم يليق بمقامها الرفيع ، ومتبحراً في يمِّ محيط هذه العظيمة بين نساء التاريخ والعقائد .

إبحار لم يكن يخطر في بالي لحظة فكرة التوقف عن المضي إلى أفقه اللامتناهي لكثرة ما استشعرتني هيولياته القدسية بنشوات روحية خفية حوَّلت دورها الخالد في ملحمة عاشوراء إلى شريط صور تتراءى في خيالي فتغمرني بفيوض من الإعجاب والإكبار لهذه الأخت الفريدة بين الأخوات التي زرعت ألوان طيفها القدسي في بساتين المخيلات المحبة للحق ، وأسدلت شفقها اللازوردي على مداها .

وبين كل سطر وسطر وكل جملة وأخرى .. لطالما تمنيت أن أظل أسيراً بين دفتي سفر حياتها المشرفة لربع قرن آخر أو إلى ما شاء الله ، حيث كنت على الدوام استشعر رحابة لا حدود لها في هذا الأسر المحبب ، وتعصف في نفسي تلك الحمية المفقودة بين البشر التي تفصح عن ذاتها بين كلمات التاريخ ، فتنتعش الحنايا من فوح أطياب المواقف المستحضرة موقفاً إثر آخر ، حيث كنت كثيراً ما أتوقف عن التدبيج متأملاً في كل موقف من مواقفها لأروي شغفي الروحي من خُلَّب صوره .

صور عذبة تتراءى للمخيلة العطشى للمثل العالية التي تعرضها والتي تُظهر العقيلة ترد السيف عن جسد زين العابدين ، وتارة أخرى تتلقى السياط على ظهرها وفي مشهد آخر ترفع رأس أخيها المحزوز وتقبل نحره المدمَّى ، وتجري هنا وهناك فوق أرض المصارع لاهثة مكروبة تبحث عن أشلاء الجثامين الطاهرة .

وها هي تخطب في الكوفة وترد على ابن زياد وتقرِّع يزيد وتحرس السبايا وتذب عنهن سفاهة القوم السافلين .

ثم أتخيلها ماضية إلى مصر وأرى تكريم الناس لها ، ويخفق قلبي إشفاقاً على آلامها وعذاباتها وهي أم المصائب وكيف هدَّتها الأحزان وأسلمتها إلى الموت .

فأي قلب بمكنته تحمل هذه الفيوض الزاخرة من مشاهد البطولة والفداء دون أن تثقل حناياه بمشاعر هيولية فائقة المذاق لحظة استحضارها ولحظة الانتقال إلى الأخرى ولا يستسلم أمام هذه الصور إلى الذوب فيما تبثه من إيحاءات الكرامة والإباء وما تخلفه من عبق المسك الطيب المنبعث من تلك القرابين المقدسة التي قدمت في صحراء الشرف يوم العاشر من محرم .

وفي كل مراحل ملحمة الخلود كانت زينب هي الشاهدة والمعضدة لبطلها والشريكة له في تحمل عذاباتها وضنكها وإكمال أهدافها بدورها المتمم لنهضته بإيداعها في الصدور وبذر بذورها في الضمائر والحنايا حيث تكون في حرز مكنون لا تقوى عواصف الضلالة على اقتلاعها أو هزها .

فكيف سيكون مما كان لو لم تشارك العقيلة أخاها كفاحه .. ألم يكن في هذه الشراكة حفظ للعقيدة وتذكير أبدي بالمحافظة عليها وعدم التهاون والقبول بما يضعفها ، وهي هدية الخالق لخلقه ؟

فإذا لم تكن كذلك فكيف تسنى لها تحريك قابليات الإيمان الراكدة في أعماق النفوس فانبعثت من مكامنها المدهمة سطوعات باهرة ألهبت العقول وبصَّرت الضمائر في معاني ما قدمته من تضحيات كان لها ثمن لا يقدر بمقدار من الرموز النبوية المطهرة أثمرت عن اتصال قلوبهم بجلال خالقها ويقظتها من أطول ليال لم ينجب ديجورها ولم يسطع شفقها ، فكان لهم مع أنفسهم صراع بدأ خفيّاً ثم امتد حميّاً وما لبث أن تحول إلى سعير متغوِّل يحرق بتوتر وتوفز ويستجيب لندَّاهة التحول فكانت ضراعة القلوب الخاشعة من خالقها أن يمن عليها بنور البصيرة لتتبصر في جوهر بطولة زينب بعد انجلاء فداحتها وما بذلته لنوالها ، وتقرأ سطورها البيِّنة ودروسها الخفية والتي لا تفتح مغاليق كنوزها المباركة إلا لعقل متدبر وصدر متنور وضمير متحرر .

كل ذلك كان أمل المحبين لها ، المتبركين بزيارة مراقدها ، المستظلين بسحابات أدعيتها القدسية من هجير الظلم والاستكبار والتوعر الأخلاقي اللائذين بحضرتها

من غرائز الضراوة الباغية المتفشية التي تحاول جرفهم إلى مساف المساقط ومآتيها لترفعهم بسَمْت إيحاءاتها إلى أعلى ذرى الحقيقة الخالدة قبل أن تستحجر ضمائرهم وتغمر فضاءات نفوسهم ضبابية الذل والهوان .. فينعمون بنعمة الخروج من تيههم ونفض غبار بيداء الضياع عن أجفانهم ، والاستعلاء على السراب الذي خدعهم في صحرائهم القاحلة ، فيستشرفون من أفقهم العالي منعة كهفهم الحريز الذي احتموا به ، فلا تصلهم وتيرة ولا ذحل ، ولا تطالهم أنياب ومخالب وحوش البشرية المسعورة وغيلانها الدموية .

وهذا الكهف هو مقام قديسة الإسلام زينب .

أفلا تستحق الزينب بعد كل هذا الفيض من التضحيات التي لم تعهد البشرية شبيهاً لها .. أن يقال في تكريمها :

« **إن ملحمة كربلاء إذا كان بدؤها حسيني فإن استمراها زينبي** » ؟

ونهضة الحسين الظافرة .. ألم تتوج بطلها « **ضميراً للأديان إلى أبد الدهور** » وتجعله سيداً لوارثي الإرث المحمدي الذي خلَّفه جده المصطفى «ص» والبنَّاء الثاني لصرح الإسلام بعده ؟

ودور العقيلة «ع» في هذه النهضة ألم يكرسها شريكة لأخيها منذ لحظة خروجه حتى مصرعه .. مؤازرة معضدة ، مواسية حافظة لبقايا العترة المقدسة ، متصدية لضروب الأحداث الأليمة من ضرب ومهانة وإذلال ، ومدافَعَة مريرة عن الحرم والعيال والذراري الكريمة ، ورَفعاً لراية كربلاء ، ومقارعة لشياطين الظلم بالحجة والموقف الجسور ، ما أثمر كل ذلك عن عصف بجلاميد النفوس المدلهمة وجعلها ككثيب مهيل ، وإيقاد لجذوة الضمائر الخامدة وإعادتها من أجباب آثامها إلى حظيرة الصلاح والتقوى متوقدة كشمعة في مشكاة ؟

من معاني هذه الصلة فإن زينب «ع» كانت عاملاً رئيسياً في تشكيل الضمير الدهري الذي حرك بوصلة الأرواح صوب محور الإيمان المنزه ، وأزاح عن كواهلها حمولتها الثقيلة من خطايا التقصير في حق عقيدتها وخذلان رموزها القدسية عترة

نبيها المنزهة ، فغدت مغسولة من أدرانها ، وضيَّة في تسام يليق بميلادها اليقيني الجديد بعد رتعٍ طويل في ريبتها المستريبة ، مستعرة الضياع في فيافي الجهالة .

فمن معدن الرسالة ونِجار النبوة وبيت الإصطفاء الإلهي .. ظهر المثل الكامل حامي الوديقة في نصرة العدالة والحق[1] ، الحسين بن علي «ع» ومن ذات المصدر النبوي ظهر مثال الغيرة الإيمانية الذي مثلته السيدة زينب «ع» فمضت في حياتها إلى غاية تحقر كل أشياء الحياة ومتعارفاتها الدنيوية ، ورنت إلى الملكوت الأعلى وسعت إليه مستقراً لأنه مهدها المعد لها كسيدة للمناضلات الشهيدات في سبيل الله .

فلا بدع إن ضحت بكل غالٍ ونفيس حتى بفلذتي كبدها وحشاشتي روحها من أجل اللحاق به ولقاء من أحبتهم في رحابه ، وتحملت ما تحملته من مريرات العذاب لنشر مبادئهم السامية وترجمة مراميهم العلوية متحزِّمة على نفسها بجمع القدوة الصالحة وعاملة بهذا المعنى الباهر :

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وفي بلوغ هذا المنتهى السامي من محصلات نهضة الحسين الخالدة .. فإن توأم كفاحه عليها السلام قد نالت من ميراث أخيها النبوي سهماً من اشتقاقه راموزاً صادقاً عن جده «ص» القائل : «**حسين مني وأنا من حسين** »[2] وحازت نصيباً من حبه « **اللهم أني أحبه فأحِبه** » فاستُكمل في شخصها النموذج الرسالي الذي أعدتها

---

(١) يقول العلامة الدكتور عبد الله العلايلي واصفاً هذه المعاني : إن السبط الشهيد «ع» أتم روعة القداسة التي ابتدأت بجده المصطفى «ص» والتي لن تكون إلا بالدم المسفوح على جوانبها :

نحيِّي الطهارة في بيتها إطار الطهارة قدسٌ ودم

ويرى العلايلي أن الشخصية الكبيرة من الناس بما فيها من المعنى الإلهي والسر القدسي والقبس العلوي تنير السبيل للإنسانية فتكون في حياتها دليلاً أميناً وبعد مماتها أمثولة رائعة .

(٢) أودع الرسول الكريم «ص» في هذه العبارة الكثير من الإشارات إلى أهمية وجلال شخصية ودور سبطه في حفظ رسالته .. فإذا ما تمعنا في العبارة لأُلهمنا معناها بأن نبوءة الجد هبطت إلى حيث إنسانية السبط « **حسين مني** » وارتقت إنسانية السبط إلى حيث نبوة الجد « **وأنا من حسين** » صـ٣٠٣ من كتاب الحسين في الفكر المسيحي ـ للمؤلف .

وقد أورد ابن عساكر في التاريخ جزء ٤ ص ٣١٦ هذا الحديث عن البخاري ورواه الدارقطني كما رواه البغوي .

السماء لتكون في طيَّته لإتمام الأثر الديني الذي تم بأبدع ما يكون التمام .

وفي ختام سيرة العقيلة المكرمة نتمثل بقوله تعالى :

« **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ**[١] » .

ومن مصطفى صادق الرفاعي[٢] أستعير كلمة توضح الغرض وتلتمس العذر عن أي تقصير خارج عن الإرادة وكمال الإحاطة[٣] ، والتي تعبر عن مقتضى حالي في هذا الصدد :

« على أنَّا مع ذلك استفرغنا الهمَّ والتمسنا كل ملتمس ، وبرئنا إلى النفس من تبعة التقصير فيما يبلغ إليه الذرع أو تناله الحيلة ، فنهضنا لذلك الأمر نهضاً وسبكنا فيه سبكاً محضاً ، فإن قصَّرنا فضعف ساقه العجز إلينا ، وإن قاربنا فذلك من فضل الله علينا ..

وبعد فإنَّا نقول : إنه لا بد لمن ينظر في كتابنا من إطالة الفكر والتأمل ، فإن ذلك يحدث له روية ، وتنشئ له الروية أسباباً إلى الخواطر ، وتفتح عليه الخواطر أبواباً من النظر ، ويهديه النظر إلى الاستنباط والاستخراج ، فإن وقع دون هذه الغاية فحظه من القراء حيث يقع ، وإن بلغها فهناك مداخل الحجج ومخارجها ، وتصاريف الأدلة ومدارجها ، ثم الإفضاء به إلى مذاهب الحكمة على ما اشتهى ، ثم الانتهاء حيث ترى كل حكيمٍ انتهى ..

ومن هذا الباب قوله «ص» : من همَّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، فتأمل هذا التذييل العجيب ، فإنك

---

(١) سورة النمل الآية : ١٩

(٢) تاريخ آداب العرب - جزء ٢ ص ٢٢ - ٢٨٠

(٣) كما أسلفنا فإننا حاولنا قدر استطاعتنا الخوض في محيط السيدة زينب «ع» على مدى ربع قرن ، ولكن من يجزم أن باستطاعته الإحاطة بسفر حياتها الضخم مهما حاول ، لأن هذا السفر الخالد لا يكفيه كتاب أو موسوعة لإبراز تحليل ما يحتويه من مثل وأخلاقيات وكفاح وفداء وصبر وإيمان .. كل هذه الشمائل الرسالية التي قدمتها زهرة بني هاشم .

لا تقضي منه عجباً ، ولن يعجز إنسان أن يهمَّ بالخير يفعله أو لا يفعله ، وأن ينزع إلى الشر فيمسك عنه ، فإن عجز حتى عن هذا فما فيه آدمية ، ورحمة الله تنال الإنسان بأسباب من خيره ومن شره إذا كان فيه الضمير الإنساني وهذا في الغاية كما ترى» .

أما نحن الفقراء لرحمته تعال فنقول : حسبنا فخراً في ما سعينا إليه واستودعناه الله من خواتيم عملنا في هذه الإضافة المتواضعة للسيرة العطرة للسيدة العظيمة اقتداء بالآي الكريم :

« **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**[1]» ، أنَّا عقدنا مقاربة شخصية وروحية لنموذجين من رسالتي السماء مريم وزينب المشرَّفتان في جنة الخلد الأعلى ، وأبرزنا بإلهام من الله وببركة الصديقتين ما جمع بينهما من روح الإخلاص الوثابة لتحقيق حرية الإنسان الممهورة بالحب الإلهي المذوب ببركة الإيمان ، فاتح مغاليق الماضي على فواتح الحاضر المطل على مشارف المستقبل ، لترتفع الحواجز على مسارات الإيمان المتجددة مريمياً وزينبياً في كل العصور والآماد لتحيط الخليقة المؤمنة بسياج من المنعة الروحية على قاعدة الإيمان المسيحي الإسلامي المشترك بوحدة الدين في ينابيعه وغاياته[2] العلوية كيلا يلبث ثمة من سر مكتوم ولا خبءٍ مجهول ولا مقطع من الحق مشتبه به وكيلا يتكور نداء الإيمان على نفسه منكمشا حيال إشكالات بينً الدين[3] والزمن على قواعد تاريخية ماضوية ، ليترسخ بذلك فهم جديد للعقائد وأهدافها المتجانسة وليتحقق بيع المؤمنين أنفسهم لله بيعة[4] خالصة .

---

(١) التوبة الآية ١٠٥

(٢) « **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا** » الشورى .

(٣) كلمة « **الدين** » لم ترد بصيغة الجمع « **أديان** » في القرآن الكريم ولا مرة ، وإنما ورد بوصف دين واحد نزل إلى البشرية بثلاث رسالات والذي تلقاه خاتم الرسل «ص» هو في جوهره ما تلقاه الرسل من قبله .

(٤) « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** ».

فباسم زينب أم المصائب ، وباسم مريم أم الأوجاع نهتف طالبين شفاعتيهما يوم القيامة حيث لا ينفع مال ولا بنون ، ومن تحت قباب مقاميهما المنوَّرين نطلب الإجابة لأمانينا والإعانة على تسديد خطانا في دروب حياتنا الوعرة كيلا تنزلق في حفر البوار ، وتحرفها مسالك الضلال الخادعة المزدهية بألوان قزحية ، والملوِّحة ببيارق الإغراء الملتوية في كل دَوْر وكَوْر ، وتنجيها من أنياب ثعابين النزعات والمَذَلَّة المتلطية في كل فجوة وبين كل عطْفة وأخرى .

لقد دمرت حمم بركان العقيلة المشكلة من صهارة معادن العزة والكرامة والحق والإباء والشمم ..تلك الكيانات الهشة من صنع هراطقة العروش وأدنياء النفوس المحيطين بهم ، المتسولين أعطياتهم ، الصاغرين خدود كبريائهم لمذلتهم في صفقة بيع دينهم بدنياهم وفي حسبانهم أنهم الرابحون(١) من خلال سعيهم في مسالك خسارتهم وهم في عماوتهم سادرون .

فإذا سمحنا لأنفسنا بقليل من الفخر على إضافتنا المتواضعة في هذا الكتاب فحسبنا رضا ومثابة وراحة قلب أن ذكرنا زينب في مقام ذكر مريم ، وذكرنا مريم في مقام ذكر زينب عليهما أفضل السلام ، ولمقاميهما أصدق الخشوع ، فهما توأم نور من المشكاة القدسية ، بينهما وبينها كل ما تحت السماء من فضائل رسالية وإنسانية أنطقت لسانيهما بالحق الذي لا جَمجَمة فيه .

حقٌ اتخذت جواذبه مساراتها إلى العقول المدخولة .. فاهتدت ، وإلى القلوب المتظلمة .. فتنوَّرت ، وغدا لها في حظيرة الرحمن موقع أنقذها مما كانت ستبرح مضطربة فيه حتى آخر دهرها دون أن تخالطها ظلامية أو دُجُنَّة تخنق ما تناهى إليها من أحاسيس الضمير ، وتسد عليها منافذ البر والخلاص الروحي بردوم الأباطيل التي تميد لتضيع في سديمها اللامتناه ، وتحرمها من التنعم بهيولية المعنى الأتم للحقِ والإيمان ، وتردي بها إلى مهاوي الدرك الأسفل من الممارسات الروحية الوضيعة .

---

(١) يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز : « **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** » سورة الكهف ١٠٣ ـ ١٠٤

لكل ذلك تصدت عقيلة الطهر زينب

وتحملت مصائب دورها المجيد

ولأجله نذرت أَمَة الرب

مريم توجعها وبتوليتها المطهرة

فسلام عليهما يوم ولدتا

ويوم ماتتا

ويوم تبعثان أحياء .

⋆ ⋆ ⋆



الفصل الثامن

إضافات فكرية

إبداع مترع بإلهامات أهل البيت

افتقرنا طويلاً وطال انتظارنا لكتاب عن العقيلة البطلة زينب «ع» نطالع فيه تحليلاً وافياً لمواقفها الخالدة كشريكة لأخيها الحسين «ع» وعلّة انتظارنا الطويل ما داعب مخيلاتنا من أخبار في الصحافة والفضائيات عن قرب صدور كتاب عن الحوراء للكاتب المبدع في سير أهل البيت «ع» الدكتور أنطون بارا وهو الذي أنبأنا منذ صدور سفره القيِّم «الحسين في الفكر المسيحي» عن ألمعية في تحليل الوقائع التاريخية ودوافع أبطالها والإضاءة الوافية على نتائج ما قاموا به وأقدموا عليه في سبيل العقيدة وذبِّ أذى تجني المرجفين عنها ومحاولاتهم تشويه نصاعتها وإخماد تلألؤ بريقها.

ولكن أنّى لهم تحقيق هذه الأهداف الخبيثة وسطوع الإيمان يملأ آفاق القلوب وحنايا الصدور، وسيرة كل غصن من شجرة أهل البيت الكرام تنثر في الأجواء شذى من مسك وعنبر يفوح من مواقفهم الخالدة وتعاليمهم القدسية وما عرف عنهم من قدوات في القول والفعل والتقوى جعل محبتهم في الصدور لحناً شجياً، ومكانتهم في القلوب مثالاً لما وقَر فيها من صور لهذه الرموز السماوية التي أرسلتها للبشرية العناية الإلهية فكلأت برحمتها حياتهم ومثوى عقيدتهم.

إلا أنه وخلال السنوات الخمس والعشرين التي انتظرنا خلالها صدور الكتاب..

كان مؤلفه يرطِّب أكبادنا بين كل فينة وأخرى بإطلالاته في الفضائيات العربية أو في مجالس عاشوراء ولدى زياراته للعتبات المقدسة في كربلاء والنجف ومشهد ودمشق حيث كان يحلق بالحديث عن بطولة زينب ودورها العظيم في نهضة أخيها (ع) فتضرم أحاديثه أشواقنا وتزيدها تلهفاً على تلهف.

ولن أكتم أحاسيسي التي جاشت بعد حصولي على الكتاب الذي تولت إصداره العتبة الحسينية المقدسة وأضافته لمنظومتها الفكرية الرائدة، فعكفتُ على معانقة حروفه سطراً سطراً والتمعن في سهلهِ الممتنع بما حملته لغته من غِنّة في الكَلِم لم نألفها فيما صدر من تآليف حول الحوراء العظيمة، لغة ألمعية لله درٌّ قلم ساكبها طوَّعت جفاف التاريخ وحوّلته إلى طراوة ندية، وحلقت بمخيلاتنا إلى ذرى لم تكتشف بعد.. حملتنا إليها أجنحة معالجة أدبية خلاقة هيأ المؤلف لها من درر لغة الضاد وشاعرية الأسلوب السلس ما هيأ بانهمار عذب وتحليل خلاق ملهم تشعر متلقي هذا الفيض بالحضرة الجمالية والروحية لصاحبة السيرة ومطلقة الصرخة عنوان الكتاب في وجه الحاكم الغشوم.. فشكلت صرختها في عمر الأكوان المعجز الزينبي الذي لا يدانيه معجز قط.

ولكم أخذتني هيولية السكب الأدبي لكاتبنا في تجلياته لا سيما في فصل «جميلاً رأت » الذي غمر أرواحنا بما كنا في توق إليه، ولأول مرة نقرأ تحليلاً لهذه العبارة الخالدة.. تمثلنا بعدها أبعادها العقائدية والنفسية والروحية في كلمتين بينما كان يمر عليها المؤلفون مرور الكرام ضمن السرد التاريخي المجرد، ولعَمري إنها رؤية ملهمة وتحليل مبدع لإحدى عبارات العقيلة وريثة بلاغة أبيها «ع» وغذيّة الإلهام الرسالي الذي اختص به أهل البيت المكرمين صورت بها تطلعاً إلى مطالع الفجر في مثل ليالي القدر كما يصفها أستاذنا العلامة اللغوي الدكتور أسعد علي في مقدمته للكتاب.

أما أجمل فصول الكتاب غير المسبوقة وأبرز مؤثراته المثيرة للقلب والروح معاً.. فهو فصل « بين زينب ومريم » ولن أتحدث عن إلهاماته الخفية والظاهرة في هذه العجالة وأنصح كل محب لزينب ومريم أن يعكف على قراءته والتمعن في موحياته لكل ذي قلب مؤمن للوصول بشغاف القلوب إلى الحضرات المشعة بتألقات سنى هاتين المقدستين في الإسلام والمسيحية.. الحوراء والعذراء «ع» بما هيأته لهما العناية الإلهية من علو المقام وسمو الذكر وتشابه الأدوار والمعاناة.

وأختم مقالتي بشكر عاشق أهل البيت المفكر الدكتور أنطون بارا على سفره الجديد هذا الذي أكمل به ما بدأه بسفره الأول عن الحسين «ع» بكل تجرد وإنصاف بإلهام رباني جدير بنصاعة وجدانه الحي، وبانتظار كتابه المقبل عن النبعة الصافية أمير المؤمنين علي «ع» الذي صرح عن البدء في تأليفه منذ سبع سنوات ليضيف إلى لآلئ سلسلة سير أهل البيت جوهرة لا يعادل بريقها بريق تزين قلادة فكره التي يزهو بها على مدى عمره ونفخر بها نحن قراؤه شيعة الولي الوصي «ع» آملين أن يرشح قلمه العذب عن كتاب آخر حول ظهور المهدي المنتظر عجل الله فرجه ونزول سيدنا عيسى «ع» في آخر الزمان لتتحقق للبشرية ما أعده الله لها من عدل وقسط وحياة مجللة بالفرح والمساواة.

وأقولها وفخرٌ عارم يملأ صدري بثواب ما فعلت حينما نجحت في إقناع إدارة الكلية باعتماد كتابي الأستاذ بارا في مناهجها لإعداد أطروحات درجة الدكتوراه لطلبة الدراسات العليا في فلسفة الأديان والتقريب بين المذاهب والمعتقدات، وترشيح كاتبهما كمحاضر فخري أول في الكلية بالنرويج والتنسيق مع الكليات النظيرة في دول المجموعة الإسكندنافية تمهيداً لمنحه درجة الدكتوراه الفخرية الممتازة في تخصص حوار الحضارات والأديان حلم البشرية على مر الدهور، لا سيما بعد تكريمه من قبل العتبة الحسينية المقدسة التي زكتّه كأبرز شخصية معاصرة كتبت عن

الحسين ونهضته المباركة ونتائجها على المسيرة الخالدة لعقيدة جده المصطفى « ص ».

فإذا استحق كاتبنا المبدع تكريم العتبة الحسينية المقدسة له كأبرز شخصية معاصرة كتبت عن الأمام الحسين «ع».. فإننا نرى بعد صدور سفره القيّم عن العقيلة زينب «ع» بما ضمته دفتاه من رؤى وتحليلات فريدة في بابها لم يسبقه مؤلف لمثلها.. أن نبادر بدورنا نحن قراؤه بتزكيته لذات اللقب الذي يستحقه عن جدارة كمشاركة متواضعة منا في تكريمه على خوضه السعيد في سيرتي شريكي ملحمة الطف الخالدين بقلم سيّال حروفه فوح طيب مدافعاً بها عن حق مبين كنور الشمس في رابعة النهار بجرأة يغبط عليها لم يخش في سكبها لومة لائم ولا إرجاف مرجف.

فهنيئاً لكاتبنا على هذه المكانة الأكاديمية الرفيعة التي أوصلته إليها جدارته الأدبية ونبوغه البحثي في أصعب حقول البحوث غير المسبوقة والنادرة في بابها وأهميتها نظراً لما تحتاجه من التبصر والتبحر في محيط بلا قرار من مئات المخطوطات التاريخية والروايات المتداخلة والمحوطة بالعديد من المسائل الخلافية الحساسة تجعل من الخوض في معمعانها مهمة في غاية الصعوبة لكنها غير مستحيلة على كاتب متميز بالدقة والحصافة مثل الدكتور الألمعي الجسور أنطون بارا.

وشكراً لكاتبنا وألف شكر على الإبداعية الفكرية الرائعة، وإن شاء الله تحسب له في ميزان حسناته وتؤطر اسمه كأحد الأنصار المخلصين لولاية علي «ع» ورافعي راية أهل البيت فخر العالمين[1].

(١) د. محسن جلال السيد أستاذ الأدب المقارن بكلية الدراسات الشرقية - أوسلو - النرويج ٢٠١٦

زينب ملجأ للإنسان الحر

أكد وزير الثقافة والإرشاد في الجمهورية الإسلامية الإيرانية د. علي جنتي خلال مراسم إصدار كتاب « زينب.. صرخة أكملت مسيرة » للمؤلف السوري الدكتور أنطون بارا، أن يوم عاشوراء من العظمة والأهمية والمفاهيم والرسائل الإنسانية التي حملها جعلت كافة أحرار العالم من الكتّاب والمحققين.. وليس المسلمين فحسب يؤلفون عنه الكتب والبحوث.

وأضاف جنتي خلال هذه المراسم التي أقيمت بمشاركة حجة الإسلام والمسلمين السيد مهدي خاموشي رئيس منظمة الإعلام الإسلامي وعدد كبير من الباحثين والخطباء ووسائل الإعلام قائلاً: إن يوم عاشوراء الذي وصفه الإمام الراحل « ره » بـ« انتصار الدم على السيف » كان يحمل مفاهيم إنسانية عن حياة الأئمة المعصومين « ع » جعلت جميع الأحرار في العالم يتشوقون للحديث عنه وأخذ الدروس القيّمة من هذا اليوم العظيم في مسيرة سيد الشهداء « ع » وأصحابه الميامين الذين سطّروا أسمى آيات التضحية.

وأشار الوزير د. جنتي إلى الكتب الأخرى التي ألّفها كتّاب مسيحيون حول الأئمة « ع » مثل جورج جرداق حول الإمام علي « ع » والدكتور أنطون بارا حول سيد الشهداء الحسين « ع » معرباً عن تقديره للجهد الذي بذله المؤلف لإنجاز هذا الكتاب.

بدوره أشاد حجة الإسلام والمسلمين السيد مهدي خاموشي بالكاتب أنطون بارا لتأليفه كتاب « زينب.. صرخة أكملت مسيرة » بلغة سلسلة وشعرية وبليغة تجعل الكثير من المحققين والقرّاء يتعطشون لمطالعته، مؤكداً أن المؤلف كان يسعى للعثور على الإنسان الكامل في هذا الكتاب ويبدو أنه وجده في شخصية السيدة زينب « ع » والتي تمثل ملجأ لكل إنسان حر[١].

ولابد من الإشارة إلى أن الكتاب قد تم نشره بطبعتين عربية وفارسية من قبل دار النشر والطبع الدولية في طهران.



(١) من كلمتين للوزير الدكتور علي جنتي، والدكتور السيد مهدي خاموشي في حفل توقيع الكتاب في صالة حوزة هنري بطهران عام ٢٠١٤.

أم المصائب سيدة الشهيدات

شكراً للدكتور (أنطون بارا) الذي فاجأني في ذلك الصباح بهدية قيمة ذات حجم يمتد امتداد الافق الرحيب، ولا عجب ان كانت تلك الهدية تحمل عنوان العظمة والكبرياء والشموخ لامرأة طأطأ لها التاريخ هامته تلك هي زينب ابنة الامام علي عليه السلام قد أسرج الكاتب القدير بطولتها في كتاب يتدفق نوراً وألقاً.

من يستطيع احتواء حياة زينب بتفاصيلها الدقيقة والدامية كما كتب انطون بارا في سطورٍ تلهج كمداً وتئن حزناً في اخراج دراماتيكي ملحمي مؤثر ، انه القلم النابض بحب أهل البيت عليهم السلام ، انه القريحة المشتعلة بالعقيدة الراسخة والمتوهجة بنور يسرج ضوءه المسيح والاسلام.

ان زينب عليها السلام ولدت في حضن النبوة وترعرعت في حجر الإمامة ونهلت من ينبوع السماء ذلك الدفق العبق بالعقيدة الراسخة التي جعلتها شامخة فوق الاحزان سامقة رغم النكبات التي اجترعتها وهي طفلة ثم صبية حزينة تفقد احبابها واهلها واحداً بعد الآخر وتقوم برعاية اسرتها بعد استشهاد امها الزهراء عليها السلام حتى تتزوج من ابن عمها وتقوم بمهام الزوجة الصالحة الى مرحلة النهضة الحسينية والقرار الالهي في مرافقة اخيها الحسين في كربلاء.

وفي الثورة الحسينية يشهد لها التاريخ وقفتها الفذة مع اخيها وإمامها الحسين عليه السلام وقفة مبدأ ، تلهمه الشجاعة والثبات والصبر وتدير حرائر آل البيت وأطفالهم بحنان وعطف يجمع القوة والجلَد، تدرك أنها رفيقة الرسالة وصوتها الشامخ على مر العصور، وكم كانت مبكية خطواتها وهي تتهاوى ذابلة ذاوية على جسد اخيها الشهيد تذرف الدمع السخين وتحسبه قرباناً لوجه الله تعالى.

وبعد الثورة تبدأ زينب أميرة القافلة بحماية ورعاية الأسرى والأطفال والإمام زين العابدين وتتوعد المتخاذلين عن نصرة الإمام الحسين بخطب نارية تلسع الضمائر بسياط لاترحم ، وتقف امام ابن مرجانه كالطود الشامخ قائلة له بكل فخر (ما رأيت الا جميلاً) فألقمته بحجر الكبرياء والتحدي.

وتستمر الصرخة الثورية لزينب أمام الطاغية يزيد وتواجهه في أعنف مواجهة ببلاغة علوية نهلت من أصفى الدنان فحطمت جبروته على صخرة الإيمان الصلبة وطوت حكمه الزائف بخطبتها الرسالية.

وامتدت صرخة زينب عبر المجالس الثورية والإعلام المحمدي الاصيل الذي يبث الحقائق دون ريب وكذب حتى عادت الى المدينة المنورة وصوتها في فضح مؤامرة يزيد يزداد ضراوة وإعلانها لإهداف الثورة الحسينية يتوهج بحرارة حتى اضطر والي المدينة بأمر من يزيد ان يتم نفيها الى مصر وعاشت هناك تعلم وتدرس وتبث النور الحسيني في اشعاعات ثورية حتى توفت فقد انهكتها المحن وصرعتها الآلام وافترسها المرض.

والدكتور انطون بارا قد جمع السيدة زينب ع والسيدة مريم العذراء بلحمة لاتنفك فهما من منبع رسالي واحد فزينب

(أم المصائب) والسيدة مريم (أم الأوجاع).

فالسيد المسيح عاش المعاناة والتعذيب والاذلال تحت سمع وبصر أمه مريم التي

تجرعت معه كل صنوف الآلام وهكذا هو ديدن أصحاب الرسالات والعقائد خلقوا للابتلاء والامتحان من اجل ترسيخ الحق والحرية والعدالة في الامم والمجتمعات

في هذه الملحمة أبكانا الكاتب القدير انطون بارا ، باسلوبه الرائع وهو يصف ادق التفاصيل والأحداث في دراما محزنة.

حرقة زينب وفجائعها التي تذيب القلب ، ومعاناتها العاطفية كامرأة تمتلك هذا الزخم من الحنان والحب، وهذا التناقض الجميل بين قوتها ورقتها، فجاء قلم الكاتب سيّالاً قد فاضت قريحته أسىً وشجىً ، تتعاقب سطوره بانسجام واتقان نادرين، حتى أنك لو تود أن تأتي على الكتاب مرة واحدة لفرط الإثارة في الأحداث المتعاقبة في نسق جميل ومترابط.

هذا الكتاب اعتبره المرجع الأول لحياة السيدة زينب عليها السلام فقد اشتمل على تفاصيل حياتها بدقة مرجعية متقنة وبتحليل شيّق يستحق التقدير والإعجاب[١].



(١) مقال للأديبة الروائية الكويتية د. خولة القزويني

سكبت في سطوره دموعاً حرَّى

بعث إمام جمعة النجف الأشرف سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد صدر الدين القبانجي رسالة إشادة للكاتب أنطون بارا حول مؤلفه الموسوم « زينب صرخة أكملت مسيرة » مهنئاً إياه على هذه الكتابات والبحوث الرائعة والاكتشافات الجميلة.

وجاء في النص: الدكتور أنطون بارا دام توفيقه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أهدي إليَّ قبل ثلاث ليال كتابكم الرائع « زينب صرخة اكملت مسيرة » وقد سرحت معه طويلاً وبكيت غزيراً، وأمعنت النظر فيه كثيراً، وتابعت فصوله وجملاته مرة بعد أخرى وسكبت فيه دموعاً حرَّى.

لقد أفدت من هذا الكتاب وأشرت إليه أكثر من مرة في محاضراتي في ليالي « محرم الحرام » وأثنيت على كاتبه، وبودي بهذه العجالة أن أتقدم إليك أيها الأستاذ الموهوب والذي شملته عناية الله ورحمته فالتحق بركب الصالحين ونال بذلك الفوز المبين.

بودي أن أتقدم إليك بالتهنئة والتقدير لبحثك الرائع، واكتشافاتك الجميلة، وروحك، وعواطفك، وقلمك، ومشاعرك، وأناملك التي سطرت أروع ملحمة

تاريخية، وليتني استطعت تقبيل تلك الأنامل، ولعلي أكتب لك مرة أخرى عن مشاعري حول الكتاب.

ولربما لاحظت يا دكتور أن ثمة عبارة واحدة تكررت بنصها الحرفي في موقفين غفل مدقق السطور عن إلغاء أحداهما، رغم وضوح الجهد الكبير المبذول في طباعة الكتاب ودقته، والنص المكرر سهواً « مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ».

وهو للسيدة زينب « ع » مع زين العابدين « ع » تواسيه وتشد من إزره بعد المعركة، والله أعلم.

ولربما لم تتم الإشارة إلى مصدر واقعة تاريخية مثل مائدة فضة التي هبطت لهم [1].



(١) من كتاب السيد صدر الدين القبانجي للمؤلف – النجف الأشرف ٤ محرم الحرام ١٤٣٦ هجرية.